

PH
26
OS
CS
19

CORNELL
UNIVERSITY
LIBRARY



GIFT OF
Binghamton
Public Library

OLIN
IP
2635
985
C9
1925a

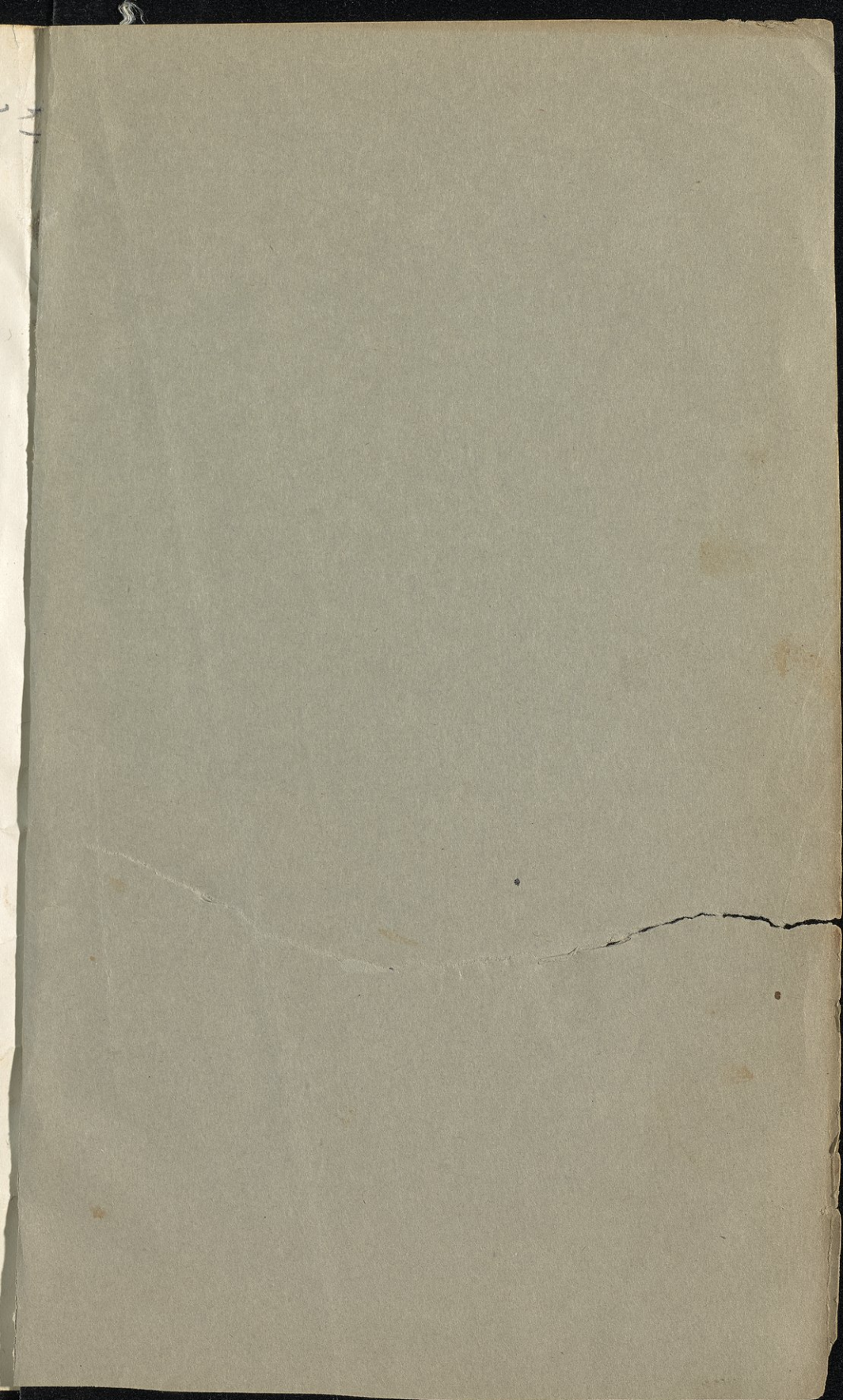
89

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY



3 1924 059 914 915

DISCARD



السَّاعِي

١٥

DISCARD FIRST WARD BRANCH
سيرانودي برجرال

بقلم المرحوم

مصطفى لطفى المنقلاطى

وهى خلاصة الرواية التمثيلية التى وضعها الشاعر العظيم

إدمون روستان

تتضمن على ٢٤ رسما

الطبعة الثالثة

ربيع الثانى سنة ١٣٤٤ - نوفمبر ١٩٢٥

يطلب من المكتبة التجارئة الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

|||

المطبعة الرحمانية بمصر

لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف

FIRST WARD BRANCH



سیرانودی برچراک بطل الروایة

8927

R

cop.1



مادلين روبان الشهيرة بروكسان فتاة الرواية

اهداء الرواية

إلى الشعراء

مؤلف هذه الرواية شاعر وبطلها شاعر، وأكثر
أشخاصها شعراء، وموضوعها الشعر والأدب، وعبرتها
أن النفس الشعرية هي أجمل شيء في العالم وأبدع صورة
رسمتها ريشة المصور الأعظم في لوح الكائنات، وأنها
هي التي يهيم بها الهائمون، ويتولاه المتولاهون، حين يظنون
أنهم يعشقون الصور ويستهيمون بحاسن الوجوه
لذلك أقدمها هدية إلى الشعراء فهم رجالها وأبطالها
وأصحاب الشأن فيها، ولا أطلب عندهم جزاء عليها أكثر
من أن أراهم جميعاً في حياتهم الأدبية والاجتماعية
سيرانو دي برچراك

مصطفى لطفى

أول مايو سنة ١٩٢١

المنفلوطي

مركز الدراسات والبحوث
الاسلامية والدراسات
الاسلامية

FIRST WARD BRANCH

مقدمة

أطلعني حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد
عبد السلام الجندي على هذه الرواية التي عربها عن
اللغة الفرنسية تعريباً حرفياً حافظ فيه على الأصل
محافظة دقيقة وطلب إليّ أن أهدب عبارتها ليقدمها
إلى فرقة تمثيلية تقوم بتمثيلها ففعلت واستطعت في أثناء
ذلك أن أقرأ الرواية قراءة دقيقة وأن أستشف أغراضها
ومغازيها التي أراد المؤلف أن يضمها إياها فأعجبني منها
الشيء الكثير ، وأفضل ما أعجبني منها أنها صورت
التضحية تصويراً بديعاً وهي الفضيلة التي أعتقد أنها
مصدر جميع الفضائل الانسانية ونقطة دائرتها فرأيت
أن أحولها من قالب التمثيل إلى قالب القصص

٩٦٩٩٦

BRONX NEW YORK
PUBLIC LIBRARY

ليستطيع القارئ أن يراها على صفحات القرطاس كما
يستطيع المشاهد أن يراها على مسرح التمثيل ، وقد حافظت
على روح الأصل بتمامه وقيدت نفسي به تقييداً شديداً
فلم أتجاوز إلا في حذف بعض جمل لأهمية لها وزيادة
بعض عبارات اضطررتني إليها ضرورة النقل والتحويل
واتساق الأغراض والمقاصد بدون إخلال بالأصل أو
خروج عن دائرته ، فمن قرأ التعريب قرأ الأصل
الفرنسي بعينه إلا ما كان من الفرق بين بلاغة القلمين
ومقدرة الكاتبين ومالا بد من عروضه على كل منقول
من لغة إلى أخرى وخاصة إذا قيد المعرب نفسه وحبس
قلمه عن التصرف والافتنان

مصطفى لطفى

المنفاوطى

أشخاص الرواية

سيرانو دي برجرارك

شاعر فرنسي من شعراء القرن السابع عشر نشأ
غريباً في أطواره وأخلاقه منفرداً بصفات قلَّ أن تجتمع
لأحد من معاصريه ، فكان جامعاً بين الشجاعة إلى درجة
التهور ، والخلج إلى درجة الضعف ، وبين القسوة إلى
معاذرة أعدائه على أصغر الهفوات ، والرقة إلى البكاء على
بؤس البائسين من أصدقائه وأبناء حرفته ، وكان كريماً
متلاقاً لا يبتغي على شيء مما في يده ، وعفيفاً لا يمد يده إلى
مخلوق كائناً من كان ، وصريحاً لا يتردد لحظة واحدة
في مجابهة صاحب العيب بعبه كيفما كان شأنه وكيفما كانت
النتيجة المترتبة على ذلك ، فكان عدو الكاذبين والمرائين

والمغرورين والسفلة والمتملقين ، أى انه كان عدواً للهيئة
الاجتماعية التي يعيش فيها تقريباً كما كانت عدوة له كذلك
لاتهداً عن مشاكسته ومناواته وابتغاء الغوائل به
ولم يكن له من الأصدقاء إلا أفراد قلائل جداً هم
الذين يفهمون حقيقة نفسه وجوهرها ويقدرونه قدره
وقدر صفاته الكريمة التي كان يتصف بها

وكان الخلق الغالب عليه من بين جميع أخلاقه خلق
العزة والانفة فكان شديد الاحتفاظ بكرامته والضن
بعرضه أن ينال منهما نائل أو يعبت بهما عابت ، وكان
لا يرى في أكثر أوقاته إلا مبارزاً أو مناظلاً أو نائراً
أو مهتاجاً أو واضعاً يده على مقبض سيفه أو ملقياً قفازه
على وجه خصمه شأن الفوارس الأبطال في ذلك العصر
وكانت بليته العظمى في حياته ومنبع شقائه وبلائه أنه
كان دميم الوجه كبير الأنف جداً إلى درجة تلفت النظر
وتستثير الدهشة ، وكان يعلم ذلك من نفسه حق العلم

ويتألم بسببه تألماً كثيراً لأنه كان عاشقاً لابنة عمه
« روكسان » الشهيرة بجمالها النادر وذكائها الخارق ، وكان
يعتقد أن المرأة مهما سمت أخلاقها وجلت صفاتها لا يمكن
أن تقع في أحوالة غرامية غير أحوالة الجمال ولا تغنى بحسن
غير حسن الوجوه والصور فكان وهو أشجع الناس
وأجروهم وأعظمهم مخاطرة واقداماً لا يجسر أن يفتح
حبيبته هذه في شأن حبه حياءً من نفسه وخجلاً

فكان أنفه سبب شقائه من جهتين ، أنه وقف عقبة
بينه وبين غرامه ، وأنه كان المنفذ العظيم الذي ينحدر
منه أعداؤه وخصومه الى السخرية به والتهمك عليه ، وهو
لا يطيق ذلك ولا يحتمله ، فكان النزاع بينه وبينهم دائماً
لا ينقطع ، وكان لا ينتهي غالباً إلا بمبارزة يخرج منها في
الغالب فائزاً منتصراً ولكن كثير الخصوم والأعداء
وكان جندياً في فصيلة شبان الحرس من الجيش

الفرنسي وكان أفراد تلك الفصيلة جميعهم من
الجاسكونيين مثله ، وهم قوم معروفون بخشونة الأخلاق
ووعورتها وبكثرة التبجح والادعاء والغرور والكذب ،
ولهم مع ذلك فضيلة الشجاعة والصبر والقناعة والشرف
وعزة النفس ، وكان سيرانو متصفاً بحسناتهم مترفعاً عن
سيئاتهم ، فكان له في نفوسهم أسمى منزلة من الاجلال
والاعظام ، وكانوا يحبونه حباً شديداً ويدعون لرأيه
ويستطرفون أحاديثه ودعاباته ويفخرون به وبنبوغه
وشجاعته وجراته وصراعته كما كان يفخر بهم وبعصبيتهم
وكان من أسوأ الشعراء حظاً في حياته فقد قضى عمره
كله خاملاً مغموراً يجهل الدهماء قدره لأنهم لا يفهمونه ،
وينكر الأدباء فضله لأنهم يبغضونه ويمجدون عليه
وينقمون منه خشونته وشدته في مؤاخذتهم وتقدم ، فلم
يكن يحفل بذلك كثيراً لأنه كان مخلصاً لايهمه إلا أن
يكون عظيماً في عين نفسه ثم لا يبالي بعد ذلك بما يكون

وكثيراً ما كان ينظم الرواية الجميلة ذات المغزى
العظيم والاسلوب الرائق فلا يفكر في أهدائها الى أحد
من العظماء ليتوسل بذلك الى نشرها وتروييحها وحمل الفرق
التمثيلية على تمثيلها كما كان يفعل الشعراء في عصره أنفة
وإباء وصناً بنفسه أن يقف موقف الذل والضراعة على أى
باب من الابواب كيفما كان شأنه ، وربما سرق بعض
الروائيين قطعاً من رواياته فضمنوها رواياتهم وانتفعوا بها
فلا يغضبه ذلك ولا يزعجه ، وكل ما كان يفكر فيه أو
يسأل عنه في هذا الموقف ماذا كان وقع تلك القطعة
في نفوس الجماهير حينما سمعوها ؟

ولقد أخلص في حبه لابنة عمه « روكسان » اخلاصاً
لم يسمع بمثله في تاريخ الحب فأحبها وهي لاتعلم بحبه ، وتألم
في سبيل ذلك الحب ألماً شديداً وهي لاتشعر بألمه ،
وأحبت غيره فلم يحقد ولم ينتقم ، بل كان أكبر عون لها
في غرامها الذي اختارته لنفسها ولم يلبث أن اتخذ حبيبها

الذى آثرته صديقاً له وأخلص في مودته اخلاصاً عظيماً
وأعانه على استمرار صلته بها وبقاء حبه في قلبها لانه
ما كان يهيمه شيء في العالم سوى أن يراها سعيدة في حياتها
مغتبطة بعيشها وهذا كل حظه في الحياة

ولم يزل هذا شأنه طول حياته حتى خرج من دنياه
ولم تعلم روكسان بسريرة نفسه إلا في الساعة الاخيرة
التي لا يفتنى عندها العلم شيئاً

روكسان

ابنة عم سيرانو دي برچراك ، وهى فتاة شريفة
متعلمة وافرة الفضل والذكاء عالية الهمة عفيفة الذيل
مولعة بالشعر والادب إلا أنها كانت تذهب في ذوقها
الأدبى مذهب النساء المتحذقات في ذلك العصر ، أى
أنها كانت كثيرة التكلف في أحاديثها وإشاراتها ، وكان
لا يعجبها من الكلام إلا ذلك النوع الذى يسمونه بالصناعة

اللفظية ولا من المعاني إلا تلك الخيالات الطائرة الهائمة
على وجهها التي لا أساس لها في الحياة ولا وجود لها في
فطرة النفس وطبيعتها

وقد نشأت يتيمة منقطعة لا أهل لها ولا أقرباء إلا
ابن عمها سيرانو إلا أنها كانت تعيش عيشاً رغداً هنيئاً
بفضل الثروة الواسعة التي ورثها عن أبيها

فأحبها كثير من النبلاء والاشراف وعرضوا عليها
الزواج فلم تحفل بهم وأحبها « الكونت دي جيش »
وهو أحد قواد الجيش الفرنسي وكان متزوجاً بابنة أخت
الكردينال دي ريشلييه فأراد أن يستخدم نفوذه وجاهه في
حملها على الزواج من فتى من أشياعه اسمه الفيكونت فالشير
على الطريقة المعروفة في ذلك العهد عند الملوك والنبلاء
فدفعته عنها برفق وحكمة خوفاً على نفسها منه ، وظلت
تتأمله زمناً طويلاً حتى أحبها البارون كرستيان دي نوفييت
فأحبه وأخلصت له إخلاصاً عظيماً ، ولم يكن في الحقيقة

متصفاً بصفات الفطنة والذكاء والنبوغ التي كانت تظنها
مجتمعة فيه لولا الحيلة الغربية التي احتلها عليها سيرانو
حتى أوهمها ذلك ، وهنا نكتة الرواية وبيت قصيدها ،
ثم تزوجت منه بعد ذلك زواجاً سرياً ولكنها لم تكذب
تضع شفقتها على الكاس حتى انتزعت منها وكان هذا آخر
عهدا بسعادة الحياة وهنائها

كرستيان دي نوقيت

نبيل من نبلاء الريف وفد الى باريس ليلتحق بفرقة
الحرس من الجيش الفرنسي كما كانت عادة الاشراف في ذلك
العهد ، وهي الفرقة التي كان يعمل فيها سيرانو ، وكان في
جميل الصورة شريف النفس طيب القلب الا أنه كان
أقرب الى البلادة منه الى الذكاء فوقع نظره على روكسان
في حانة بوجونيا فأحبها وأحبته على البعد ، وكان قد علم من
أمرها انها فتاة قديرة متفوقة ذكية الفؤاد غزيرة العلم قوية

الارادة لا يعجبها من الرجال إلا الاذكياء المتفوقون
فهاب الدنو منها ومفاتحتها في شأن حبه وخشى أن يسقط من
عينها سقطه لا قيام له من بعدها ولم يزل هذا شأنه حتى أدركه
سيرانو واحتال له تلك الحيلة الغربية المدهشة التي جعلت
روكسان تعتقد أنها قد أحبت أذكي الناس وأسماهم عقلا
وأبعدهم غورا وأطلقهم لسانا وأبلغهم قوما لا يريد بذلك إلا
سعادتها وهناءها وهو يتهالك بينه وبين نفسه غمماً وكهداً لأنه
وهو ظامئ هيمان يقدم الكأس بيده للشاربين ولا يدوق
منها قطرة واحدة

الكونت دي جيش

أحد قواد الجيش الفرنسي وهو من أصل جاسكوني
كسيرانو وروكسان إلا انه كان يذهب في حياته مذهبا غير
مذهب أبناء جلده الجاسكونيين في قناعتهم وخشونتهم
وبساطة عيشهم بل كان رجلا واسع المطامع شغوفاً بالمعالي

متطلعاً الى المناصب العليا والمراتب الكبرى وقد تم له
ما أراد من ذلك بمجده واجتهاده فاصبح قائداً من قواد الجيش
الفرنسي وصهراً للكردينال دي ريشلييه

وقد رأى روکسان في طريقه مرة فشغف بها شغفا
عظيماً وأراد أن يضمها اليه من طريق تزويجها من أحد
صنائعه فاحتالت للخروج من ذلك المأزق بحيلة لطيفة
جداً وتزوجت من الرجل الذي أحبته بمعونة ابن عمها
سيرانو فعادها الكونت من أجل ذلك وانتقم منها ومن
زوجها ومن سيرانو انتقاماً هائلاً

لينير

شاعر مسكين من أصدقاء سيرانو نظم قصيدة
طويلة هجأ بها الكونت دي جيش وعرض فيها بقصته
مع روکسان وفضح جريمته التي أراد أن يقتربها معها
فخذ عليه الكونت حقداً شديداً ودرس له كميناً مؤلفاً من

مائة رجل ليقتلوه عند رجوعه الى منزله ليلاً لولا أن
أدركه سيرانو على أعدائه فنجا

لبريه

أحد أصدقاء سيرانو المخلصين وكان ينصحه دائماً
بالهدوء والسكينة وينعى عليه شدة وصرامته في أخلاقه
وطباعه وينصح له باتخاذ خطة في الحياة تناسب البيئة التي
يعيش فيها رحمة بنفسه وإبقاء على راحته وسكونه فلا
يحفل بنصحه لأن له رأياً في الحياة غير رأيه ومذهباً
غير مذهبه ، ولم يكن اختلافهما هذا في المشرب والخطة
مانعاً لهما من الصداقة والاختلاص ووفاء كل منهما لصاحبه
حتى ما كانا يستطيعان الاقتراق ساعة واحدة

مونفلورى

أحد الممثلين في حانة بوجونيا ، وكان مشهوراً
بحسن لقائه لرواية « كلوريز » تأليف الروائي الشهير
« بارو »

وكان سيرانو يبعثه ويستقل حركاته التمثيلية وينقم
عليه إعجاباً بنفسه على قبحة ودمامته ويأخذ عليه كثرة
ترديد نظره أثناء التمثيل في مخادع السيدات يحاول افتتاحهن
واجتذاب قلوبهن ، وقد رآه مرة ينظر الى روكسان
نظرة مريبة فتعلل عليه ببعض العليل وأمره أن ينقطع
عن التمثيل شهراً كاملاً فحاول الامتناع عليه وعصيان
أمره فأنزله من المسرح بالقوة وطرده رغم دفاع الكثيرين
من الأشراف والنبلاء عنه وخاصة الكونت
دى جيش

راجنو

طباخ مشهور يبيع في حانوته الكبير أنخر أنواع
المطاعم من شواء وفتائر وحلوى وكان محباً للشعر
والأدب والتمثيل عطوفاً على البؤساء من الشعراء والممثلين
وكان يستقبلهم في حانوته استقبالاً حافلاً ويقدم لهم على

حسابه ما يقترحون من طعام وشراب ، وكان كل حظه
منهم أن يجلس اليهم ويسمع محاوراتهم الأدبية ويلتقط
ما يتناثر حولهم من مسودات أشعارهم وفصولهم
ويسمعهم ما ينظمه من الشعر الضعيف التافه فيتظاهرون
باستحسانه والاعجاب به إبقاء على مودته حتى أدركته
حرفة الأدب فأفلس وأغلق خانوته فأعانه سيرانو على
شؤون حياته وكان من أكبر أنصاره والمتشيعين له
ولكن الحظ كان قد فارقه فلم ينجح في عمل من الأعمال
التي اشتغل بها وظل البؤس ملازماً له طول حياته

ليز

زوجة راجنو وهي امرأة فاسدة الأخلاق خبيثة
النفس كانت تهزأ بزوجها وتسخر منه وتنعى عليه اشتغاله
بالشعر والأدب واهتمامه بالشعراء والأدباء وعنايته بهم ،
وكانت تفضل أن تقدم هي بنفسها الخانوت كله لضابط

من ضباط الجيش تعجب به على أن يقدم زوجها راجنو
لقمة واحدة منه لأديب من الأدياء، ولما رأته تضعضع
حاله وانتكاث أمره فرت مع أحد ضباط الجيش ولم
يرها بعد ذلك

كاربون دي كاستل

قائد فصيلة شبان الحرس وكان كل أفرادها من
الجاسكونيين وهو جاسكوني مثلهم فكان يحبهم حباً
شديداً ويعطف عليهم، وكان يعتمد في أعماله على سيرانو
ويعده خير جنوده، والتاريخ يذكر له دفاعه العظيم
بفصيلته في ميدان أراس عن الموقع الذي اختار جيش
العدو مهاجمته حتى تم النصر للراية الفرنسية على الراية
الاسبانية

الفصل الأول

« حانة بوجونيا »

في ليلة من ليالى سنة ١٦٤٠ بدأ الناس يفدون الى حانة بوجونيا في باريس لمشاهدة رواية « كلوريز » وهى إحدى روايات الشاعر المشهور « بلتازار بارو » ولم يكن للتمثيل فى ذلك العصر دورٌ خاصة به وإنما كانوا يمثلون فى الحانات أو المطاعم الكبيرة على مسارح خاصة يعدونها لذلك

وكان جمهور المشاهدين فى تلك الليلة كما هو شأنهم فى جميع الليالى خليطاً من العمال والجنود واللصوص والخدم والأشراف والعلماء والكتاب وأعضاء المجمع العلمى الفرنسى قد اختلط بعضهم ببعض ، وجلس أحيارهم بجانب

أشرارهم ، فبينما العلماء يتناقشون في مباحثهم العلمية ،
والأدباء يتحدثون في شؤونهم الأدبية ، إذا فريق من
الخدم قد ألقوا شمعة بالأرض واستداروا من
حولها حلقة واسعة وأخذوا يقامرون بالمال الذي سرقوه
من أسيادهم في ساعات لهوهم واستهتارهم ، وآخرون من
أبناء الأشراف قد تماسكوا بأيديهم وظلوا يدورون حول
أنفسهم راقصين مترنحين ، وآخرون من الغوغاء يأكلون
ويقصفون^(١) ويتساقون ويتلاكمون ويجأرون بأصوات
عالية متنوعة كأنهم في سوق من أسواق المزادة ، وجماعة
من يتلهون بالمبارزة والملاكمة لايبالون من يطأون
بأقدامهم ، أو يصيبون بشفرات سيوفهم ، وفتة من
الصعاليك قد اصطفوا صفاً واحداً بين يدي لص من دهاة
اللصوص ومناكيرهم يعلمهم كيف يسرقون الساعات من
الصدور ، ويمزقون الجيوب عن الأكياس ، وكيف

(١) القصف، الإقامة في الشرب واللهو

يتغفلون صاحب المعطف عن معطفه ، والقبعة عن قبعته ،
والعصا عن عصاه ، كانه قائد يدرب جنوده على الحركات
العسكرية ، وقي من المتأيقن المتظرفين يطارد فتاة
المقصف^(١) من ركن إلى ركن يحاول إمساكها والعبث
بها وهي تمتنع عليه وتتأبى تأبياً أشبه بالاغراء منه بالامتناع ،
وجندى من جنود الحرس قد تغفل البواب عند دخوله
وأملس من يده دون أن يدفع اليه شيئاً والبواب يطارده
ويلاحيه ويأخذ بتلايبه فيجادل عن نفسه بأنه حارس
الملك وحراس الملك أحرار يدخلون من الامكنة ما
يشاءون ، وزمرة من المتأدين قد انتبذوا ناحية من القاعة
وأخذوا يندبون الأدب وحظه وشقاء أهليه وبلاءهم ويقول
بعضهم لبعض : أليس من مصائب الدهر ورزاياه أن
يقف موقف الممثل بين هذا الجمهور الساقط أمثال
« مونفلورى » و « بلروز » و « بويريه » و « جودليه »

(١) مكان القصف

وأن تمثل على مثل هذا المسرح الحفير المبتذل روايات
أكبر الشعراء والروائيين أمثال « روترو » و « كورنى »
و « بارو »

ولم يكن يضىء تلك القاعة على كبرها واتساعها إلا
بضعة مصابيح ضئيلة تترأى تلك الجماهير على نورها كأنها
الأشباح المتحركة ، أو الأرواح الهائمة ، وقد يسمع السامع
فيها من حين إلى حين في وسط هذه الضوضاء صوت
فتاة المقصف وهي تصيح خلف مقصفها بصوتها الرقيق
الرنان « اللبن » ، « الحلوى » ، « عصير البرتقال » ،
« عصير الرمان » ، « الشواء » « الفطير » ، « النييد » ،
أو صوت شيخ هرم يسب ويحتمد ويضرب الأرض
بقدميه وهو عارى الرأس منقلب السحنة لأن أحد الجالسين
في الطبقة العليا من الملعب قد أرسل على رأسه المستعار
شخصاً^(١) فاجتذبه به وظل معلقاً في الفضاء على مرأى من

(١) الشخص حديده عفاء يصاد بها السمك تشبه الصنارة

الجماهير الضاحكين ، أو صارخاً متألماً قد وضع يده على
عينه وظل يصيح واغوائه واوللتاه لأن بعض المتفرجين
صوب إليها حصاة صغيرة أو نواة فأصابها بها ، إلى أمثال
ذلك من صراخ الصارخين وهتاف الهاتفين من جميع
جوانب القاعة : أشعلوا الأنوار ، ارفعوا الستار

ولم يزل هذا شأنهم حتى دقت الساعة العاشرة من
الليل وقرب ميعاد التمثيل فدخل جماعة من الأشراف
المتأنقين يجررون أذيالهم ، ويشمخون بأنوفهم ، ويتأففون
لضعف الأنوار وضوضاء الجماهير ، ويصيحون : الطريق
الطريق ، أيها الصعاليك ، فتتفرج الصفوف لهم انفراجاً ،
حتى بلغوا مكان المسرح فصعدوا عليه ، وجلسوا فيه على
مقاعد متفرقة في أتحائه جلسة باردة وقحة لأب فيها
ولا احتشام ، وكانت المقاصير في ذلك التاريخ خاصة
بالنساء لا يجلس فيها غيرهن إلا مقصورة واحدة بجانب
المسرح كان يجلس فيها الكردينال إذا حضر أو من ينزل

منزلته من عظماء المملكة ووجوهها

« طاهي الشعراء »

جلس في ركن من أركان القاعة في تلك الساعة
شخصان منفردان ، أحدهما الشاعر « لينير » وهو رجل
بأئس مسكين مغرم بالشراب ومعاقرته لا تسكاد تفارق
يده السكاس ليله ونهاره ، وثانيهما البارون « كرستيان
دى نوفييت » وهو فقي من أشراف الريف ، جميل الطلعة ،
حسن الزى والثياب ، إلا أن هندامه على الطراز القديم
حضر من « تورين » الى باريس منذ عشرين يوماً ليلتحق
بفرقة الحرس من الجيش الفرنسي فلم يدخلها إلا صباح
اليوم ، فقال الشاعر للبارون : إن صاحبتك لم تمض حتى
الساعة ، وهامى مقصورتها التي أشرت لي إليها لاتزال
خالية ، وقد اشتد ظمئى فائذن لي بالذهاب إلى إحدى
الحانات القريبة لأتناول قليلا من الشراب ثم أعود اليك ،

فاضطرب كرستيان وتشبث بشوبه وقال له : إنك إن ذهبت
لن تعود يا لينير ، وأنا في أشد الحاجة اليك ، فاني أريد أن
أعرف من هي ؟ وما منبت دوحتها ؟ وربما بدا لي أن
أزورها الليلة في مقصورتها وأتعرّف إليها وليس في
استطاعتي أن أقدم على ذلك وحدي ، فأنت تعلم أنني رجل
جندي ساذج حديث عهد بهذا البلد وأهليه وآدابه
ومصطلحاته ، ويخيل اليّ وإن لم أكن قد حادثتها أو
جلستُ إليها أنها فتاة ذكية متوقدة بارعة في أساليب
الحديث ومناهجه ، وأخاف إن أنا لقيتها وحدي أن
أضعف أمامها واضطرب أو أرتبك في حركة من الحركات بين
يديها فأسقط من عينها سقطة لا مقيلا لي منها أبد
الدهر ، فابق معي وكن عوناً لي عليها لتتمّ بذلك يدك عندي
وهنا مرت فتاة المقصف حاملةً على يدها صينية
بيضاء وهي تتغنى بصوتها الرقيق الشجي فناداها لينير
فدنت منه فسألها عما عندها فظلت تسرد عليه أسماء

فطائرها وقدائدها وأشربتها وحلواها وهو لا يأبه لشيء
من ذلك حتى ذكرت له نبيذ « بوردو » فتهلل وجهه
وتحلب فوه ، وطلب إليها أن تأتيه بالجيد منه ، فأنت له
بما أراد فلا كأسه وبدأ يشرب ويتغنى ، وما هي إلا لحظة
حتى قال لكروستيان : الآن أستطيع أن أبقى معك قليلا
أيها الصديق الكريم

وفي تلك اللحظة دخل القاعة رجل قصير ضخم
الجمجمة غريب الهيئة في ملابس الطهارة وشمالهم فصرخ
الجاهل حين رأوه : راجنو ! راجنو ! فلم يأبه لهم ، ولم
يلتفت إليهم ، واندفع مسرعا إلى لينير ، وقال له بصوت
متهدج مضطرب دون أن يحببه أو يحيي جليسه : ألم تر
صديقنا سيرانوا يا لينير ! قال لا ، ومالي أراك مضطربا
هكذا كأنك هارب من معركة أو مأخوذ بجريرة ، قال
ما أحسب إلا أنه سيحدث الليلة في هذه القاعة حادث
عظيم لا يعلم إلا الله كيف تكون عاقبته ، فانزعج لينير

وقال أى حادث تريد ؟ قال قد علمت الساعة أن سيرانو كان قد وجدَ على الممثل مونفلورى منذ أيام فى شأن من الشؤون لا أعلمه فى حكم عليه بأن ينقطع عن التمثيل شهراً كاملاً وهدده بالموت إن هو خالف أمره ، وكنت أظن أن الرجل قد أذعن لهذا الحكم صنفاً بنفسه وبحياته ، ولكننى رأيت الساعة واقفاً فى حجرة الممثلين يترنم بقطعة تمثيلية وأظن أنه سيقوم بتمثيل دوره الذى اعتاد أن يمثله فى رواية « كلوريز » وهو دور « قيدين » فان فعل فقد وقعت الكارثة العظمى التى لا حيلة لنا ولا لأحد من الناس فى دفعها ، وسيرانو كما تعلم رجل مخاطر جرئ لا يبالي بعواقب الأمور ولا يفكر فى نتائجها ، ففقهة لينير ضاحكاً وقال : ياله من قاض غريب ، وياله من حكم عجيب ، هدى روعك يا صديقي ، فالأمر أهون مما تظن ، فربما لا يحضر سيرانو أو لا يمثل مونفلورى فلا يقع شيء من المكروه الذى تتوقعه ، ثم التفت إلى كرستيان وقال

له : أقدم إليك المسيو راجنوطاهى الشعراء والممثلين وهو
اللقب الذى اختاره لنفسه وعُرف به بين الناس جميعاً ،
لأنه صديقهم المخلص الذى يحبهم ويكرمهم ويدود عنهم
ويفتح لهم باب مطعمه على مصراعيه يأكلون منه
ما يشتهون ، ويشربون ما يقترحون ، لا يتقاضى على ذلك
أجراً سوى قصيدة من الشعر يملونها عليه ، أو قطعة
تمثيلية يملونها بين يديه ، أى أنه يملأ لهم أفواههم طعاماً ،
فيملأون له أذنيه كلاماً ، والأذن كما تعلم ليست طريقاً إلى
المعدة كالغفم ، وهو فوق ذلك شاعر متفنن مطبوع ينظم أكثر
شعره فى وصف فطائره وحلواه ، فأنحنى راجنو بين يدي
كرستيان وقال : نعم ياسيدى إننى صديق الشعراء
والممثلين ، بل عبدهم ومولاهم ، وصنيفة فضلهم
وإحسانهم ، وإنّ ساعةً أقضيها فى حضرتهم أسمع طرائف
أشعارهم ، وبدائع فصولهم ، لى عندى ساعة الحياة التى
لا أعدل بها ساعةً غيرها ، فشكر له كرسيتيان فضله وأدبه

وأثنى خيراً على شرف عواطفه واكتمال مروءته وما هي
إلا كرامة الطرف أن عاد إلى راجنو قلبه واضطرابه وأخذ
يدور بعينه في الجماهير يفتش عن سيرانو فقال له لينير :
انه لم يحضر حتى الآن ، وها هو الوقاد قد بدأ في إشعال
المصاييح وها هو الستار قد أوشك أن يرتفع وما أظنه
حاضراً بعد ذلك

« سيرانو »

وكان رجل من الأشراف اسمه المركز دي جيچي
جالساً على مقربة منهم يسمع حديثهم وينصت لحوارهم
فوضع يده على كتف راجنو فالتفت راجنو إليه فقال له :
أستطيع أن تخبرني من هو سيرانو هذا الذي تتحدثون
عنه ؟ فهز راجنو رأسه كالمتغرب وقال له : انى لأعجب
لأمرك ياسيدى فهي أول مرة سمعت فيها أن إنساناً في
العالم لا يعرف السيد سيرانو ، قال إنى أعرف عنه شيئاً

قليلاً ، وأريد أن أعلم أنيبل هو أم صعلوك ؟ قال إن كنت
 تريد من النبيل شيئاً غير الشرائط والأوسمة والذهب
 والفضة والحريير والديباج فهو أنبل النبلاء وأشرفهم ،
 لأنه جندي شجاع ، جرىء في مواقفه ومشاهده ، صادق
 في قوله وفعله ، لا يحابي ولا يجامل ، ولا يتذلل ولا يتزلف ،
 ولا يخضع في شأن من شؤون حياته إلا للحق الذي يعبده
 ويدين له ، ولو عرفته ياسيدي لعرفت أفضل الناس خلقاً ،
 وأشرفهم نفساً ، وأطيهم قلباً ، وأشدهم عطفاً على البؤساء
 والمنكوبين ، وهو فوق ذلك شاعر مجيد ، وعالم فاضل ، وناقد
 بارع ، أما شكله فمن أغرب الأشكال وأعجبها ، حتى لو أراد
 مصورنا العظيم « فيليب دي شامبيني » أن يرسمه كما هو لعجز
 عن ذلك أو كاد ، فإن الناظر إليه ليعجب كل العجب لمنظر
 قبعته المحلاة بالريشات الثلاث ، وردائه الملون الجميل ، وقبائه
 الواسع المسدس الأطراف الذي يرفع مؤخره بطرف
 سيفه ثم يمشي به محتالاً كأنه طاووس يجر ذنبه وراءه ، وله

أنف هائل جداً لا يراه الراى حتى يُذعر ويرتاع ويقف
أمامه مدهوشاً منذهلاً يعجب لصاحبه كيف استطاع أن
يحمّله في رقعة وجهه وكيف لا يلتمس السبيل إلى الخلاص
منه ، أما هو فراض عنه كل الرضا ، لا يشعر بثقله ، ولا
يفكر في الخلاص منه بحال من الأحوال ، والويل كل
الويل لمن يرفع نظره إليه أو تختلج شفتاه بابتسامة العجب
منه أو السخرية به ، فان رأسه يطير بضربة واحدة من حد
سيفه ، فقال له المركيز : كيفا كان الأمر فاني أستطيع أن
أقول لك وأنا على ثقة مما أقول : إنه أعجز من أن يمنع
موناغورى عن التمثيل بل هو لا يحضر الحفلة الليلة فراراً
من وعيده الكاذب ، فقال راجنو : وأنا أراهن على حضوره
بدجاجة مشوية من مطعم « راجنو » الشهير ، ولا أرزؤك
دانقاً واحداً إن أنا ربحت الرهان ، ثم أدار ظهره إليه وجلس
يتحدث إلى لينير وكرستيان

وإنه كذلك إذ لمح رجلاً مقبلاً على البعد فقال
لصاحبيه ، هاهو المسيو « لبريه » صديق السيد سيرانو
الجميم ، فائذنا لى بالذهاب اليه على أستطيع أن أعلم من
شأنه شيئاً ، ثم تركهما وذهب اليه فرآه يقرب نظره فى
الجاهير ويلتفت يمينه ويسرة فقال له : املك تفتش عن
سيرانو أيها الصديق ؟ قال نعم وإنى قلق من أجله جداً ،
قال قد فتشت عنه قبلك فلم أجده ، ثم اتحنى به ناحية من
القاعة وجلسا معاً يتحدثان

«روكسان»

وهنا ظهرت روكسان فى مقصورتها فضج الجمهور
حين رآها ضجيج السرور والابتهاج ، وصاح أحد
الأشراف الجالسين على المسرح : آه يا إلهى ، إن جمالها
فوق ما يتصور العقل البشرى ، وقال آخر : إنها زهرة
تبتسم فى أشعة الشمس ، وقال آخر : إنها روضة يانعة يحمل

النسيم رياها العطر إلى القلوب فينعشها ، وكان كرستيان مشغولا بأداء ثمن الشراب الذي شربه لينبير فلم ينتبه إليها ثم التفت فرآها فارتعد واصفر وجهه وأخذ بيد لينبير وقال له : هاهي ذى فقل لي من هي ؟ اني خائف جداً يا صديقي فضع يدك على قلبي فما أحسب إلا أنه يحاول الفرار من مكانه رهبة وجزعاً ، حدثني عنها واذكر لي كل ما تعلم من أمرها ، وارفق بي في حديثك ، حتى لا تقضى على الأمل الوحيد الباقي لي من حياتي ، ففقهه لينبير ضاحكاً وقال له بخ بخ لك يا كرستيان ، لقد أحسنت الاختيار لنفسك كل الاحسان ، وما أحببت إلا أجمل فتاة في فرنسا ، فان كان صحيحاً ما تقول من أنها تمنحك من ودها مثل ما تمنحها وأنها تنظر إليك بمثل العين التي تنظر بها إليها فأنت أحسن الناس حظاً ، وأسعدهم طالعاً : إنها السيدة مادلين روبان الشهيرة بروكسان ، وهي فتاة عذراء يتيمة لا أهل لها ولا أقرباء سوى ابن عمها سيرانو دي برجرالك

الذى كانوا يتحدثون عنه الآن ، وهى على فرط جمالها
وكثرة محاسنها عفيفة طاهرة الذيل عاقلة رزينة تجلس
إلى أذكىاء الرجال وتحادثهم وتفقتن بتصوراتهم وأفكارهم ،
وتحوض معهم فى كل شأن من شؤون الحياة حتى
شأن الحب ، ولكنها لا تأذن لأحد أن يجيبها أو أن
يعبث بقلبها ، فان حاول ذلك منهم حاول دافعته عنها بركة
وأدب ورفق وحكمة فسلم لها شرفها وكرمها ، ولا عيب
فيها الا أنها من فريق الاديبات المتحذلقات اللواتى أفسد
الادباء المتحذلقون أذواقهن الادبية فذهبن مذهب
التكلف والتعمُّل فى أحاديثهن وحوارهن ، فلا ينطقن
بكلمة صريحة خالية من التشايبه والمجازات والاشارات
والكنائيات ، ولا يواجهن المعانى التى يردن الافضاء بها إلى
السامعين مواجهة بل يدرن حولها دورات كثيرة حتى
يصلن اليها ، فاذا أردن أن يقلن فى أحاديثهن العادية : أشرفت
الشمس قلن « ذر قرن الغزالة » أو : أقبل الليل قلن

« هجم جيش الظلام » أو : طلعت النجوم قلن « تجلت
عروس الزنج في قلائدها الدرية » أو : هاهو ذا الكرسي
فاجلس عليه قلن « هاهو ذا الكرسي يفتح ذراعيه
لاستقبالك فتفضل بالقاء نفسك بين أحضانه » أي انهن لا
يعجبهن من الألفاظ الا المتكلف المصنوع ولا من المعاني
إلا المجلوب المغتصب ولا من الشعراء والكتاب إلا
المتكلفون المتشدقون في أساليبهم وتصوراتهم ، وهي
سعيدة في عيشها مغتبطة بحياتها ، لا ينغص عليها صفوها
غير هذا الرجل الهمجي المتوحش الذي تراه واقفاً بجانبها
الآن ، فالتفت كرستيان فرأى رجلاً رشيقاً متأنقاً
حسن الزى والهندام متشحاً بوشاح حريري أزرق متقلداً
سيفاً عسكرياً مرصعاً قد أسند ذراعه إلى ظهر كرسيها
كانه يحتضنها وظل يحادثها بصوت منخفض كأنه يسارها
ويناجيها ، فقال له وهو يرتجف غيظاً وحنقاً من هذا الرجل ؟
وكان لينبير قد ثقل وبدأ يتمتم ويتلثم فقال بنعمة الفأفأ^(١)

(١) فأفأ أكثر الفاء في كلامه وظل يرددها فهو فأفأ

إنه الكونت دي جيش أحد قواد الجيش الفرنسي وصهر
لكردينال دي ريشلييه وزير فرنسا العظيم ، وقد أحب
روكسان وأغرم بها غراماً شديداً ، ولما رأى أن لا سبيل له
إليها من طريق الخالة^(١) لأنها شريفة مترفة ، ولا من
طريق الزواج لأنه متزوج بابنة أخت الكردينال أراد أن
يزوجها من رجل ساقط من أشياعه لا تحبه ولا تأبه^(٢) له اسمه
الفيكونت « قالقير » طمعاً في أن ينال منها من طريقه
مالم ينل من طريق آخر ، فهاها الامر وتعاظمها وأبت أن
تدعن لرأيه أو تنزل على حكمه ، ولكنه لا يزال يلح عليها
ويضايقها وهي تدافعه عنها بلطف وأدب وحذر واحتياط ،
وأخاف أن استمرت هذه الحال أن ينتهي بها الأمر إلى
الخنوع والاذعان ، لان الرجل قوى جريء مُدِلٌّ بمكانه
من قيادة الجيش وبخطوته عند الكردينال ، وليس

(١) الخالة المصاحبة من الخلة بالكسر أى الصداقة

(٢) أبه بالشئ احتفل به

في أنحاء المملكة جميعها من مجرؤ على التفكير في مشادته أو
اخلاف عليه ، ولقد أثرت هذه الحادثة في نفسى تأثيراً شديداً
وأشفقتُ على تلك الفتاة المسكينة أن يستبد بها وبمستقبلها
رجل جائر متوحش كهذا الرجل فنظمت قصيدة رنانة
شرحت فيها قصته معها وهجوته فيها هجاء مرأً لأحسبُ
أنه يغتفره لى مدى الدهر ، وان شئت أن تسمع هذه القصيدة
فها كها ، وكان الشراب قد نال منه أقصى مناله فهض قائماً
على قدميه وأخذ يصب إلى الكوننت نظرة هائلة مخيفة ورفع
الكأس بيده وحاول أن يتغنى بقصيدته فأسكتته كرستيان
وقال له لا تفعل فاني ذاهب ، قال الى أين ؟ قال أفتش عن
قالقير ، قال ماذا تريد منه ؟ قال أقتله ، قال انى أخاف عليك
منه لانه أقوى منك وربما قتلك ، قال لأبلى بالموت في سبيلها ،
قال انظر ها هي ذى تنظر إليك وتحرق فيك تحديقاً
شديداً فلا يشغلك شاغل عنها ، أما أنا فاني ذاهب لشأنى
فان أصدقائى ينتظروننى في الحان ولا خير لى فى الكأس من

دونهم، فأذن لي بالذهاب، فأذن له فانصرف، وظل هو شاخصاً
إلى مقصورة روكسان يبادلها نظرات الحب والشغف،
ويفضي إليها من طريق الصمت والسكون بما عجز عن الإفشاء
به من طريق الكلام، وكان الكونت دي جيش قد نزل
من مقصورتها ومشى في القاعة يحف به جمع عظيم من
حاشيته وأصدقائه يتمالقونه ويدهنونه، وحساده ومنافسوه
من نبلاء القوم وأشرفهم يتغامزون عليه فيما بينهم
ويرمونه بنظرات الحقد والحرد ويسمونهم القائد
المغرور مرّة والجاسكوني الكذاب أخرى، حتى إذا مرّ
بين أيديهم نهضوا له إعظاماً وإجلالاً وانحنوا بين يديه
وداروا به يصانعونه ويماسحونه حتى بلغ مكان المسرح فصعد
إليه هو وأتباعه وجلس على كرسيه المعدّ له ثم التفت
حوله وقال: أين الفيكونت قال خير: فأجابه هائئذا
ياسيدي، قال تعال بجاني لا حدثك قليلاً، وكان كرستيان
واقفاً مكانه ينظر إليه على البعد نظرات الحقد والموجدة،

فاسمع اسم قالقير حتى نار ثائره، وغلى دمه في رأسه ،
وعلم أنه قد وجد خصمه ، فوثب من مكانه وثبة عظيمة
وصاح هاقد عرفته وسأطمه بقفازى على وجهه لطمه
هائلة ، ووضع يده في جيبه ليخرج قفازه منه فدهش حين
عثرت يده فيه بيد أخرى غريبة فقبض عليها بشدة
والتفت وراءه فاذا لص قبيح المنظر رزى الهيئة يحاول
سرقته ، فصاح فيه من أنت وماذا تريد : فتضعض
الرجل واستخذى واستطير عقله خوفاً ورعباً ، ثم ما لبث
أن عاد إلى نفسه واستجمع قواه وقال له عفواً ياسيدى
فانى ما أردت سركتك ، وانما هو تمرين بسيط ، فقد
تلقيت الساعة أول درس من دروس اللصوصية عن
أستاذى « بوار » وقد بعنى إليك كما بعث غيرى الى غيرك
لا لنسرقكم أو نحول بينكم وبين أموالكم بل لنستوثق
من أنفسنا أننا قد حدقنا دروسنا واستظهرناها ، فاعف
عنى واغتفر لى هذه الزلة ، واعلم أن فى صدرى سرّاً هائلاً

جداً ينفعك نفعاً عظيماً أن أفضى به اليك ، وهو خير لك
 منى ألف مرة ، فضحك كرسيتان طويلاً وقال أى سر
 تريد : قال إن صديقك الذى كان جالساً معك منذ هنيهة
 وقد نسيتُ اسمه الآن هو فى الساعة الأخيرة من ساعات
 حياته إن لم تسرع إلى نجده ، قال أتريد لينير ؟ قال نعم ،
 فدهش كرسيتان وقال لم أفهم ما تريد ، قال إنه كان قد هجا
 منذ أيام عظيماً من عظماء هذا البلد بقصيدة مقذعة^(١)
 فخذها عليه حقداً شديداً ورأى أن ينتقم لنفسه منه
 فأعد له مائة رجل يكمنون له الليلة فى جنح الظلام عند
 باب « نيل » فى طريقه إلى منزله ليقتلوه ، وأنا أحد أولئك
 الرجال ، فأخرج الآن واطلبه فى الحانات التى يجلس فيها
 وهى المضغط الذهبى والتفاحة الخشبية والحزام الممزق
 والمشاعل والأقاع الثلاثة وأترك له بطاقة فى كل واحدة
 منها لتنذره بهذا الخطر الداهم ، قال ومن هو ذلك العظيم

(١) الاقذاع : الشتم المؤلم

الذي دبر له هذه المكيدة؛ قال ذلك سر المهنة لا أستطيع أن أبوح به، فضحك كرستيان وقال لا حاجة بي اليك فقد عرفتة، ثم خلى سبيله فذهب لشأنه، والتفت هو إلى مقصورة روكسان فرآها ملتفتة إليه لا تكاد ترفع نظرها عنه فألقى عليها نظرة حزينة وقال في نفسه: وا أسفاه لا بد لي أن أتركها الآن، ثم ألقى على الفيكونت نظرة ملتهبة وقال: وأن أتركه أيضاً، لأنني أريد إنقاذ لينير، ثم ترك الملعب وانصرف ليفتش عن صديقه في تلك الحانات الخمس

« البطل »

بدأ الموسيقيون يوقعون على نغماتهم الرقيقة الشجية
وسكنت الجماهير تنتظر رفع الستار فهمس لبريه في أذن
راجنو: ترى هل يظهر مونفلورى على المسرح الآن؟
قال نعم ما من ذلك بد، لأنه صاحب الدور الأول في
الرواية، ولأنه قد علم أن سيرانو لا يحضر بعد الآن،

وأظن أني قد خسرت الرهان ، قال فليكن ، فقد كنت
أتوقع من حضوره شراً عظيماً
وهنادق الجرس ثلاث دقائق ثم ارتفع الستار فظهر



مونقلوري يمثل على المسرح في ملابس راع
مونقلوري على المسرح لابساً ملابس راع وعلى رأسه
قبعة محلاة بالورود مائلة إلى أذنه وفي يده أرغول طويل
ينفخ فيه ، فصفق له الجمهور تصفيقاً كثيراً فشكرهم

بايماءة رأسه ، ثم أنشأ يمثل دور قيدين ويتغنى بهذه القطعة
« هنيئاً للذين يتعدون عن قصور الملوك جهدهم ، بل يعتزلون
العالم بأسره ويفرون منه إلى مكان ناءٍ في منقطع العمران
لا يرون فيه غير وجه الطبيعة الجميل . . . » وهنا رن
صوت عظيم من جوانب القاعة يقول : « ألم أحرم عليك
التمثيل شهراً كاملاً يا مونفلورى » فدهش الجمهور وجمد
مونفلورى في مكانه والتفت الناس يمنة ويسرة يفتشون
عن صاحب الصوت أين مكانه ، ووقف النساء في المقاصير
ينظرن ماذا جرى ، وهمس راجنو في أذن لبريه : قد
ربحت الرهان يا صديقى فها هو سيرانو قد حضر ، فقال لبريه
ليته لم يحضر وليتك خسرت كل شيء ، وما هي إلا
لحظة حتى ظهر سيرانو يتخطى الرقاب ويدفع المقاعد بين
يديه دفعاً ويزجر زججرة الرعد حتى وصل الى كرسي أمام
المسرح فاعتلاه وهز عصاه الطويلة في وجه الممثل وقال له :
اترك المسرح حالاً يا أحقر الممثلين ، وإلا فأنت أعلم بما

يكون ، فسخط جمهور من الناس سخطاً شديداً وضجوا من كل ناحية : مثل يامونفلورى ، مثل ولا تحف ، فتشجع موفلورى وعاد إلى التغنى بقطعته « هنيئاً للذين يبتعدون عن قصور الملوك جهدهم ، بل يعتزلون العالم بأسره . . . » فقاطعه سيرانو وصاح وهو يزأر زئير الليث : كأنك تأتي أيها الغبي الأحمق إلا أن أجعل ظهرك مزرعة لعصاي هذه فاترك المسرح حالا فقد أوشكت أن أغضب ، فاحتمد الجمهور غيظاً وأخذوا يصيحون : صه أيها المجنون ، مثل يامونفلورى ، إنه فضول غريب ، إنها سماجة نادرة ، فعاد إلى الممثل هدوؤه وسكونه ، وعاد إلى التغنى بقطعته « هنيئاً للذين . . . » فما نطق بأول حرف منها حتى وثب سيرانو من كرسيه الذى كان واقفاً عليه إلى أقرب كرسي إلى المسرح وهز عصاه في وجهه وصاح : لا تمثل أيها الدب الهائل ولا تنطق بحرف واحد ، فان فعلت ضربتك بعصاي هذه على وجهك ضربة لا تعرف من بعدها أين مكان

أنفك منك ، قد أمرتك وليس في العالم قوة تستطيع أن
تعرض أمرى ، فطاش عقل مونفلورى وتلجج لسانه
والتفت إلى الأشراف الجالسين على المسرح من حوله وقال:
النجدة ياسادتى ، فنظر أحدهم إلى سيرانو نظرة عظمة
وكبرياء وقال له كفى هذياناً أيها الفضولى الثرثار ، فقد أزعجتنا
بموضائك وكدرت صفونا ، والتفت آخرى إلى الممثل وقال له :
مثل يارجل ولا تحفل بشيء فأنا أحميك ، وقال آخر لقد
تجاوز الحد هذا الوقح حتى كاد يفرغ صبرنا ، فأنجبه إليهم
سيرانو وأنشأ يخاطبهم بهدوء وسكون ويقول : يجب على
حضرات السادة الاشراف أن يلزموا أماكنهم ويحافظوا
على حيدتهم ، فانى أشعر أن عصاى تتلطف شوقاً إلى
التهام شرائطهم وأوسمتهم ، فانتفض الاشراف غيظاً
وتناهضوا للقيام وهاج الجمهور هياجاً شديداً وأحاط جمع
عظيم منهم بكرسى سيرانو وأخذوا يصيحون فى وجهه
ويولولون ويقلدون أصوات الحيوان كالديك والهر

والكلب والحمار ، فاستدار نحوهم سيرانو وألقى عليهم نظرة
هائلة مخيفة فترجعوا قليلا إلا أنهم ظلوا مستمرين في
هياجهم وضوضائهم وأخذوا يغنون بصوت واحد
أنشودة هزلية يقولون فيها : « برغمك يا سيرانو ستمثل
رواية كلوريز ، برغمك يا سيرانو سيمثل منفلوري »
يكررونها مرارا ، فاستدار إليهم ثانية وزجر في وجوههم
وصرخ فيهم صرخة هائلة وقال : ألا تستطيعون أيها
السفلة الأوغاد أن تتركوا سيفي هادئا في غمده ساعة
واحدة ، لأحب أن أسمع منكم هذه الأنشودة مرة أخرى
وإلا حطمتكم جميعا ، فقال له أحدهم : إنك لست بشمشون
الجبار الذي ضرب جمعا عظيما من الناس بفك كلب فقتلهم ،
فالتفت إليه وقال له : أستطيع أن أكون مثله لو أنك أعرتني
فكك يا هذا ، ثم التفت إلى مونفلوري فرآه لا يزال واقفا
في مكانه فقال يا للعجب إنه لم ينفذ أمرى حتى الآن ، إنه
يأبى إلا أن أجعل هذا المسرح مائدة أشرح عليها لجه

تسريحاً ، فعاد موفلورى إلى استنجاهه واستصراخه وظل
يقول : النجدة النجدة ، الغوث الغوث ، فازداد غضب
الجمهور وهياجهم وأحاطوا بكرسى سيرانو من كل ناحية
وأخذوا يهددونه وينذرونه بالويل والثبور ، وعادوا إلى
الترنم بأنشودتهم الأولى وتقليد أصوات الحيوان ،
فاستدار إليهم فجأة ، ثم وثب من كرسيه إلى الأرض
وتقدم نحوهم بعصاه فتقهقروا بين يديه حتى اتسعت الدائرة
من حوله اتساعاً عظيماً فصاح فيهم : إني آمركم جميعاً أن
تسكتوا ، لا ينطق أحد منكم بحرف واحد بعد الآن ،
إني أعرف صور وجوهكم جميعها فليس فى استطاعة واحد منكم
أن يفلت من بدى ، من ذا الذى يريد أن يكون أول ناطق
ليكون أول قتيل ؟ ثم مرّ بهم يتصفح وجوههم واحداً
فواحداً ويقول : من ذا الذى يريد ؟ أنت أيها الفقى ؟ أم
أنت أيها الكهل ؟ أم أنت أيها الشيخ الهرم ؟ من منكم

يجب أن يكون اسمه أول اسم في جريدة الأموات؟ لم يجبني
أحد بحرف واحد، ما سكو تكم؟ أجبتكم؟ ما لكم تفرون من
وجهي! قلدوا أصوات الحيوان، غنوا الأناشيد الباردة. أرى
صمتاً عميقاً وسكوناً سائداً، لا حركة ولا إشارة، أظنهم
قد ماتوا من شدة الخوف، إلا أن أستطيع أن أستمع
في عملي، ثم اتجه إلى المسرح وأنشأ يقول بصوت خشن
أجش، أيها الأشراف، أيها الغوغاء، أيها الرجال، أيها
النساء، لا أريد أن أرى على جسم المسرح هذا الدم القذر
الخبث، فإن لم ينفجر من نفسه فجرته بهذا المبضع القاتل،
ولا أحب أن يعترض أحد منكم إرادتي أو أخذت
البريء بذنب المجرم والجار بذنب الجار، ثم وضع يده على
مقبض سيفه وقد استحالت صورته إلى صورة وحش
هائل قد كشر عن أنيابه للفتك بكل من يدومنه، فسكن
الجمهور سكوناً عميقاً لأنامة فيه ولا حركة، فقال مونفلوري
بصوت خافت متقطع: إنك باهانتك إياي ياسيدي

قد أهنت الإلهة « تالى » فقالى لاشأن لك بتلك الإلهة أيها
الأحمق المأفون ، لانها إلهة التمثيل لا إلهة السخافات ،
ولو أنها شاهدت موقفك هذا وأنت تمثل بهذا الجسم
الضخم الغليظ وهذه الحركات الباردة الثقيلة لتناولت منى
عصاى هذه وضربتك بها على أحقر عضو فى جسمك ، وهائذا
أصفق ثلاث مرات ، وعند التصفيقة الثالثة لا بد أن
تتلاشى من المسرح يارأس الثور ، أسمعتم ؟ فاول
مونفلورى أن يتكلم فصفق سيرانو التصفيقة الأولى
فطار قلب الممثل فرقا ورعبا . وظل يقلب نظره فى الجماهير
فلم يجد بينهم معينا ولا ناصرا ، فأنشأ يقول بصوت
مرتعد : سادتى . . . سادتى . . . أيرضيك أن أهان
فى حضرتكم وأن يهان الفن على مرأى منكم ومسمع ؟ فصفق
سيرانو التصفيقة الثانية ، فاشتد اهتمام الجماهير وتطالَّت
أعناقهم ، وتحولوا من الهياج والغضب إلى الاهتمام بمعرفة
النتيجة ، وأخذ بعضهم يهمس فى أذن بعض بأمثال هذه

الكلمات : سيدقى ، سيخرج ، سيحب ، سيقوم ، لا يستطيع
البقاء ، لا يليق به الفرار ، فحاول مو نفلورى أن يقول شيئاً
آخر ولكنه سمع التصفيقة الثالثة فاختمنى من المسرح كأنما
قد غاص فى مهوى عميق

فهتف الجمهور لسيرانو هتافاً عظيماً إلا بضعة أفراد قلائل ،
لابل أخذ الكثير منهم يسب الممثل ويشتمه ويسخر منه ،
وجلس سيرانو على كرسيه جلسة الفائز المنتصر ، فتقدم
نحوه فتى من المتفرجين وقال له : أتأذن لى ياسيدى أن
أسألك ما هو السبب فى بغضك مو نفلورى ؟ فصمت سيرانو
لحظة ثم ألقى عليه نظرة باسمة هادئة وقال له : عندى لذلك
سببان ، أولهما قبيح تمثيله ورداءة حركاته ، وأنه يغنى الشعر
العذب الرقيق بصوت مأخوذ محتنق فيفسده على صاحبه
وينغصه على الناس ، أما السبب الثانى فهو سرى الخاص الذى
لا يمكننى أن أبوح به لاحد ، فتقدم نحوه فتى آخر وقال له :
ولكنك حرمتنا على كل حال مشاهدة رواية « كلوريز »

وما كنا نُؤثر ذلك ولا نرضاه ، قال أظن انى لم أحرمك شيئاً نفيساً أيها الفقى ، فان نظم « بارو » كثير كلاهما باردٌ غث لا يساوى شيئاً ، ولذلك قد كفتكم وكفيت نفسى مؤونة سماع روايته السخيفة غير آسفٍ عليها ، فصاحت فتاة فى المقاصير : من ذا الذى يعيب شاعرنا بارو ؟ أيستطيع أحد أن يجرؤ على ذلك ؟ وتكلمت فتيات أخريات بمثل كلامها ، فرفع سيرانو نظره الى المقاصير وأنشأ يخاطبهن ويقول : لكن يا سيداتى أن تكن جميلات رائعات كما تشأن ، ولكن أن تختلبن الأبواب وتستلبن العقول بحسنكن ودلالكن ، ولكن أن تبسمن الابتسامات اللامعة البديعة التى تضىء بنورها ظلمات هذه الحياة ، ولكن أن تبعثن السعادة والغبطة والسرور والبهجة فى نفوس الناس جميعاً فيحيوا بفضلكن فى هذا العالم حياة المسرة والهناء ، ولكن أن توحيين روح الشعر الى الشعراء وتملئنها عليهم بسحركن وفتنتكن فيستطيعوا أن يطيروا بأجنحتهم

في أجواء السموات العلاء ويشرقوا منها على الدنيا ومن فيها
شموساً وأقماراً . لكن كل هذا ، ولكن ليس لكن أن
تجلسن في محكمة الشعر لتحكمين في قضية الشعراء

وكان « بلروز » صاحب الحان واقفاً على مقربة منه
فقال له : وما رأيك ياسيدي في المال الذي خسرتة الليلة
بسببك ؟ قال هذه هي الكلمة الوحيدة المعقولة التي
سمعتها الليلة في هذا المسكان ، ثم ضرب يده في جيبه
وأخرج منه كيساً مملوءاً فضة ورمى به إليه ، فهلل بلروز
فرحاً وابتهاجاً وقال له : يمثل هذا الثمن آذن لك ياسيدي
بالحضور كل ليلة وبتعطيل ما تشاء من الروايات ، ثم التفت
إلى المتفرجين وقال لهم : قد انتهى التمثيل ياسادتي فهبوا جميعاً
إلى الباب لتستردوا نقودكم

﴿ الأنفيات ﴾

وهنا تقدم رجل زرى الهيئة قدر المنظر تلوح على
وجهه سمات المهانة والضعفة ممزوجة بالوقاحة والسماجة وقال
له بصوت خشن أجش : لا يقف موقفك هذا ياسيدى ولا
يجرؤ على مثل ماجرؤت عليه إلا أحد رجلين ، إما
عظيم ، أو صنيعة رجل عظيم ، فهل لك أن تخبرنى من هو
مولاك الذى أنت صنيعته ؟ فعجب سيرانو لامره وظل
يردد نظره فيه ساعة ثم قال له : ماأنا بصنيعة أحد أيها
الرجل ، قال أليس لك سيد يحميك ويرعاك ؟ قال لا ،
قال ألا تلجأ فى ساعات شدتك وحرجك إلى نبيل من
نبلاء هذا البلد أو أمير من أمرائه يسبل عليك ستر حمايته ،
قال قلت لك « لا » مرتين ، فهل ترى حتما لازما
أن أقولها لك مائة مرة لتفهمها ؟ ثم وضع يده على مقبض
سيفه وقال ليس لى حام ولا سيد غير هذا ، فقال إذن

لا تطالع عليك شمس الغد حتى تكون قد شددت رحلك
وتزودت زادك وغادرت باريس إلى بلدنا لارجعة لك
منه أبد الدهر ، قال لماذا ؟ قال لان مونفلورى الذى أهنته
الليلة صنيعة رجل عظيم هو الدوق « دى كندال » وذراع
هذا الرجل طويلة جداً تتناول أبعد الاشياء ولو كانت
في قرن الشمس ، قال ولكنها ليست أطول من ذراعى
حين أصلها بسيفي ، قال إنك لاتستطيع أن تزعم في نفسك
انك .. فقاطعه سيرانو وصاح : أستطيع أن أزعم كل
شئ أيها الفضولى الثرثار ، فأغرب من وجهي واطلب
لنفسك طريق الخلاص مني ، فظل الرجل جامداً مكانه يحدق
فيه تحديقاً شديداً لا يطفرف ولا يتحرك ، فانفجر سيرانو
غيظاً وانقض عليه وأخذ بتلايبه وقال له اخرج من
هنا حالا أو حدثني مالى أراك تنظر إلى أنفي هذه النظرة
المريبة ؟ فصعق الرجل في مكانه وظل يرتعد بين يديه وكان
يعلم كما يعلم الناس جميعاً ان سيرانو لا يغضب لشيء من الاشياء

غضبه لأنفه ولا ينتقم لشيء انتقامه له وقال أنا ياسيدي !
قال نعم أنت فما الذي تراه غريباً فيه ؟ قال إنك واهم ياسيدي
فانني واقسم لك ما فكرت قط في شيء مما تقول ، قال :
أتراه رخوياً مهتلاً نخرطوم الفيل ؟ قال لا ياسيدي ،
قال أو محدودباً كمنقار البومة ؟ قال لا ياسيدي ، قال أو
يخيل اليك أن أرنبتة دمل^ه كبير يزججك منظره ؟ قال
أبدأ ياسيدي ما فكرت في ذلك قط ، قال أو يتراءى لك
أن الذباب يمشى منزلقاً فوق تضاريسه ؟ قال لا ياسيدي
لم يخطر ببالى شيء من ذلك وأقسم لك ، قال أتراه
أعجوبة من أعاجيب الدهر أو فلتة من فلتات الطبيعة ؟
قال لا ياسيدي لا هذا ولا ذاك ، قال أترى لونه مضراً
بالنظر أو وضعه خارجاً عن الحد أو شكله مخالفاً للآداب
العامه ؟ قال آه يا إلهي ! إنني لم أسمح لنفسي بالنظر إليه
مطلقاً ، قال ولم لاتسمح لنفسك بالنظر إليه ، أشمز
منه ؟ قال أبدأ ياسيدي وأقسم لك ، قال أهو في نظرك

كبير جداً إلى هذا الحد؟ قال لابل صغير جداً لا أكاد
أشعر به ، قال أتهزأ بي أيها الرجل؟ قال عفواً ياسيدي
فاني لأدري ما أقول ، قال وهل تظن أيها الغبي الاحق
أن الانف الصغير مفخرة من المفاخر التي يعتز بها صاحبها؟
نعم إن أنفي كبير جداً لا يكبره أنف في هذا البلد ، وذلك
ما أنخر به كل الفخر ، لان الانف الكبير عنوان الكرم
والشرف والشجاعة والشمم ، وأنا ذلك الذي اجتمعت له
هذه الصفات جميعها ، أما الوجه الكروي الاملس المجرد
من هذا العنوان الشريف كوجهك هذا فلا يستحق غير
اللطم ، واطمه على وجهه لكمة هائلة ، ثم وكزه برجله ففر
الرجل هاربا من بين يديه وهو يصيح : النجدة النجدة! فعاد
سيرانو إلى مكانه وجلس على كرسيه مفتخراً معتزلاً وظل
يقول ، هذا إنذار مني لجميع الفضوليين الثرثارين الذين
يحاولون أن يهزءوا بهذا الموضوع الناتى في وجهي أن لا
يفعلوا ، فان حدثهم نفوسهم بشيء من ذلك سوائاً

أ كانوا من الغوغاء أم من النبلاء فليعلموا أننى لا أسمح لهم
بالفرار من يدي كما سمحت لهذا الجبان الرعديد قبل أن
أغرس ذباب سيفي في سويداء قلوبهم
فانتفض الأشراف غيظاً وثاروا من أماكنهم ، وقال
الكونت دي جيش : يخيل إلي ان الرجل قد بدأ يضايقتنا ،
ثم انحدر من المسرح تتبعه حاشيته حتى دنا من سيرانو والتفت
إلى أصحابه وقال لهم : ألا يوجد بينكم من يصلح لمقارعة هذا
الرجل ! فقال الكونت فالير أنصاحبه ياسيدي فانتظر
قليلاً فاني سأفوق إليه سهماً لا قبل له بالنجاة منه ، ثم تقدم
نحو سيرانو وهو جالس على كرسيه جلسة العظمة والكبرياء
وظل يردد النظر في وجهه طويلاً ثم قال له : إن أنفك أيها
الرجل قبيح جداً ، فرفع سيرانو نظره إليه بهدوء وسكون
ثم فهقه فهقه طويلاً وقال ثم ماذا ؛ قال لاشيء سوى أن
أقول لك مرة أخرى : إن أنفك أعجوبة من أعاجيب الزمان ؛
فنهض سيرانو عن كرسيه متناقلاً وتقدم نحوه خطوة

وألقى عليه نظرة من تلك النظرات الهائلة التي اعتاد أن يصرع
بها خصومه حين يلقيها عليهم وقال له ثم ماذا؟ فاضطرب
الفيكونت وشعر بديب الخوف في قلبه وقال لاشيء، قال
أهذا هو السهم القاتل الذي أردت أن ترميني به؟ لقد كنت
أظن انك أذكرى من ذلك، فازداد اضطراب الفيكونت وقال
وماذا تريد؟ قال أريد أن أقول لك إن مجال القول في الآناف
ذو سعة، ولو كان عندك ذرة واحدة من الفطنة والذكاء
أو ان لك بعض العلم بأساليب الخطاب ومناهجه لاستطعت
أن تقول لي في هذا الموضوع شيئاً كثيراً، كأن تقول لي
مثلاً بلهجة «المتنطعين»: لو كان لي أيها الرجل أنف مثل أنفك
هذا لأرحت نفسي والعالم منه بضربة واحدة من حدسي،
وبلهجة «المتلطفين»: حبذا لو صنعت ياسيدي لأنفك هذا
كأساً خاصة به فاني أراه يشرب معك من كأسك التي تشرب
منها، وبأسلوب «الواصفين»: ما أرى أنفك إلا صخرة
عاتية، أو قمة عالية، أو هضبة مشرفة، أو رؤسناً مطلاً،

أو رأساً ناتئاً ، أو لساناً ممتداً ، وبنعمة « الفضوليين » :
ما هذا الشيء الناقى في وجهك ياسيدى ؟ أم حجارة مستطيلة ،
أم دواة للكتابة ، أم صندوق للأمواس ، أم علبه للمقاريض ؟
وبلهجة « الماجنين » : أبلغ بك غرامك بالطيور ياسيدى
أن تبنى لها في وجهك برجاً خاصاً بها تقع عليه كلما قطعت
شوطاً من أشواطها ؟ وبأسلوب « المداهنين » هنيئاً لك
ياسيدى هذا القصر الفخم الذى بنيته لنفسك على هذه الربوة
البديعة ، وباللهجة الشعرية : أنفك القيثارة التى توقع عليها
إلهة الشعر أنغامها الشجية ؟ وبروح السذاجة : فى أى ساعة
تفتح أبواب هذا الهيكل ياسيدى الحارس ؟ وبالبساطة
الريفية : ما هذا ياسيدى ؟ أنف ضخم ؟ أم لفتة كبيرة ؟
أم شمامة صغيرة ؟ وباللهجة العسكرية : صوب هذا المدفع نحو
فرقة الفرسان أيها الجندى ، وباللغة المالية : أتريد أن تضع
أنفك هذا فى « اليانصيب » ؟ إنه يكون بلا شك النمرة
الكبرى ، وباللغة التمثيلية : أهذا هو الأنف الذى أفسد تخطيطاً

وجه صاحبه فساداً عظيماً؛ ياله من مجرم أثيم، ومعتقد زنيم
ويمكنك أن تقول لي «متعجرفاً» ألا تخاف أيها
الرجل وأنت تنفث دخانَ لفافتك من هذه المدخنة الضخمة
أن يصيح الناس حين يرونك الحريقَ الحريقَ ،
و«متأدباً» لقد أخذ هذا التنوء البارز في وجهك ياسيدي
بتوازن جسمك فاحترس من السقوط ، و«متأنقاً» :
ألا يحمل بك ياسيدي أن تضع لأنفك هذا مظلة خاصة
به حتى لا يتغير لونه من تأثير حرارة الشمس ، و«متحذلقاً» :
إن الحيوان الضخم الذي سماه الفيلسوف أرسطوفان
« تَيْمَلَخْرُ تَيْفِيلُو جَمْلُوس » ^(١) هو الحيوان الوحيد الذي
يمكنه أن يحمل في وجهه كميةً من اللحم توازن الكمية التي
تحملها في وجهك ، و«مازحاً» : ما أجمله مشجباً لتعليق
القلائس والطيبالس ، و«مغالياً» : ليس في استطاعة أي
ريح مهما اشتد هبوبها أن تجلب لأنفك الزكام غير ريح
(١) حيوان خيالي ضخم والكلمة منحوتة من تيتل، خريت،
فيل ، حمل ، لكبر حجم هذه الأنواع من الحيوان

السَّموم ، و « متهمكاً » : ما أجمله اعلاناً لو وضع على واجهة
حانوت من حوانيت الروائح العطرية ، و « متفجعاً » :
ما البحر الأحمر إلا الدم الذى فصد من أنفك
ذلك ما كان يجب أن تقوله لى لو كانت فى رأسك ذرة
واحدة من الفطنة والذكاء ، على أنك لو استطعت لحال
بينك وبين ذلك الخوف والرعب ، لأنك تعلم انى إن
سمحت لنفسى بالسخرية من نفسى أحياناً فانى لا أسمح لأحد
بالسخرية منى مطلقاً ، فلقد جمعت فى نفسك بين الغباوة والجهل
والجن والخور ، حتى لا أحسب أنك لا تحسن هجاء كلمة
فى اللغة غير كلمة الحماقة ولا تحمل فى رأسك معنى غير معناها ،
فجن الكوننت دى جيش غيظاً وقال للفيكوننت : من
رأى أن تترك هذا المجنون وشأنه فاننا ممتحنون الليلة برجل
لا بد أن يكون قد أفلت الساعة من يد حارس المارستان ،
فقال الفيكوننت : إن الذى يغيظنى ويؤلمنى أن تصدر أمثال
هذه الكلمات المملوءة كبراً وعظمة من حقير مفلوك لا يملك

من متاع الدنيا شيئاً حتى قفازاً في يده ، ولا يحمل على ثوبه
أى علامة من علامات الشرف ، فارتعش سيرانو غيظاً
ولكنه تجلد واستمسك وأنشأ يقول بصوت هادئ رزين
نعم أعترف لك ياسيدي بأنى رجل فقير مفلوك
لأملك من متاع الدنيا شيئاً وأنى لأحمل على صدرى
أى هنة من تلك الهنات التى تسمونها شارات الشرف
ولكن ائذن لى أن أقول لك كلمة واحدة ثم أنت وشأنك
بعد ذلك

إنى لأحفل ياسيدي بالصور والرسوم والازياء
والالوان ، ولا يعينى جمال الصورة وحسبها ولا برقشة
التياب ونمنمتها ، وحسبى من الجمال أنى رجل شريف
مستقيم ، لا أكذب ولا أتلون ، ولا أدهن ولا أتلق ،
وأن نفسى نقية بيضاء غير ملوثة بأدران الرذائل والمفاسد ،
فلئن فاتنى الوجه الجميل والثوب المفوف والوسام اللامع
والجوهر الساطع فلم يفتنى شرف المبدأ ، ولا عزة النفس ،
ولا إباء الضيم ، ولا نقاء الضمير

إن الجبهة العالية ياسيدي لا تحتاج إلى تاج يزيناها ، وإن
الصدر المملوء بالشرف والفضيلة لا يحتاج إلى وسام يتلأأ
فوقه ، فليفخر الفاخرون بما شاءوا من فضتهم وذهبهم ،
وألقابهم ومناصبهم ، أما أنا فحسبي من الفخر أنني أستطيع
أن أمشي بين الناس برأس عال ، وجبهة مرتفعة ، ونفس
مطمئنة ، وثوب نقي أبيض ، لم تعلق به ذرة من غبار العار ،
ولم تلوثه شائبة من شوائب السفالة والدناءة ، لا أهاب
شيئاً ، ولا أغضى لشيء ، ولا أخجل من شيء

نعم إنني لأملك قفازاً في يدي كما تقول ، ولكن
أندري ما السبب في ذلك ؟ السبب فيه أنني قطعت جميع
قفازاتي على وجوه السفهاء والفضوليين الذين يعترضون
طريقي مثلك عقاباً لهم على وقاحتهم وفضولهم ، ولم يكن
باقياً لي منها حتى ليلة أمس إلا زوج عتيق جداً احتجت
إليه في موقف كموقفي هذا معك فرميت به وجه أحد
السفهاء فاصق بمخذه فتركته وانصرفت

مُجَنِّفَ الْفِيكُونْتِ غَيْظًا وَأَخَذَ يَهْدِي وَيَقُولُ :
صَعْلُوكَ ، بَأْسُ ، وَقَحْ ، حَقِيرٌ ، سَافِلٌ ، فَانْحَنِ سِيرَانُو
بَيْنَ يَدَيْهِ رَافِعًا قَبْعَتَهُ عَنِ رَأْسِهِ وَقَالَ لَهُ : تَشْرَفْتُ بِمَعْرِفَةِ
اسْمِكَ يَا سَيْدِي ، أَمَا أَنَا فَاسْمِي سِيرَانُو سَاقِينِيَانِ هَرَكِيلِ
دِي بَرِجْرَاكَ الْجَاسَكُونِي ، فَصَاحَ الْفِيكُونْتُ : صَهْ أَيُّهَا
النَّذْلُ السَّاقِطُ ، فَجَمَدَ سِيرَانُو لِحِظَةً ثُمَّ انْحَنِ عَلَى نَفْسِهِ
وَأَخَذَ يَتَلَوَّى وَيُصِيحُ كَأَنَّمَا أُصِيبَ بِالْمِ شَدِيدٍ فِي بَعْضِ
أَعْضَائِهِ ، فَظَنَّ الْفِيكُونْتُ أَنَّ قَدِ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مَمِيتٌ ،
فَخَنَّا عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ مَاذَا أَصَابَكَ ؟ فَلَمْ يَجِبْ ، وَظَلَّ يَصِيحُ
وَيَتَأَوَّى ، فَقَالَ لَهُ مَا شَكَاتُكَ أَيُّهَا الْمَسْكِينُ ؟ قَالَ خَدْرٌ شَدِيدٌ
يُؤَلِّمُنِي جَدًّا ، قَالَ فِي قَدَمِكَ ؟ قَالَ لَا ، قَالَ فِي نَحْدِكَ ؟ قَالَ
لَا ، قَالَ إِذْنَ فِي ذِرَاعِكَ ، قَالَ لَيْتَهُ كَانَ كَذَلِكَ ، قَالَ قُلْ لِي
فِي أَيِّ مَكَانٍ هُوَ ؟ قَالَ فِي سَيْفِي ، فَدَهَشَ الْفِيكُونْتُ وَقَالَ
مَاذَا تَرِيدُ ؟ قَالَ لَقَدْ طَالَ لُبُّهُ فِي نَعْمَدِهِ زَمَنًا طَوِيلًا فَأَصَابَهُ
هَذَا التَّنْمِيلُ الشَّدِيدُ وَلَا عِلَاجَ لَهُ غَيْرَ الْاِمْتِشَاقِ

« المبارزة الشعرية »

ففظن الفيكونت لما أراد وعلم أنها المبارزة ما من
ذلك بد فتشجع وقال : فليكن ما تريد ، قال أتعلم أنى
سأضربك ضربة غريبة لم ير الراؤون مثلها ؛ قال خيال
شاعر كذاب ، قال : إن الشاعر لا يكذب ولكنه يقول
ملا يفهمه الأغبياء فيظنونه كاذباً ، وفي استطاعتي أن أرتجل
في أثناء القتال الذى يدور بينى وبينك موشحاً لأقول فيه
شيئاً لإفعلته ، وسيكون مركباً من خمس قطع يبتدىؤها
بابتداء المبارزة وينتهى آخرها بانتهائها ، أى بانتهاء حياتك
يا فيكونت ، فصاح الفيكونت : كذبت وانك لا أعجز من
ذلك ، قال لم أ كذب فى حياتى قط ، وهما هوذا عنوان موشحى
الجديد وأخذ يلقى العنوان ماداً به صوته كأنما يمثل على
مسرح ويقول « موشح القتال الذى دار بين السيد سيرانو
دى برجرارك وبين صعلوك من الصعاليك المتنبئين اسمه

الفيكونت فالخير في حانة بورجونيا « ثم جرد سيفه وبدأ
يقاتل ويلقي موشحه ويوقع ضرباته على نغماته ويقول

*
* *

إنني أرمي بهدوء قبعتي ، وأخلع عن منكبّي ردائي ،
ثم أجرد من غمده سيفي ، ثم أتقدم نحوك رشيماً كسيلادون
وشجاعاً كاسكارايوس ، ولا بد أني في المقطع الأخير أصيب

*
* *

كان جديراً بك أن تضن بنفسك على الموت ، إن
الموت لابد آت إليك ، لا أدري أين أضع ذباب سيفي من
جسمك ، أفي جنبك تحت ثديك ؛ أم في قلبك تحت
وسامك ؛ وعلى كل حال ففي المقطع الأخير أصيب

*
* *

ترسك يرن تحت ضربات سيفي ، ذباب سيفي يلتهم
التهاباً ، قلبك يخفق من الرعب والخوف ، فرائصك ترتعد
وتضطرب ، فلا بد أني في المقطع الأخير أصيب

ها أنت ذا قد بدأت تتمقهقر ، لاننى قد أفسدت عليك
الضربة الوحيدة التى تعرفها ، أوسعت لك المجال فاخترت
وهجمت ، فلم تلبث ان فشلت وخذلت ، ويل لك من
المستقيل المظلم ، فانى فى المقطع الأخير اصيب

*
**

إِسْأَلِ اللّٰهَ رَحْمَتَهُ وَإِحْسَانَهُ ، فهاهو ذا الموت يرفرف
فوق رأسك ، قد سددتُ عليك جميع الابواب ولم تبق
لك حيلة فى دفع القضاء ، قد وعدت ولا بد أن أفي بوعدى
أننى فى الكلمة الاخيرة من المقطع الأخير اصيب

وهنا ضربه ضربة هائلة اخترقت صدره فسقط يترنح
من وقع الضربة وضجت القاعة بالتصفيق والتهليل وأحاط
القوم بسيرانو يباركونه ويمسحونه ، وأخذت النساء تنثر
عليه الورود والازهار ، وكانت رو كسان أ كثرهن اهتماماً
بالمبارزة وأشدهن سروراً بنتيجتها ، وظل الجماهير يصيحون
بأصوات مختلفة : ما أشجعه ، ما أشعره ، إنه بطل عظيم ،



سیرانو یبازز الفیکونت فالیر فیقتله

حدث بديع ، منظر جميل ، شاعرٌ وبطلٌ معاً ، لا يقول إلا ما يفعل ، قد أصابه في الكلمة الأخيرة من المقطع الأخير كما قال : وتقدم نحوه السيد دارتنيان رئيس حراس الملك ومدّ إليه يده وقال له ائذن لي ياسيدي أن أشكرك وأصافحك وأقول لك إنك أفضل مبارز رأيتَه في حياتي ، فلم يزد سيرانو على أن ألقى عليه نظرة هادئة ساكنة ومدّ يده إليه فصافحه بسكون ، ثم أخذ الناس ينصرفون من القاعة تبعاً ، وكان الممثل مونفلوري لا يزال واقفاً في الطريق العام فظلوا يسبّونه ويشتمونه كلما مروا به ويعيرونه بالجن والفرار ، حتى إذا لم يبق في الحانة أحد قال لبريه لسيرانو : هل لك في أن تتخلف هنا قليلاً أيها الصديق لاني أريد أن أتحدث إليك في بعض الشؤون ؟ فقال سيرانو لصاحب الحانة أتأذن لنا أن نبقى هنا هنيئة أنا وصديقي لبريه ؟ قال نعم كما تشاء ياسيدي ، وسأخرج أنا وجماعة الممثلين لتناول طعام العشاء وننزه قليلاً ثم تعود بعد ساعة تهيئة الرواية المقبلة

وصاح بالخدم : أغلقوا الابواب وأبقوا الانوار كما هي حتى
نعود ، ثم انصرف هو وسائر الممثلين

« سريرة سيرانو »

قال لبريه لسيرانو : وأنت ألا تريد أن تتعشى أيضا؟
قال لا ، قال لماذا ؟ قال لأنى لا أملك نقوداً ، فقهمه
لبريه ضاحكا ، فدُهِش سيرانو والتفت إليه وقال له : ممّ
تضحك ؟ قال تذكرت ذلك الموقف الجميل وأنت تخرج
كيسك من جيبك وترمى به بكل قواك إلى بلرُوز وتقول
له : خذ هذا أيها الرجل فهولك ، قال ألا ترى أنها كانت حركة
بديعة ، قال نعم ، ولكنها لا تغنى عن العشاء شيئا ، ولا
أدرى ماذا تصنع بعد اليوم وأنت لا تزال فى الأسبوع
الأول من الشهر ، ولا أحسب أن أباك يرسل إليك
النفقة الشهرية مرة أخرى ، وكانت فتاة المقصف واقفة
على مقربة منهما تسمع حديثهما دون أن ينتبها إليها فتحررت

حركة مسموعة فالتفت إليها سيرانو فمشت نحوه ووضعت
يدها على كتفه وألقت عليه نظرة عطف وحنو لو أنها
ألقتها على وجه غير وجهه لظنها الناس لجمالها ورقتها
نظرة حب وغرام وقالت له : أنت ضيف الليلة ياسيدي ،
وهاهو ذا الطعام بين يديك فاذن من المائدة وتناول
منها ما تشاء ، فقال شكراً لك يا صديقتي ، وبالرغم من أن
عظمتي الجاسكونية لا تسمح لي أن أمد يدي لتناول أى
شئ من أى انسان فاني ألبى دعوتك إبقاء على صداقتك
وودك ، ثم تقدم نحو المائدة وتناول ثلاث حبات من العنب
وقرصاً صغيراً وكأساً من الماء وقال هذا يكفيني ، قالت
له خذ شيئاً آخر ، وقال لا حاجة بي الى شئ بعد ذلك إلا
إلى قبلة من يدك الجميلة فاسمحي لي بها ، وتناول يدها فقبلها
ووجهها يتلهب حياءً وخجلاً ، ثم وضع الطعام بين يديه وهو
يتمتم بصوت ضعيف ويقول « لقمة صغيرة لا تملأ معدة

طفل ، وثلاث حبات من العنب لآتملاً الفم ، آه ما أشد
جوعي » ثم التفت إلى لبريه وقال له : ماذا كنت تريد أن
تقول لي يا لبريه ؟ تكلم فاني مصغ اليك ، قال كنت أريد
أن أقول لك : ان هؤلاء الطائشين المرورين الذين
لا حديث لهم ليلهم ونهارهم إلا حديث الطعن والضرب
والمغالبة والمصارعة سيفسدون عليك عقلك ، ويهدمون
نظام حياتك ، ولو أنك جريت معهم في هذا المضمار
طويلاً كانت عاقبتك أوخم العواقب وأردأها ، سل
العقلاء أصحاب العقول الراجعة والآراء المستحصدة
ماذا كان وقع حادث الليلة في نفوسهم وخاصة في نفس
رجل عاقل كيس كنيافة الكاردينال ؟ فقال له وكان قد
انتهى من طعامه : أ كان الكاردينال هنا ؟ قال نعم ، ولا بد
أن يكون رأيه فيك شيئاً جيداً ، قال لا بل بالعكس ،
لأنه شاعر ، والشاعر يعجبه دائماً أن يرى بعينه منظر
سقوط رواية ينظمها شاعر آخر ، قال ولكنك قد اتخذت

لك اليلة أعداء كثيرين لا أدري ماذا يكون شأنك معهم
خدأ ، قال كم تظنهم على وجه التقريب ؟ قال أربعين غير
النساء ، قال : اذكر لي بعضهم مثلاً ، قال : مونفلوري ،
دى جيش ، دى جيچى ، قالشير ، بارو مؤلف الرواية ،
الممثلون ، أعضاء المجمع العلمى . . . قال كفى كفى ، قد
فهمت ، إنها نتيجة جميلة جداً ، كنت أظن أن أعدائى
أصغر شأنًا من ذلك ، فعجب لبريه لأمره وقال له :
أعترف لك ياسيرانو انى قد عييت بأمرك عياء شديداً
وأصبحت لا أدرى الى أين تصل بك هذه الحالة الغريبة
وتلك الأساليب الشاذة ولا أفهم ماهى حقيقة رأيك فى
الحياة ولا ماهى خطتك التى انتهجتها لنفسك فيها ؟ فأطرق
سيرانو لحظة ثم رفع رأسه وقال له اسمع يالبريه

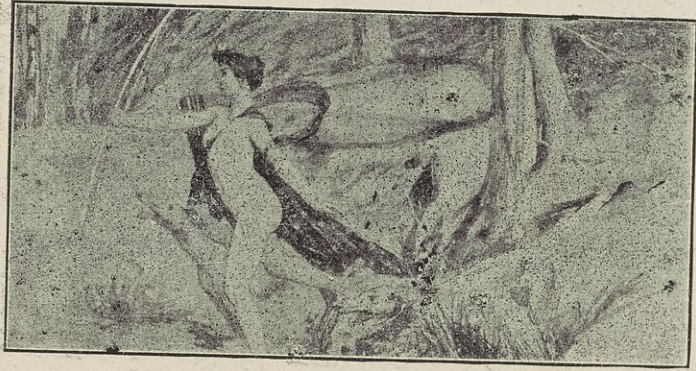
إن الخطط فى الحياة كثيرة جداً ومتشعبة تشعباً
يحار فيه العقل ، ولقد ضللت فى مسالكها برهة من الزمان
لا أعرف ماذا آخذ منها وماذا أدع ، حتى اهتديت أخيراً

إلى أبسطها وأسهلها ، قال وما هو ؟ قال هو أن أكون
موضع الإعجاب في كل شيء ومن كل انسان ، قال فليكن
ما تريد ، ولكن على شرط أن تكون أفعالك أشبه
بأفعال العقلاء منها بأفعال المجانين ، قال لا أستطيع أن
أعرف الحد الفاصل بين العقل والجنون ، قال هل لك أن
تخبرني لم تضمر في نفسك هذا البغض الشديد لمو نفلوري
وما أذكر ان الرجل أساء إليك في حياته قط ؟ قال أبغضه
لأنه وهو ذلك العتلُّ البطين الذي لا تستطع يده أن تصل
إلى سرته يظن نفسه رشيقاتاً جميلاً يستطيع أن يخلب قلوب
النساء ويستهوئَ ألبابهن بخفته ورشاقتة ، فاذا وقف
في المسرح للتمثيل ألقى عليهن في مقاصيرهن نظرات
كنظرات الضفادع بصورة تعافها الأنف وتندى لها
الوجوه ، ولقد أضمرت له في نفسي تلك الموجدة منذ
الليلة التي رأيته يجترئ فيها على أن يوجه إليها نظراته
الخنفسائية البشعة ، فلقد خيل إلي في تلك الساعة أن دودة:

قدرة سوداء قد دبت من مكانها الى وردة نضرة ناعمة
فلصقت بها، فأزعجني هذا المنظر المؤلم إزعاجاً شديداً ولم أربداً
من معاقبته على جهله وغباوته فحكمتُ عليه بالانقطاع عن
التمثيل شهراً كاملاً، فقال لبريه : ومن هي تلك التي تريد ؟
يخيل إلى أنك عاشق ياسيرانو ، فابتسم ابتسامة الممتعض
المتألم ثم تنفس تنفساً طويلاً كادت تتساقط لها جوانب
نفسه وقال : نعم يا لبريه ، إنني أحب حباً قاتلاً لا بد أن
يسوقني الى القبر ، قال : وهل يمكنني أن أعرف من هي
تلك التي تحبها ؟ فانك لم تحدثني عنها قبل اليوم ، قال أي
فائدة لي من ذكرها وهي لا تحبني ، قال وكيف عرفت
ذلك ، هل فاتحتها في شيء ؟ قال وكيف يمكنني أن أفاتحها
وأنا أعلم أن هذا الأنف البشع القبيح الذي أحمله يتقدمني
حيثما ذهبت وأتني سلكت ، فلا يسمح لي بالطمع في قلب
امرأة قبيحة شوهاء فضلا عن جميلة حسناء ، قال ألا
يمكنني أن أعرف من هي ؟ قال اذا عرفت أن سيرانو

لا يمكن أن يحب الا أجمل امرأة في العالم أمكنك أن
تعرف من هي ، فصمت لبريه مُهنيه وهو يفكر حتى
عجز فقال : لم أستطع أن أفهم شيئاً فهل لك أن تصفها لي ؟
قال أما هذه فنعم ، هي الخطر العظيم الذي يحيط بالمرء من
جميع نواحيه فلا يعرف له سبيلا الى الخلاص منه هي
المغناطيس الجذاب الذي يستهوى قلب الناظر إليه وعقله
وجميع حواسه ومشاعره ، هي الوردة النضرة الناعمة التي
تكن حية الحب السامة بين أوراقها ، من رأى ابتساماتها
رأى الجمال الانساني كله ، ومن رأى نظراتها رأى الدعة
واللطف والرقه والعدوبة وجميع معاني الحياة الطيبة اللذيذة ،
في كل حركة من حركاتها ، وإشارة من اشارتها ، ولفظة
من لفظاتها ، شمس تضيء الكون وتنير ظلماته ، ليس
في استطاعة « الزهرة » ربة الجمال وهي جالسة فوق علياء
عرشها العظيم أن تضارعها في بهائها وجلالها ، ولا
في استطاعة « ديانا » إلهة الحب حين تسير بخفة ورشاقة وسط

الرياض الناضرة أن تحاكيها في مشيتها وهي سائرة على
قدميها الصغيرتين في ممشى بستانها ، فقال لبريه : حسبك
ياسيرانو فانك تحب ابنة عمك روكسان ، ولكن لا أدري



ديانا الهة الحب التي لاتضارع روكسان في جمال مشيتها
لم لاتفضي اليها بذات نفسك مادمت تحبها ومادمت تمت اليها
بصلة القربي التي بينك وبينها ، قال ذلك ما أعجز عنه يا صديقي ،
فانني رجل بأئس مسكين قضى الله علي أن أعيش في هذا
العالم بلا أمل ولا رجاء ، تأمل في وجهي قليلا وانظر هل
يستطيع صاحب مثل هذا الوجه البشع اللميم أن يحيا

في العالم حياة الحب والغرام ؟ أو أن يكون له أمل
في اختلاب الأفتدة واجتذاب القلوب ؟ لقد تمر بي
في بعض أيامى ساعات أشعر فيها بحاجة قلبي إلى تلك الحياة
الحلوة اللذيذة التي يحياها الناس جميعاً حياة الحب والغرام
فأدخل إحدى الحدائق العامة وأمشى بين رياضها وأزهارها،
وأتنسم روائحها وأنفاسها، فأنسى نفسي ويخيل إلى أنى
أصبح في جو رائع صاف من العواطف والوجدانات
فاذا رأيتُ في ضوء أشعة القمر القضية امرأة جميلة تمشى
وحدها خيل إلى أنى أستطيع أن أكون رفيقها الآخذ
بذراعها، وإذا رأيت فتى وقتاة سائرين على مهل يتهامسان
ويتناجيان وتموج أنوار الحب بينهما خيل إلى أن يجانبى
رفيقة حسناء ترفرف على وعليها هذه الأجنحة البيضاء
التي ترفرف عليهما، ثم استسلم لهذه التصورات والافكار
واستغرق فيها ساعة طويلة حتى إذا وقع نظرى فجأة
على خيال وجهى في حائط الحديقة في ضوء القمر عدتُ

إلى صوابي وأفقت من غيبوتي ورجعت أدراجي إلى منزلي
وبى من الحزن ما الله به عليم ، ثم نكس رأسه ملياً وصمت
صمتاً عميقاً كأنما يعالج في نفسه الماء مُمضاً فخنا عليه لبريه
وقال له : رحمةً بنفسك يا صديقي ، فرفع رأسه وقال : نعم
إن آلامى عظيمة جداً لا يحتملها بشر ، فليت الله إذ خلقنى
على هذه الصورة الدميمة البشعة لم يخلق لى قلباً خفاقاً ،
أو ليتته إذ خلق لى هذا القلب الخفاق خلق له أجنحةً
يستطيع أن يطير بها فى جو الحب كما تطير القلوب الخوافق ،
أما الآن فأننى أشعر أنى وحيد فى هذه الدنيا لا سند لى فيها
ولا عضد ، ولا أنيس ولا عشير ، ولا زوجة ولا ولد ،
ثم عاد إلى إطراقه مرة أخرى وأخذ يبكى ويدرف دموعاً
غزاراً فى صمت وسكون ، فارتعج لبريه وأخذ بيده وقال
له : أتبكى ياسيرانو ؟ فانتفض ورفع رأسه وقال لا يالبريه ،
إن البكاء قبيح بمثلى ، ولا يوجد فى العالم منظر أقبح ولا

أسمع من منظر الدمعة الجميلة وهي سائلة على مثل هذا الانف
الضخم الطويل لا شيء في العالم أبدع ولا أرق ولا أجمل
من الدموع ، وإني أضن بها أن أذيلها وأهينها وأكدر
صفوها وأشوه جمالها ، فتأثر لبريه لمنظره تأثراً شديداً وكاد
يبكي لبكائه ولكنه تجلد واستمسك وقال له لا تحزن يا صديقي
ولا تستسلم لهذه الأوهام فما الحب في الدنيا إلا حظوظ
وجدود ، وقد يأتيك عفواً ما تظن أنه أبعد الأشياء منك
منك ، قال لا ، أنت مخطيء يا لبريه ، فانه لا يجوز لي أن
أطمع في حب « كليوباتره » إلا إذا كنت « قيصر » ولا
في حب « بيرنيس » إلا إذا كنت « تيتوس »^(١) قال إن
الله وهبك من العقل والذكاء والصفات الكريمة النادرة

(١) بيرنيس أميرة اسرائيلية من أسرة هيروود حكام جوديه
بفلسطين رآها تيتوس الامبراطور الروماني أثناء فتوحاته هناك
فأحبها وأحبته فأتى بها إلى روما وأراد أن يتزوجها فأبى الشعب
عليه ذلك إباءً شديداً فاضطر أن يعيدها بالرغم منه ومنها

ما يقوم لك مقام الجمال ، ألم تر تلك الفتاة بأئمة الحلوى وهي
تنظر إليك نظرات الحب والشغف على أثر تلك المباراة
الغريبة التي انتصرت فيها على الفيكونت الليلة ؛ كذلك
كان شأن روكسان ، فقد شاهدتها وهي تتتبع حركاتك
أثناء المباراة باهتمام عظيم وقلقها عليك ظاهر في اضطراب
أعضائها واكفهرار وجهها ، حتى إذا انتصرت على خصمك
كانت هي أعظم الناس سروراً بانتصارك ، فانتعش سيرانو
وهدأت نفسه قليلا وقال : أصحيح ما تقول يا لبريه ؟ قال نعم
ولا بد أن تكون تلك الحادثة قد تركت في قلبها أثراً عظيماً
فانتهز هذه الفرصة وفاتحها في شأن حبيك ، قال أخاف أن
تسخر مني وهو الامر الذي أخشاه أكثر من كل شيء
في العالم

وهنا ظهرت وصيفة روكسان داخلة من الباب
الكبير ولم تزل سائرة حتى وقفت أمام سيرانو فدهش
لرؤيتها دهشة عظيمة وخفق قلبه خفقاً متداركاً وقال آه

يا إلهي : إنها وصيفتها ! وظل يرتعد ويضطرب فأنحنت
الوصيفة بين يديه محيية وقالت له : إن سيدتي روكان تسأل
ابن عمها البطل الشجاع سيرانو دي برچراك متى يمكنها أن
تراه غداً على انفراد لتحادثه في بعض الشؤون ؟ وأين يكون
مكان الاجتماع ؟ فزاد اضطرابه وارتعاده وقال : تراني
أنا ؟ قالت نعم في المكان الذي تريده وفي الساعة التي تراها ،
قال آه يا إلهي ، كيف يمكنني أن أصدق ذلك ! قالت انها
ستذهب غداً عند تفتح زهرات الصباح لسماع خطبة
الوعظ في كنيسة « سان روك » ففي أي مكان تحب أن
تقابلها بعد خروجها من الكنيسة ؟ فارتج عليه وظل يهيمهم
ويتمتم وانتشر عليه رأيه فلم يعرف ماذا يقول ، فقالت له مالي
أراك مضطرباً هكذا ؟ اسرع بالجواب فانها تنتظرني ،
فقال بصوت خافت متقطع ، اني انتظرها في الساعة السابعة
من صباح الغد في مطعم راجنو ، قالت وأين مكان هذا
المطعم ؟ قال في راس شارع سان أتريه ، قالت سأبلغها ذلك

وانحنت ثانية بين يديه وانصرفت ، فظل شاخصاً يبصره
إلى السماء كالذاهل المشدوه وهو يردد بينه وبين نفسه :
آه يا إلهي ! كيف يمكنني أن أصدق ذلك فانها أرسلت إليّ
وصيفتها تسألني أن أقابلها على انفراد فليت شعري ماذا
تريد أن تقول لي ؟ فقال له لبريه تريد أن تقول لك إنها
تحبك ما في ذلك ريب ، ولقد تنبأتُ لك بذلك من قبل فلم
تصدقني ، قال كيفما كان الأمر فحسبي منها اني خطرت
ببالها وانها تعلم أن في العالم إنسانا اسمه سيرانو ، قال ما احسبك
إلا راضياً عن نفسك الآن ، ولا بد أن تكون قد هدأت
تلك الثورة التي كانت قائمة في نفسك ، قال لا ، ما هدأت
ولا قُتت ، بل أصبحتُ نائراً جداً ، واشعر ان قوتي قد
ازدادت اضعافاً مضاعفة ، فلو لقيت الآن جيشاً كامل
العدة والعدد لقهرته وحدي ، ويخيل إلى أن بين جنبي
عشرة قلوب وأن في منطقتي عشرة سيوف أستطيع أن
أقاتل بها جميعها في آن واحد ، ولا يكفيني أن أحارب

الاقزام والضاوين والجبناء كذلك المسخ الذي حاربه الليلة
بل لا بد لي من جيابرة وعمالقة أنخر بقتالهم والفالج عليهم

﴿ باب نيل ﴾

وكان يتكلم بصوت عال رنان ويصرخ صرخات هائلة
مزعجة تدوى بها أرجاء القاعة كأنما خيل اليه أنه في ميدان
حرب وأنه يقاتل أولئك العمالقة والجيابرة الذين ذكرهم
وكان الممثلون قد عادوا من نزهتهم وأخذوا يهيمون
على المسرح الرواية المقبلة فازعجهم صوت سيرنوا وهو يصرخ
فصاح به أحدهم : ألا تزال باقياً هنا حتى الآن ياسيرانو ؟
لقد أزعجتنا بضوضائك وصخبك فاهداً قليلاً لنستطيع أن
نأخذ في عملنا ، فابتسم سيرانو وقال عفواً ياسادتي فساترك
لكم المسكن مسروراً مغتبطاً ، وهم بالخروج . فإراعه الاجماعه من
الجنود والضباط قد دخلوا الحانة يحيطون برجل يترنح سكرأ
فتأمله فاذا هو لينبير ، فهرع اليه مذعوراً وقال ما بك يا صديقي ؟

قال بلهجة متشاقة خذ هذه الورقة واقراها فانها تنذرني بأن
مائة رجل يكمنون لي الليلة في طريقى إلى منزلى عند «باب نيل»
ليقتلونى بسبب تلك القصيدة التي تعلمها ، فائذن لي بالذهاب
إلى منزلك لانام فيه الليلة ، فاطرق سيرانو هنيهة وهو يهيمهم
قائلا : مائة رجل على رجل واحد ؟ ما أجبنهم وأسفل نفوسهم ،
ثم رفع رأسه وألقى على لينبير نظرة عالية مترفعة وقال له
بهدوء وسكون : لينبير ! إنك ستنام الليلة في بيتك ، فلم
يفهم غرضه وقال له وهو يترنح ويتمطق : ولكنك تعلم
ياسيدى أننى رجل ضعيف مسكين لا أقوى على مقاتلة هرة
فن لي بقاء مائة رجل وحدى ؟ قال إننى أنا الذى سألتهم وأنا
الذى سأقاتلهم ، فخذ المصباح من يد البواب وسر أمامى ،
وأقسم لك أنك ستنام الليلة في بيتك ، وأننى سأمهد لك
فراشك بيدى ، لقد كنت أتمنى منذ هنيهة أن أقاتل جيشاً
كامل العدة والعدد ، وهاهو ذا الجيش الذى كنت أتمناه
قد وافانى وحده ، إننى فى هذه الليلة بل فى هذه الساعة

على الأخص لا يحمل بي أن أقاتل أقل من هذا العدد، فتقدم نحوه لبريه ووضع يده على كتفه وأسر في أذنه: ألا يستطيع هذا الرجل أن ينام الليلة في غير بيته؟ وهل ترى من اللازم الحتم أن تخاطر بنفسك دفاعاً عن مثل هذا الأبله المأفون، وكان الممثلون قد نزلوا من المسرح وأقبلوا يشاهدون الحادثة فوضع سيرانو يده على كتف لبريه وقال له وهو يبتسم ابتساماً هادئاً لطيفاً: ان هذا السكير الذي لا يفيق بل الزق الذي لا ينفد هو أرق الناس قلباً وأجملهم حساً وأشرفهم شعوراً، رأيتَه مرة وقد خرج من الكنيسة يوم الأحد فرأى المرأة التي يجبهات تناول بيدها اللطيفة قليلاً من الماء المقدس فظلم برقبها حتى انصرفت فهجم على الحوض الذي وضعت يدها فيه وما على وجه الارض شيء أبغض إليه من الماء القراح فما زال يكرع منه حتى أتى عليه، فصاحت إحدى الممثلات: ما أجمل هذه الحادثة وما أرق هذا الشعور: فالتفت إليها سيرانو وقال لها: أليس كذلك أيتها الفتاة؟ قالت وارجحتها

لهذا الرجل المسكين كيف يسمح مائة رجل لانفسهم أن يتفقوا عليه ! الا تعلم ما هو السبب في ذلك ياسيدى؟ فلم يجبها سيرانو والتفت إلى جماعة الجنود الذين دخلوا مع لينير وقال لهم: ها أنذا ذاهب إلى المعركة الليلية فان شئتم أن تكونوا معي فأنتم وشأنكم ، غير أن لي عليكم شرطاً واحداً فقط، هو أنكم مهما رأيتم من الخطر المحقق بي فلا يتقدم أحد منكم لمساعدتي ، وليكن مكانكم منى مكان مراسلي الصحف ومندوبيها في المعارك ، يشاهدونها ولا يقربونها ، فقالت الممثلة ، هل تأذن لي ياسيدى أن أذهب معكم حيث تذهبون ؟ قال نعم آذن لك ولكل من أراد الذهاب منكم ، فصاح الممثلون والموسيقيون جميعاً : كلنا نذهب معك ، فابتهج سيرانو وتهلل وجهه وقال . ياله من موكب شائق بديع ، ثم جرد سيفه من غمده وضرب به الهواء وصاح صيحة القائد في جنده : ليتقدم الضباط ثم الجنود ثم الممثلون ثم الممثلات

ثم الموسيقيون وهم يعزفون بألحانهم الحماسية ، وليأخذ كل
منكم في يده شمعة أو مصباحاً ، أما أنا فاني قائدكم العام وهاهي
الريشة التي ناولتني اياها يد المجد والفضار ترفرف فوق قبعتي ،
فأخذوا يصطفون كما أمرهم وهم يمجنون ويضحكون
كأنهم ذاهبون إلى مرقص ، وهنا التفت سيرانو إلى
الممثلة التي أعجبها قصة لينير وقال لها : قد كنت سألتني
أيتها الفتاة منذ هنيهة : لم يتفق مائة رجل على رجل واحد
مسكين ؟ فأقول لك جواباً على ذلك . انهم ما فعلوا ذلك
من أجله بل من أجل ، لانهم يعلمون اني صديقه الذي
لا يخذله ، ثم أمر البواب أن يفتح الباب الكبير على
مصراعيه ففعل فتجلى أمامه منظر باريس العام في ضوء
القمر الساطع فوقف هنيهة يتأمل هذا المنظر البديع
ويقول آه لقد طلع البدر وتلالأت أشعته فاختمت باريس
المظلمة وحلت محلها باريس المنيرة ، ها هي النجوم اللامعة
تسطع في سماءها ، وها هي أشعة القمر تسيل على

منحدرات سطوحها ، وهاهو نهر السين يرتجف تحت أبحرته
البيضاء ارتجاف المرأة السحرية
إن الطبيعة تهى لنا ميداناً جميلاً للقتال الرهيب
فهيا بنا جميعاً إلى « باب نيل »
ثم مشى فشى الجميع وراءه ينقلون خطواتهم على
نغم الموسيقى



الفصل الثاني

« المتشاعرون »

فتح راجنو طاهى الشعراء والممثلين مطعمه مبكراً
كعادته والطيور لاتزال جائمة في أوكارها فجلس بين يدي
منضدته ينظم على ضوء المصباح قطعة شعرية في وصف
« اللوزينج » ^(١) فكان يُكبُّ على أوراقه مرة ليقيد
ما حضره من الأبيات ويرفع عينيه إلى السماء أخرى ليستمد
من إلهة الشعر روحها ويستلهمها وحيها ، ولم يزل على ذلك
ساعة حتى بدأت الشمس ترسل أشعتها الأولى من خلال
النوافذ والكوى ودوت في المطبخ جلبة العمال وضوضاؤهم
وصلصلة الآنية والقذور فألقى قلمه واعتدل في جلسته
وتأوه آهةً طويلة ثم قال مخاطباً إلهة الشعر : وداعاً أيها

(١) نوع من الحلوى يؤدم بدهن اللوز

الالهة القوية القادرة ، قد انقضى الليل وانقضى سكونه
وهو وه وجاء النهار بجلبته وضوضائه فدعيني الآن واذهي
لسأ نك غير مقلية ولا مجتواة وموعدا الليلة القابلة ، ثم
مشى الى المطبخ فرأى في مدخله إناء من النحاس الأصفر
قد أقت الشمس عليه أشعتها الصفراء فاشتد وميضه
ولألاؤه فوقف أمامه لحظة يتأمله ويقول : هاهي الشمس
قد استطاعت أن تصنع مالا يصنعه الكيمائي الماهر ، فقد
حوّات النحاس الأصفر بشعاع واحد من أشعتها إلى عسجد
وهاج ، ثم قال ما أجمل هذا المعنى وأبدعه ، لا بد لي من تقييده
حتى لا يفلت من يدي إذا احتجت إليه ، وأخرج دفتره من
جيبه فقيده ، ثم وقف بأحد الغلمان وهو يشق بمديقة في يده
رغيفاً إلى شقين فقال له : لقد أخطأت للقسمة أيها الغلام
فالمصرعان غير متوازنين ، ورأى آخر يشوى في نصل واحد
ديكاً كبيراً وعصفوراً صغيراً فقال له : إنها طريقة الشاعر
« مالرب » وهي لاتعجبنى ، فاما أن يكون البيت تاماً

كله أو مجزوءاً كله ، ومر بطباخ يطبخ مرقاً في قدر
فتناول الملعقة وأدارها فيه ثم قال له : ما أرق هذا الحساء ؛
انه كالشعر المهلهل وأنا لا يعجبني إلا الجزل المتين ، ووقف
أحد العمال بين يديه وسأله كم قيراطاً تحب أن يكون
ارتفاع قبة الفالوج اليوم ؛ قال ثلاثة تفاعيل ، وتقدم بين
يديه آخرُ حاملاً على يده صينية مغطاة بنسيج رقيق
وقال له : لقد اخترعت اليوم هذا الشكل ياسيدى فلعله
يعجبك ، ثم رفع النسيج فاذا قيثارةٌ مصنوعة من الحلوى
مغشاة بدقيق السكر الأبيض فهلل وجهه فرحاً وصاح :
فكرة شعرية جميلة لم يسبقك إليها أحد ، وقد أعفيتك
اليوم من العمل مكافأة لك على حسن تصورك وسمو خيالك
فأذهب لشأنك وخذ هذه القطعة الفضية واشرب بها
نخب الفنون الجميلة

« دواوين الشعراء »

ولم يزل يطوف بالعمال ومخاطبهم بهذا الاسلوب
المضحك الغريب ، وهم يتغامزون عليه ويتضحكون من
ورائه حتى خرج فمشى إلى قاعة الطعام فرأى زوجته
« ليز » تصف على المائدة أنواع الحلوى والفظائر والقائد
والرشارش والرقائق وقد اتخذت أوعيتها وأكياسها من
صحائف الكتب الأدبية ودواوين الشعراء التي كانت تبتاعها
من الوراقين لهذا الغرض ، فألقى على الاكياس نظره
حزينة مكتئبة وقال : أهكذا تصنعين بدواوين أصدقائي
الشعراء المجيدين ! لقد كنت أتمنى أن أرى وجه الموت قبل
أن أرى تلك الاعلاق النفيسة والجواهر المننقة أوعية
للفطائر والحلوى في حوانيت الطهارة والحلويين ، فوارحمته
للأدب ووا أسفا عليه وعلى عهده الزاهر النضير ، فألقت

عليه نظرة ازدراء واحتقار وقالت له : إننا ما أردنا اهانة
دواوين أصدقائك ولا الزرابة بها ، ولكننا علمنا أنهم لم تخلق
إلا للعبة والأرضة وأن شعاع الشمس لن يصل إلى مكانها
أبد الدهر ، فأردنا أن نحتال على الناس في أمرها فنشرناها
من قبورها وقدمناها إليهم لفائف للفظائر والحلوى عليهم
يلمحونها عرضاً فيقرؤونها ، فليشكر لنا أصدقائك منمتنا
عليهم ويدنا عندهم ، فاحتمد راجنو غيظا وقال لها : أيتها
النملة الضعيفة لا تهينى الثور العظيم فيصرعك بحافره صرعة
لا قيامة لك من بعدها ، فقالت لعنة الله عليك وعلى جميع
خيراتك من عهد هو مير^(١) إلى عهدك ، وتركته وانصرفت
وما هي إلا هنيهة حتى دخل المطعم غلام صغير يطلب
قرصاً من الحلوى فتناول راجنو أحد الأكياس وتأمله
قبل أن يعطيه إياه فوقع نظره على هذه الكلمة « ولما
فارق عولس بينيلوب » فأعاده إلى مكانه ، وقال شعر بديع

(١) هو مير صاحب الاياداة شاعر يوناني قديم

لا أستطيع أن أسمح به ، وتناول كيساً آخر فقراً عليه هذا
العنوان « إلى أبولون » فقال : ولا هذا ، ووضع في مكانه ،
وتناول كيساً ثالثاً فقراً عليه « إلى فيليس » فقال ولا هذا
أيضاً ، وأراد أن يعيده إلى مكانه فالتفتت إليه زوجته
تخافها وأعطاه الغلام فأخذه وانصرف

ولم يلبث ان تغفل زوجته وعداً وراء الغلام حتى أدركه
في الطريق فصرع إليه أن يرد له الكيس فارغاً فأبى الغلام
إلا إذا أخذ في مقابله قرصاً آخر أو أخذ القرص بلائمن ، فرد
إليه راجنو الثمن وعاد بالصحيفة فرحاً مغتبطاً يمسح عنها
الدهن الذي غمرها ويضمها إلى صدره ويترنم بايائها

« الموعد »

وانه كذلك إذ فتح الباب فجأة ودخل سيرانو وهو
مصفر الوجه شاحب اللون على أثر تلك المعركة الليلية

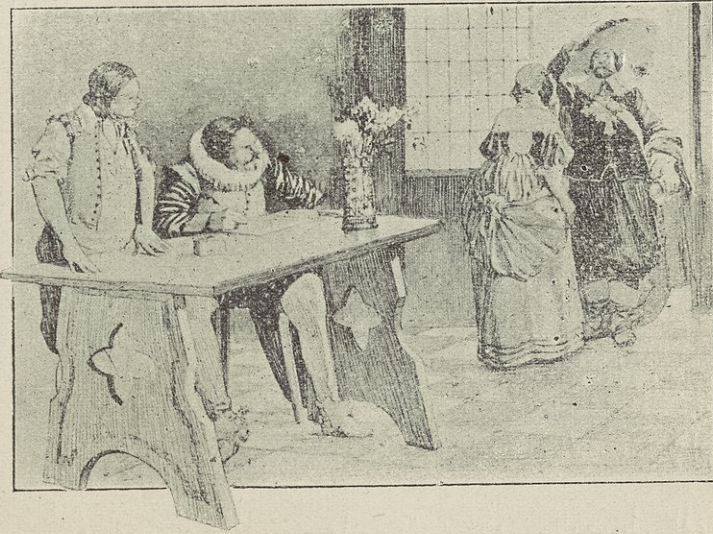
التي دارت بينه وبين أعداء لينير ، فسأل راجنوكم الساعة
الآن ؟ قال السادسة ياسيدى ، وقدم له كرسيًا فجلس عليه ،
ثم وقف بين يديه متأدبًا متخشعًا وقال له : أهنتك ياسيدى
بانتصارك العظيم الذى انتصرته ليلة أمس ، فلقد كانت تلك
المعركة أجمل معركة حضرتها فى حياتى ، وسيمر بى زمن
طويل قبل أن أنساها وأنسى حسنها وجمالها ، فالتفت إليه
سيرانو وقال أى معركة تريد ؟ قال معركة « بورجونيا »
قال لملك تريد المبارزة ؟ قال نعم أريد تلك المبارزة الغريبة
التي ألفتَ فيها بين نغمات سيفك ونغمات شعرك تأليفًا بديعًا
كأحسن ما يصنع الموسيقار الماهر وارتجلتَ فيها ذلك
الموشح الجميل الذى لم يسبق إليه شاعر من قبلك كأن إلهة
الشعر كانت مرفرفة فوق رأسك تمدك بروحها وقوتها ،
فقالت ليز وهى تشير الى زوجها : نعم ياسيدى إنه مازال
يلهج بتلك الحادثة مذكرًا حتى الساعة لا يفارق خيالها
يقظته ولا منامه حتى ليخيل إلى أنه قد أصابه مس من

الشیطان ، فقال راجنو نعم انها لم تفارق خیالی قط ، وما حسدتُ أحداً فی حیاتی علی موقف من المواقف حسدی إیاک علی موقفک هذا ، ثم مديده إلى المائدة وتناول مديّة طويلة وأخذ یلوّح بها فی الهواء مقبلاً مدبراً متقاصراً متطاوِلاً كأنما یمثل تلك المبارزة ویترنم فی أثناء تمثیله بهذا الشطر « وفی المقطع الاخیر أصیب ، وفی المقطع الاخیر أصیب » ثم یقول ما أجمل هذه النعمة ! وما أبلغ هذا الشعر ! وما أمین تلك القافية ! وسیرانو ینظر إلیه مدهوشاً مستغرباً حتی فرغ من تمثیله ، فقال له كم الساعة الآن یاراجنو ؟ قال ست وعشرون دقيقة یاسیدی ، فقال فی نفسه لم یبق علی السابعة إلا القلیل ، ثم وقف وأخذ یتمشی فی أرجاء القاعة ذهاباً وجیئةً فرّ بلیز وهی واقفة بجانب المائدة فلمحت فی یده جرحاً دامیاً فقالت له ماذا أصابک یاسیدی ، وما هذا الجرح الذی فی یدک ؟ قال خدش بسیط لأهمیة له ، فقالت یخیل إلی أنك كنت فی معركة ، قال لا ، قالت

أخاف أن تكون كاذباً ، قال هل رأيت أنفى بضرب ؛
تلك هي العلامة الوحيدة للكذب في مذهبي ، ثم التفت
إليها وإلى راجنو وقال لهما : إننى أنتظر بعض الناس هنا
وأحب أن أكون معه على انفراد فاتركا لى القاعة الآن ،
فلم يبق على حضوره إلا القليل ، قال راجنو ولكن ماذا
أصنع بشعرائى ياسيدى وهم على وشك الحضور الآن ، قال
لا بأس أن يحضروا على شرط أن تأذنهم بالانصراف أو
بالتحول الى غرفة أخرى عند ما أشير إليك ، ثم سأله كم
الساعة الآن ، قال ست وثلاثون دقيقة ، قال أعطنى قلماً
وقرطاساً فانى أريد أن أكتب شيئاً ، فجاءه بما أراد فجلس
على منضدة راجنو وأمسك بالقلم وأنشأ يقول بينه وبين نفسه :
ليس فى استطاعتى أن أفاتحها فى شىء مما أحب أن أفاتحها
فيه ، فخير لى أن أكتب لها كتاباً أقدمه إليها بنفسى عند
حضورها ثم أتركها وانصرف لشأنى لتقرأه وحدها ،
وأطرق برأسه هنيئة ثم تنفس نفساً طويلاً وقال آه ، لقد

كنت أظن أنني شجاع جرى لأهاب الاقدام على أى
خطر من الاخطار مهما كان شأنه ، فإذا أنا جبان عاجز
لا حول لى فيما يعرض لى من الخطوب ولا حيلة ، ويخيل الى
أن الموت أهون على من أن أقف أمامها وجهاً لوجه وأفضى
اليها بشيء مما يجيش به صدرى ثم أكتب على المنضدة
وحاول أن يكتب شيئاً فازدحمت الافكار فى رأسه
وانتشرت عليه خيالاته وتصوراته فلم يستطع أن يكتب
حرفاً واحداً ، فألقى القلم من يده وقال قبّح الله التكلف
والتعمّل لولا أنها تلميذة « المدرسة القديمة » وأنها من
فريق المتأقنين المتشدقين المفتنيز بالصور والأساليب لما
وجد قلمى فى طريقه ما يعترضه دون الوصول إلى
الغاية التى يريدّها ، فالكتاب مسطور فى صدرى
بأكمله وليس بينى وبينه إن أردته إلا أن أضع قلبى بجانبى
وأستمليه ما يشعر به فيمليه على بساطة ووضوح ، ثم
تناول القلم مرة أخرى وشرع فى الكتابة فإذا صوت غليظ

أجشّ يقعق ناحية الباب « صباح الخير يا ليز » فرفع سيرانو رأسه فاذا ضابط ضخم الجثة هائل الخلق ذو شاربين كشيخين مستطيلين فسأل راجنو من الرجل ؟ فقال إنه



سيرانو جالس على منضدة راجنو وهو يلتفت إلى الرجل الهائل عند دخوله

ضابط من ضباط الجيش الفرنسي يسمى نفسه « الرجل الهائل » وهو كما يزعم بطل من الأبطال المغاوير الذين لم يسمح الدهر بمثلهم في جيش من جيوش العالم ، وهو صديق

زوجتي ليز ، ولا يأتي هنا إلا لزيارتها ، فالتقى سيرانو على الضابط نظرة شديدة ثم عاد إلى شأنه واستمر يكتب كتابه ويهمهم بينه وبين نفسه من حين إلى حين بأمثال هذه الكلمات « أحبك حباً يعجز القلم عن بيانه ، لأن القلم مادة من مواد العالم الأرضي ، والحب روح من أرواح الملائ الأعلى » « لا يرى الناس من عينيك الجميلتين سوى صفائهما وروثقهما ، أما أنا فاني أستشف من ورائهما نفسك الجميلة العذبة المملوءة رقة وشعوراً ، فاذا قال الناس ما أجمل عينيهما وأحلاهما قلت ما أجمل نفسها المترقرقة في عينيهما ، وما أصفى أديمها » « إنني أعيش في هذا العالم عيش اليأس القانط ، واليأس يقتل الفضائل في النفوس ويميتها ، فاحيني بالامل واخلق مني إنساناً جديداً تتخذي عندي بل عند العالم أجمع يداً لا أنساها لك أبد الدهر ، وفي اعتقادي أن ليس بيني وبين أن أكون إنساناً نافعاً في المجتمع بل نعمة على الدنيا باجمعهما إلا أن تسبلي على ستر حمايتك ورعايتك »

« بؤس الادباء »

وظل مستغرقاً في تصوراته وأفكاره التي كان يرسمها
على قرطاسه كما يرسم المصور منظرًا بديعاً من مناظر
الطبيعة على لوحه كما يراه لا يزخرف ولا يوشى ولا يبتدع
ولا يبتكر فلم ينتبه إلى جماعة الشعراء حين دخلوا الحانوت
هاتفين مهللين وهم في ملابسهم الزرية الغبراء ونعالهم البالية
وقبعاتهم الممزقة فقالت « ليز » لزوجها وأشارت إليهم هام
صعاليكك وقاذوراتك ياراجنو ، فلم يعبا بها وقام لاستقبالهم
والترحيب بهم فعانقوه وحيوه ودعوه بالزميل والرصيف
والصديق وبكل ما يحب من الالقاب والنعوت وهو فرح
مغتبط فوقف زعيمهم وسط القاعة وأخذ يتشمم بأنفه
ويقول : ماأذ كي رائحة بلاطك ياملك الظهارة والشوائين ،
فانحنى راجنو بين يديه شاكرًا وقال له ماأسعد الساعة
التي أراكم فيها أيها الاصدقاء الاوفياء ، ثم أشار لهم إلى

المائدة فوقفوا حولها وضربوا بأعينهم إلى أنحاءها وظلوا
يأكلون ويقصفون ويمزحون ويمجنون فيقول أحدهم وهو
يشير إلى قطعة من الحلوى ذات رأس مسنم : ان هذه
القطعة لم تحسن وضع قلنسوتها على رأسها فلا بد من معاقبتها ،
فيقول له الآخر وهم تعاقبها ؟ فيقول بهشم رأسها ، ثم
يتناولها فيهشمها كلها رأساً وجسداً ، وينظر آخر إلى
قطعة أخرى محشوة بالقشدة ويضغطها فتبرز قشدها البيضاء
فيقول ما أجملها ! كلها ثغر ضاحك ، فلا بد لي من تقبيله ،
ثم يدنيها من فمه ليقبلها فياً كلها ، ويقول آخر وهو ينظر
إلى قيثارة الحلوى التي صنعها ذلك العامل في الصباح وأجازه
راجنو عليها : كانت القيثارة قبل اليوم غذاء الارواح ،
أما اليوم فهي غذاء الاجسام ، ثم ينقض عليها فياً كلها ،
وراجنو واقف أمامهم يبتسم ويتهلل ويقول في نفسه :
ما أجمل هذه المعاني وأبدعها ! يا أبا الشاعر إلا أن يكون

شاعراً في كل موقف وفي كل مقام ، ثم قال : هل تأذنون لي
أيها السادة أن أنشد بين أيديكم قصيدتي الجديدة التي
نظمتها في وصف « اللوزينج » وسميتها باسمه فصاحوا جميعاً :
نعم نعم ، ولا بد أن تكون قصيدة جميلة جداً لأن عنوانها
جميل جداً ، فاعتزّه مدحهم وثناؤهم فرفع عقيرته وأخذ ينشد
قصيدته ويرجع في انشادها ترجيحاً مضحكاً وهم لاهون عنه
بشأنهم لا يعبأون به ولا يلتفتون إليه إلا في الفينة بعد
الفينة ، فقال له « الرجل الهائل » ألا تراهم يراجنو وهم
يلتهمون حلواك وأنت لاهٍ عنهم بألحانك وأغانيك انفسى
نحوه وانحنى عليه وألقى في أذنه هذه الكلمات : إننى أراهم
أيها الغبي الابله ولكننى أغض الطرف عنهم رحمةً بهم
واشفافاً عليهم ، فهم قوم بؤساء معدمون قلما يرون وجه
الطعام الشهيّ إلا في حانوتي ، وأظنك لا تجهل أن ضيوفى
أولى بالتجلة والاكرام من ضيوف زوجتى ، وكان اعلى مقربة
من مكان سيرانو فانتبه لكلماته الاخيرة فرفع رأسه وقال

له اذنٌ منى يراجنو ، فدنا منه فقال له : إنك تعجبني جداً
أيها الرجل ، فالشعراء في هذا العالم كالشجرة الوارفة في المهمة
القفرة ، يفيء إلى ظلها الغادون والرائحون وهي وحدها التي
تحمّل حرّ الهاجرة ولظاها ، فرحمة الله ورضوانه على من يحسن
إليهم ، ويتصدق عليهم ، ثم عاد إلى شأنه الذي هو فيه وظلّ
الشعراء يأكلون ويقصفون ويتاعون ما شاؤا من فطائر
راجنو وحلواه بطرفهم الأدبية ومَلَحِهِم النادرة حتى
فُتِحَ الباب ودخل عليهم أحد زملائهم وكان قد تخلف
عنهم قليلاً فهللوا حين رأوه وصاحوا بصوت واحد : لقد
تأخرت أيها الصديق ، قال قد حال بيني وبين اللحاق بكم
ازدحامُ الناس ازدحاماً شديداً عند باب « نيل » قالوا وهل
حدث شيء هناك ؟ قال نعم كان ازدحامهم على ثمانية قتلى وجدوهم
هناك مضرّجين بدمائهم ، ولا يعلم أحد كيف قتلوا ولا
من جنى عليهم هذه الجناية الفظيعة ، فانتبه سيرانو للحديث
واعتمد في جلسته وقال في نفسه ياللعجب ! كنت أظنهم

سبعة فقط ، إذن قد ربحنا واحداً آخر ، فقال راجنو
المتكلم : وما ظنُّ الناس بهذه الحادثة ؟ قال يقول بعضهم :
إن رجلاً واحداً هو الذى قام بمفرده بمقاتلة هؤلاء اللصوص
وكانوا مائة أو يزيدون فانتصر عليهم جميعاً وفرَّق شملهم وقتل
منهم هذا العدد الكثير ، ولقد رأينا العِصِيَّ والخناجر
والمُدَى التى كانت مع أفراد تلك العصابة مبعثرة ههنا وههنا
وظل الناس يلتقطون القبعات التى طارت عن رعوس
المنهزمين من باب نيل إلى النهر ، فمشى راجنو إلى سيرانو
وقال له أسمع أنت هذا الحديث ياسيدى ؟ قال نعم ، قال
فما ظنك ببطل هذه الواقعة ؟ فرفع رأسه إليه وقال لأعرفه ،
فهرعت ليز إلى صديقها « الرجل الهائل » تسأله : وأنت
ياسيدى ؟ فابتسم وقتل شاربيه وغمز بعينيه وقال أظننى أعرفه
وكان سيرانو قد أتم كتابه وأراد أن يوقع عليه ثم توقف
وقال لا لزوم للتوقيع لأننى سأقدمه إليها بنفسى ، ثم طواه ووضعه
فى صدره ونهض قائماً على قدميه وهتف براجنو فأسرع

اليه فسأله : كم الساعة الآن ؟ قال ست وخمسون دقيقة ،
فقال في نفسه لم يبق إلا عشر دقائق ، وأخذ يتمشى
في القاعة ذهاباً ورجوعاً ؛ وكانت ليزو صديقتها الضابط جالسين
على انفراد في أحد أركان القاعة نخيل لسيرانو انه رأى
بينهما شيئاً مريباً فدنا منهما ووضع يده على كتف المرأة
وقال لها : نخيل إلى أيتها السيدة أن هذا البطل الجالس
بجانبك يدير خطة للهجوم على حصنك ، فانتفضت
وتظاهرت بالغضب وقالت له ماذا تقول ياسيدى ؟ إن نظرة
واحدة منى تكفى لهزيمة من يحاول ذلك ، قال ولكنى أرى
عينيك ذابلتين متضععتين تلوح عليهما علام الانكسار ،
فاضطربت وحاولت أن تقول شيئاً فخافها صوتها فصمتت ،
فقال لها أيتها الفتاة إن راجنو يعجبني جداً ، لذلك
لأسمح لاحد أن يعبت بشرفه أمامى ، ثم التفت إلى
الضابط فنظر إليه نظرة شذراء وقال : ولقد سمع من كانت
له أذنان ، أليس كذلك أيها « الرجل الهائل » ! ثم تركهما

واستمر في سبيله ، فهمست « ليز » في أذن صديقها
تقول له : إنك تدهشني جدا يا صديقي ، ولا أعلم سببا
لسكوتك وصمتك ، حتى ليخيل إليّ أنك تخافه وتخشاه ،
قل له كلمة تؤلمه وتكسر من شرته أو أسخر من أنفه على
الاقبل ، فإنه موضع الضعف منه ، فنظر إليها ذاهلا مشدوها
وقد سرت في جسمه رعدة شديدة وقال أنفه ؛ لا، لا، مالنا
وللسخرية بمصائب الناس وأرزائهم ، ثم تسلل من مكانه
وخرج من القاعة فتبعته ، وكانت الساعة قد أشرفت
على السابعة فصاح سيرانو : قد جاء الميعاد ياراجنو فهتف
راجنو بشعرائه : هيا بنا أيها الاصدقاء إلى الحجرة الثانية
فتباطأوا وتلكأوا فظل يدفعهم بيديهم وهم يتخطفون الحلوى
ويتناهبونها حتى أدخلهم الحجرة وأغلق بابها عليهم ، ووقف
سيرانو على مقربة من باب المطعم ينتظر قدوم روكسان
ويقول في نفسه لا أعطيها الكتاب إلا إذا رأيت
في وجهها بارقة أمل

« اللقاء »

وهنا سمع حفيف ثوب مقبل خفق قلبه خفقاً ناشديداً
ثم فتح الباب ودخلت روكسان ووراءها وصيفتها وهي
تخطر في مشيتها تلك الخطرة البديعة التي عرفت بها وافتن
بها الناس من أجلها وقد أسبلت قناعها على وجهها فحيتته
فيهاها تحية محتشمة تترجع بين الادب والكبرياء وأشار
لها الى كرسى كان قد أعده لها جلست عليه ثم تركها وذهب
الى الوصيفة وكانت واقفة على عتبة الباب تقلب نظراتها
في صنوف الأطعمة المنتشرة على المائدة فقال لها بلهجة
المزاح المداعب : أشرهة أنت أيتها الفتاة ؟ قالت نعم
ياسيدى الى الموت ، فشى الى المائدة وتناول كيسين من
أكياس الحلوى وقال لها هاك قصيدتين بديعتين للشاعر
العظيم (بنسراد) فخذيهما ، فلم تفهم ما يريد ، وقالت وماذا
أصنع بهما ، قال قد اتخذتهما « ليز » كما اتخذت غيرهما من



روكسان داخلة مطعم راجنو لمقابلة سيرانو وهي ترفع برقعها عند دخولها
وسيرانو يعطى وصيقتها أكياساً من الحلوى ليمعدها

قصائد الشعراء المجيدين أكياساً للحلوى وأوعية
للفطائر نخذيهما واجلسي خارج الباب فانك ستجدين فيهما
من ألوان الحلوى ما تشتهين ، ولا تعودى إلا بعد أن
تشبعي ، فتلاً لأوجهها فرحاً وسروراً وتناولت الكيسين
وعادت أدراجها ، ورجع سيرانو الى روكسان فوقف بين
يديها حاسر الرأس وقال لها : لقد أسديت إلى ياسيدي
بزيارتك هذه نعمة لا أنساها لك مدى الدهر ، وإني
أفتخر بهذه الثقة التي أوليتها وأنتظر بكل شوق سماع
ما تريد أن تفضي به إلى ، فحسرت فناءها عن
وجهها فأضاء ضوء القمر الساطع في الدُّجْنَةِ الحالكَةِ وقالت
له : شكراً لك يا ابن عمي ، إنك قد أحسنت إلى لييلة أمس
إحساناً عظيماً بقتلك ذلك الفتي الوقح الجريء الذي حاول
أن يعيث بك ويستهن بكرامتك ففضبت لنفسك غضبة
الأبي الأتوف ولم ترم مكانك حتى غسلت بدمه أثر الأهانة

اللى لحقت بك ، أتعرف هذا الفتى ياسيرانو ؟ قال
لا ياسيدتى ، قالت أبارزته دون أن تعرف اسمه ؟ قال نعم ،
قالت إنه الفيكونت « قالقير » الذى أراد أحد المغرمين بى
من عظماء هذا البلد وهو الكونت دى جيش أن يزوجنى منه
على الرغم منى زواجاً لا أعرف كيف أسميه ؟ قال
زواجاً اسمياً ، فاطرقت برأسها حياءً وخجلاً وقالت نعم ،
فقال لها ما أقطع ما تقولين ، لقد أصبحت الآن راضياً عن
نفسى كل الرضا فى تلك الخطة التى انتهجتها معه والى
انتهت بانتهاء حياته بعد ما علمت أننى انما كنت أقاتل
فى سبيلك لا فى سبيل نفسى ، وأذود عن عينيك الجميلتين
لا عن أنفى ؟ فاستضحكت وأشارت له الى كرسى بجانبها
فجلس عليه صامتاً ساكناً ينتظر ما تقول ، وساد السكون
بينهما هنيهة ، ثم أقبلت عليه وقالت له : كنت أريد أن
أقول لك كلمة أخرى ياسيرانو فهل تسمح لى بها ؟ قال نعم
أسمح لك بكل شىء فقولى ما تشائين ، قالت أتذكر تلك

الايام الماضية التي قضيناها معاً ونحن صغيران في «برجرارك»
في تلك المروج الخضراء على ضفاف البحيرة ؟ قانتعشت
نفسه وخفق قلبه خفقانا شديداً وقال : نعم يا ابنة عمي أيام
كنت تأتين هناك مع أبويك لقضاء فصل الصيف في كل
عام ، قالت إني أذكر تلك الأوقاف الجميلة كأنها حاضرة
بين يديّ وأذكر تلك الاعواد الشائكة التي كنت تقطعها
بيديك من أشجار الغاب وتتخذ منها أسيافاً صغيرة تلعب
بها في الهواء كأنك تبارز أشباحاً خفية تتراءى لك ، قال
نعم أذكر ذلك ولا أنساه وأذكر أنك كنت تجمعين أعواد
الذرة من الحقل ثم تجلسين على ضفة البحيرة لتتخذى
من خيوطها شعوراً ذهبية لعرائسك الجميلة ، قالت نعم
ما كان أجمل تلك الأيام ، وما كان أسعد ساعاتها ، وما كان
أحلى مذاق العيش فيها ، لقد كان يخيّل إليّ في ذلك الوقت
انني صاحبة السلطان المطلق عليك وانك تحبني حباً شديداً
وتهم بشأني اهتماماً عظيماً بل تأتمر بأمرى في كل ما أشير

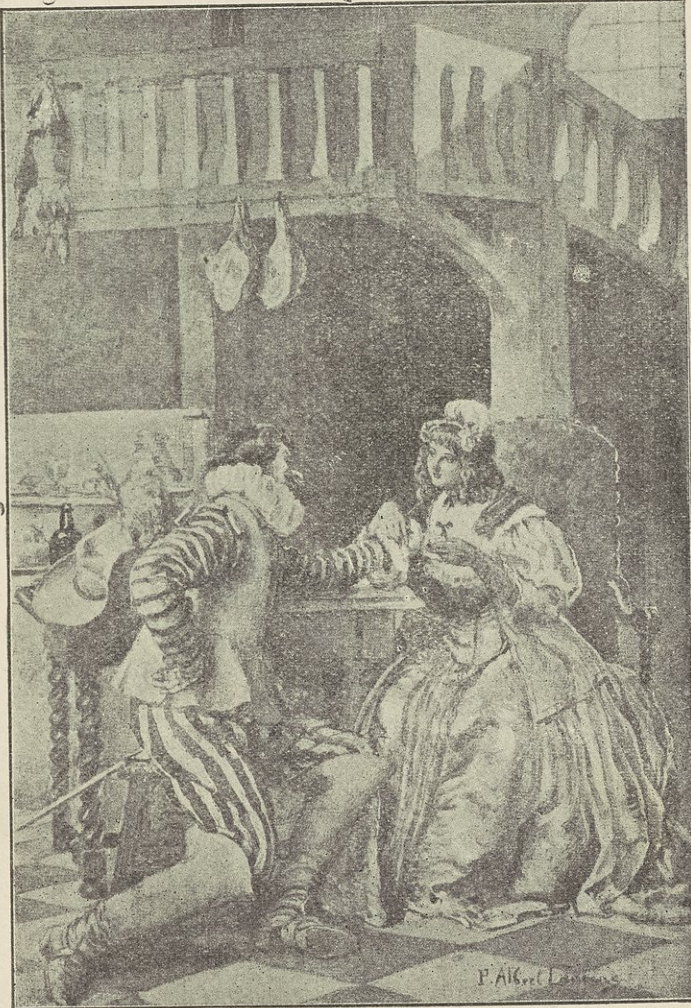
به عليك و تنزل عند جميع رغباتي و آمالي ، و أظن اني كنت
جميلة في ذلك الحين ، أليس كذلك ؟ فازداد خفقان قلبه و خيل
إليه أنه يرى بين شفقتها ظل تلك الحكمة العذبة التي يتلف
شوقاً إلى سماعها من فمها ، فرفع رأسه و نظر إليها نظرة



سيرانو يبارز في طفولته أشباحاً في الهواء

باسمة عذبة و قال نعم ياسيدتي كما أنت الآن ، قالت و كنت
كثير الشغف بتسلق الأشجار الشائكة و المخاطرة بنفسك

في ذلك مخاطرة عظي فكننت إذا أصابك جرح في يدك
هرعتُ إليك وعطفت عليك عطف الأم الرؤوم على ولدها
وأخذت يدك بين يدي هكذا ، ومدت يدها إلى يده فجذبتها
إليها فوقع نظرها على ذلك الجرح الدامي الذي أصابه
في معركة الليل فدهشت وقالت : ما هذا ياسيرانو ؟ ثم
ابتسمت وقالت : ألا تزال تتساقق الأشجار حتى الآن ؟
فضحك وقال نعم ، لا أزال أحب اللعب حتى الآن ، ولقد
لعبت ليلة أمس لعبةً شيطانية عند باب نيل سفكتُ
فيها من دم أعدائي فوق ماسفكوا من دمي أضعافاً
مضاعفة ، ثم حاول أن يستردَّ يده فامسكتُ بها وقالت له
لا ، بل لا بد أن تدعها لي الآن حتى أرى الجرح وأسبره
كما كنت أفعل في عهد طفولتي وأعالجه بالطريقة التي
كنت أعالج بها جروحك من قبل ، ثم أخرجت منديلها
من صدرها وغمسست طرفه في قدح من الماء وظلت تمسح
به الجرح برفق وتؤددة وتقول له : هكذا كنت أعالج



روکسان تاخذ يد سيرانو بين يديها لتعالج جرحه

جروحك التي كانت تصيبك من تسلق الاشجار الشائكة
في عهد طفولتك الأولى ، وهو يرتعد بين يديها ويضطرب
من تأثير ملامسة جسمها لجسمه ويقول . نعم ياروكسان إنها
رحمة لا تكون إلا في قلوب الامهات ، قالت له : قل لي كم
كان عدد أعدائك الذي قاتلتهم في تلك المعركة ؟ قال مائة أو
يزيدون ، قالت مائة ! يا للشجاعة النادرة ، قال وربما كنت
لأعلمين أنها المرة الثانية التي قاتلت فيها من أجلك في ليلة
واحدة ، قالت من أجلى ؟ لم أفهم ما تريد ، قال نعم لأنني
إنما كنت أَدافع عن ذلك الشاعر المسكين الذي انتصر لك
وذاذَ عنك ومثل بخصمك أقبح تمثيل في قصيدته التي هجاهها
فخدها عليه ودس له هؤلاء الرعاع ليقتلوه في جنح الظلام ،
قالت ما أعظم شكرك يا ابن عمي وما أكبر شأن تلك
النعمة التي أسديتها إلي ، حدثني حديث الواقعة من مبدئها
إلى منتهىها فلا بد أن تكون واقعة غريبة جداً لم يسطر
التاريخ مثلها ، قال سأحدثك عنها فيما بعد ، أما الآن فحدثيني

أنت عن ذلك الأمر الذي جئتني من أجله والذي لم تجرني
على أن تفاتحيني فيه حتى الآن ، قالت وهي لا تزال آخذة
بيده تمسحها وتستغثها (١) ، أما وقد ألقينا نظرة على
ماضينا الجميل وجددنا عهد تلك الذكرى القديمة وعلمنا أن
الصلاة التي بيننا صلة وثيقة محكمة لا تنال منها يد الدهر
ولا تأخذ منها عاديات الأيام فاسمح لي أن أفضي إليك بسرّي
وأن أقول لك بصراحة إنني عاشقة ياسيرانو ، فتلاً لأ
وجهه وانتعشت نفسه ومشيت رعدة خفيفة في أجزاء
جسمه وكاد منظره ينم عمافي نفسه لولا تجلده واستمساكه
وقال لها : ومن هو هذا الانسان السعيد الذي يتمتع بنعمة
حبك ؟ قالت انه لا يعلم شيئاً مما أصغره له في قلبي حتى
الآن ولم أفض إليه بسريرة نفسي حتى الساعة ، وسيكون
سروره عظيماً جداً حينما يعلم أن الفتاة التي يحبها ويموت
وجداً بها تضمّر له بين جوانحها من الوجد فوق ما يضمّر

(١) استغث الطبيب الجرح نفي غثيثته وصدديه بمنديل ونحوه

لها ، فازداد سروره وانتعاشه وقال : ألا تستطيعين أن
تقولى لى من هو ياروكسان ؟ قالت سأصفه لك لتكون
أول ناطق باسمه ، هو شابٌ خجولٌ شديد الحياء يحبني
حباً يملك عليه كل حواسه ومشاعره ولكنه يكتم سره
فى صدره ، قال وكيف وقفت على سريرة نفسه ؟ قالت
عرفتها من ارتجاف شفثيه واكفهرار وجهه وتدله نظراته
كلما رآنى ، قال ثم ماذا ؟ قالت وهو ذكىٌ نبهه تلوح على وجهه
علامٌ التفوق والنبوغ ، فأطرق برأسه حياءً وحاول أن
يجتذب يده من يدها وكانت قد انتهت من تضميدها
فقلت له دعها لى الآن فهى لا تزال ملتبهة بالحلمى ، فتركها
لها وهو يقول فى نفسه : ما أسعدنى وأعظم هنأى ، واستمرت
فى حديثها تقول ، وهو فوق ذلك شجاع مقدم شريف
النفس على الهمة يأبى الضيم ويأنف الذل ولا يبديت على
ضيم يراد به ، قال هيه ؟ قالت وهو جندىٌ فى فصيلة شبان

الحرس ، أى فى فصيلتك ياسيرانو ، فهمهم بين شفتيه : لم يبق فى الامر ريب ، قالت أما صورته فهى أجمل صورة خلقها الله فى العالم ... فصعق عند سماع هذه الكلمة التى ذهبت بجميع آماله وأحلامه وتأوه آهة شديدة كادت تخرج فيها نفسه فعجبت لأمره وقالت له : ماذا أصابك ياسيرانو ؟ فترجع إلى نفسه سريعاً واستجمع من قواه فى تلك اللحظة ما يعجز أشجع الرجال وأصبرهم عن استجماعه فيها وقال : لا شيء ، لقد أحسست بوخز فى يدي من تأثير الحمى وقد ذهب الآن كل شيء ، وصمت لحظة ثم قال نعم قد ذهب كل شيء فتحدثنى فانى مصغ إليك ، قالت لقد أحببتُ هذا الفتى حباً ملك على عواطفى واستغرق مشاعرى ولا عهد لى به إلا منذ أيام قلائل كنت أراه فيها يختلف إلى قاعة التمثيل فيجلس منفرداً وحده فأنظر اليه من بعيد ، وقد جئتُك الآن أتحدث إليك فى شأنه ، فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه إليها وقال لها بصوت ساكن هادئ : ألم تتحدثى اليه قبل اليوم ؟ قالت لم تتخاطب إلا

بالعيون ، قال وكيف عرفت جميع هذه الصفات التي ذكرتها
فيه وما حادثته ولا جالست إليه ؟ قالت سمعتها منذ أيام تحت
أشجار الزيزفون في الميدان المسمى في مجتمع العجائز الفضوليات
لا أحر من الله ثروتهم وفضولهم ، قال وهل هو من فرقة
الشبان ؟ قالت نعم شبان الحرس ، قال أعترف لك ياسيدي
انني قد عجزت عن معرفة اسمه فقولي لي من هو : قالت هو
« الباوون كرستيان دي نوقيت » قال لأذكر أني سمعت
بهذا الاسم قبل اليوم ، قالت انه لم يدخل الفرقة إلا في هذا
الصباح تحت قيادة « كربون دي كاستل جالو » فصمت
هنيئة ثم نظر إليها نظرة عطفٍ وحنوٍ وقال لها : ولكن
يخيل إلى ياروكسان إنك تخاطرين بقلبك في هذا الحب
مخاطرة عظيمة لاتدرين ما عاقبتها وأنك تلقين بنفسك في هوة
لاتعرفين السبيل إلى الخلاص منها ، وكانت الوصيفة قد فرغت
من طعامها في هذه اللحظة فدفعت الباب وأطلت
برأسها وقالت قد أكلت كل شيء ياسيدي فماذا أصنع ؟

فالتفت إليها وقال حسبك ذلك فاقربني ما على الاكياس
من الأشعار ، ولا تعودى إلا إذا دعوتك ، فانصرفت
وعاد هو إلى أمام حديثه فقال : أنت يا ابنة عمى فتاة رقيقة
الشعور ذكية الفؤاد لا يعجبك إلا التفوق والنبوغ ولا
تأنس نفسك إلا بالذكاء الخارق والفتنة النادرة ، فإذا
يكون شأنك غداً لو أن ذلك الفتي الذي أحببته واصطفيته
لنفسك كان بليداً أو عيبياً أو ضعيف الذهن أو خامل الفكر؟
قالت لا يمكن أن يكون كذلك ، قال لماذا؟ قالت لان منظر
شعره الذي يشبه في صفوته ولمعانه منظر شعراً أبطال «أورفيه»
يدل على نبوغه وذكائه ، قال ربما كان جميل الشعر بديع
الصورة وليكنه بليد الذهن ضيق العطن ، قالت لا أظن
ذلك ، بل يخيل إلى وإن لم أجلس إليه ولم أسمع حديثه أنه
أرق الناس حديثاً وأعذبهم سمرأ ، وأفصحهم لساناً ،
وأعزهم بياناً ، فقال في نفسه : نعم كل الالفاظ جميلة مادام
القم الذي ينطق بها جميلاً ، ثم قال لها : ولكن ماذا تصنعين لو

تبين لك أنه جاهل أحمق؟ قالت إذن أموت هماً وكمداً ، قال
هذا الذي أخاف عليك منه ، وصمت هنيهة وهو يردد بينه وبين
نفسه : وارحمته لها إنها على شفا الهاوية ، ثم قال لها : وفي
أى شأن من شؤونه تريد أن تتحدثي إلي؟ قالت قد
علمتُ بالأمس أمراً أحزنى جداً وأقلق مضجعي فلم أطمع
الغمض ساعة واحدة ، قال وما هو؟ قالت علمت أن جنود
فصيلتكم جميعهم من الجاسكونيين الجفأة ، وأنهم لا يجبون
أن يدخل فصيلتهم غريب عنهم ، فاذا دخل ناوؤوه
وشاكسوه حتى يخرجوه ، وربما تعلقوا عليه العليل
فبارزوه وقتلوه ، ففطن لغرضها وقال نعم إنهم يفعلون
ذلك ولهم الحق فيما يفعلون ، وخاصة إذا كان هذا الواغل
عليهم أحداً أولئك الأغبياء الجهلاء الذين ينتظمون في سلك
الفرقة من طريق الشفاعات والوصايات لا من طريق
الكفاءة والاستحقاق ، قالت ذلك ماجئتك من أجله ، فقد
أعجبني موقفك الشريف الذي وقفته ليلة أمس أمام ذلك

الفتى الوقح البذئ الذى حاول أن يهزأ بك وينال من
كرامتك وامتلا قلبي ثقة بما كنت لا أزال أعرفه لك
طول حياتك من الشجاعة والحمية وعلو الهمة وابعاء الضيم
فأتيت إليك أسألك أن تموتى كرستيان بحمايتك ، فصمت
سيرانو لحظة ذهبت نفسه فيها كل مذهب وتمثلت له وركسان
في صورتين مختلفتين قد وقفت إحداهما بجانب الأخرى ،
صورة امرأة عاشقة مستهتره تريد أن تسخره في غرض
من أغراضها الغرامية وتطلب إليه أن يضع يده في تلك اليد
التي قتلتته وأتلفت عليه نفسه وأن يكون صديقاً لذلك الفتى
الذى حرمه سعادته وهناءه وقطع عليه سبيل حياته ووقف
عقبة بينه وبين آماله وأمانيه ، وصورة امرأة مسكينة
ضعيفة من أقربائه وذوى رحمه قد نزلت بها نكبة من
النكبات العظام ففرغت اليه فيها تسأله أن يعينها عليها
ثقة منها بفضله وكرمه ، وهمته ومروءته ، وهى لاتعلم من
شؤون قلبه شيئاً ، ولا تدري ان هذا الذى تفرع إليه فيه

إنما هي نفسه التي بين جنبيه وحياته التي لا يملك في يده حياة غيرها ، ثم ما لبث أن رأى الصورة الأولى تتضاءل في نظره وتتصاغر حتى تلاشت واضمحلت ، وظلت الثانية ثابتة في مكانها بارزة واضحة تنظر إليه نظرة الضراعة والاسترحام وتبسط إليه يد الرجاء والأمل ، فالتفت إليها وقد هبت من بين أردانه رائحة الكرم وقال لها بصوت قوى رنان لا تتخلله رنة الحزن ولا تمازجه نغمة اليأس « كوني مطمئنة ياروكسان فاني سأتولى حمايته » وما علم أنه قد نطق في نطقه بهذه الكلمة بحكم الموت على نفسه فقالت له شكراً لك يا ابن عمي فسأعتمد على وعدك ما حييت قال اعتمدى ماشئت ، قالت وكن صديقه الوفي الذي يأخذ بيده في جميع شدائده ومخاطره ، قال بل أصدق أصدقائه ، قالت وحل بينه وبين التعرض لأخطار المبارزات والمشاجرات ، قال إنه لن يبارز قط ، قالت أتقسم لي ؟ قال لا ، لأنني ما تعودت الكذب ، فتلاً لأوجهها فرحاً وسروراً وقالت

الآن يمكنني أن أنصرف آمنة مطمئنة شاكرة لك فضلك
الذي لا أنساه قط ، ثم تناولت برقعها فألقته على وجهها وهي
تقول إنك لم تتمم لي حديث الواقعة التي جُرحتَ فيها
فحدثني عنها قليلا ، يا للعجب ! مائة رجل كانوا ضدك ؛ إنك
كفء لكل عزيمة يا ابن العم ، لا تنس أن تقول له أن
يكتب اليّ اليوم كتاباً ، حدثني حديث الواقعة يا صديقي ،
مائة رجل ؛ يا للشجاعة النادرة ؛ إن كرستيان لا يعلم أني
أحبه حتى الساعة ، فكن أول من يحمل هذه البشري ،
قل لي كيف استطعت أن تلقى وحدك هذا العدد الكثير ،
أو قل لي ذلك فيما بعد ، لأنني تأخرت كثيراً ، ولا بد لي من
الذهاب الآن ، ثم نهضت ومدت إليه يدها فقبلها ، فقالت
له إلى اللقاء يا ابن العم ، إنني أنتظر من كرستيان كتاباً اليوم ،
ثم انصرفت ، فوقف على عتبة الباب يشيخها بنظراته حتى
غابت عن عينيه ، ثم عاد يترنحهما وحزنا حتى وصل إلى كرسيه
فتهافت عليه وهو يقول : إنها تعجب لشجاعتي في تلك

المعركة وأنا في هذه الساعة أشجع مني في كل موقف وقمته
في حياتي

وكان راجنو قد أحس بخروج روكان فأطل من
باب الحجره فرأى سيرانو جالسا جالسته تلك فصاح به
أيمكننا الرجوع الآن ياسيدي ؟ قال نعم ، فأشار إلى
أصدقائه الشعراء فدخلوا جميعا ودخل في تلك الساعة
نفسها من باب المطعم « كاربون دى كاستل جالو » قائد
فرقة الحرس وهو يهدر بصوت كالرعد : قد عرفنا كل شيء
ياسيرانو ، وإني أهنتك من صميم قلبي بذلك النجاح
العظيم الذى أحرزته ليلة أمس على أعدائك المائة ، فنهض
سيرانو متضعضا وانحنى بين يدي قائده وقال شكرا لك
ياسيدي ، فقال مالى أراك شاحبا مصفرا وما هذه الغبرة
السوداء المنتشرة على وجهك ؟ يخيل إلى أنك قد لقيت في
تلك المعركة عناء عظيما ، قال نعم ياسيدي ، قال إن ورائي

ثلاثين جندياً من أبناء فرقتك قد اجتمعوا في تلك الحانة
المقابلة لهذا المطعم وهم يريدون تهنتك والاحتفال بانتصارك
فاذهب إليهم وقابلهم ، ثم قال لا ، بل لا بد أن يأتواهم إليك
بأنفسهم لينثوك تكريماً لك وإعظماً لشأنك ، ثم وقف على
عتبة باب المطعم وصاح بأعلاصوته : أيها الأصدقاء إن البطل
لا يستطيع الحضور إليكم لأنه تعب قليلاً فاحضروا أنتم إليه ،
وما هي إلا هنيهة حتى أقبل الجنود الثلاثة يزلزلون الأرض
بمخفق نعالهم وصلصلة أسلحتهم ويطمطمون بلغتهم
الجاسكونية : سانديوس - ميل ديوس - كاب ديوس -
مورديوس - بوكاب ديوس ، ثم دخلوا ففزع راجنو عند
رؤيتهم لما هاله من طول قاماتهم وضخامة أجسامهم وقال لهم
أكلكم أيها السادة جاسكونيون ؟ فأجابوا جميعاً بصوت
واحد : نعم كلنا ، ثم اندفعوا نحو سيرانو يقبلونه ويمعانقونه
ويهزون يده ويهتفون : ليحي البطل ، لتحي جاسكونيا ،
ليحي الجيش ، وهو يتامل في نفسه ويتبرم ، ولكنه كان

يبتسم في وجوههم ويستقبل تهنئتهم له بالشكر والارتياح،
وكان خبر تلك المعركة قد انتشر في أنحاء باريس جميعها فوجد
جمهور عظيم من الناس إلى المطعم يتقدمهم «لبريه» صديق
سيرانو وهم يصيحون: ليحي البطل لتحي فرنسا، ثم دخلوا
جميعاً يركضون ويتدافعون ويحطمون كل شيء بين أيديهم
وراجنو واقف مكانه يتأمل هذا المنظر الغريب بسرور وارتياح
ويقول واطرباه هاهو ذا الفن يتوج اليوم في مطعمي، حتى
بلغوا مكان سيرانو فداروا به يهنئونه ويقبلونه وكلهم يناديه:
أيها الاخ، أيها الصديق، أيها الزميل، فيقول في نفسه:
واعجباً لكم أيها الناس! لم يكن لي بالأمس بينكم صديق واحد
واليوم كلكم أصدقائي، ووقفت في تلك الساعة مركبة
نخمة أمام باب المطعم ونزل منها ثلاثة من الأشراف فدخلوا
الخانوت وظلوا يدفعون الناس أمامهم دفعاً حتى دنوا من
سيرانو فوضع أحدهم يده في يده وشد عليها بقوة وقال له:
آه لو كنت تدري يا صديق مقدار سروري بك وبنجاحك،

فالتفت اليه سيرانو غاضباً وقال له : ما أنا بصديقك ياسيدي ،
لاني ماعرفتك قبل اليوم ، وقال له الآخر : إن بعض
السيدات ينتظرنك في مركبتهن أمام الباب ليهنئنك بانتصارك
فلو تفضلت بمرافقتي اليهن لاقدمك اليهن ! فقال له : وكيف
تسمح لنفسك ياسيدي أن تقدمني الى غيرك قبل أن تقدم
نفسك الى ، وقدم اليه الثالث كأساً من الخمر وقال له اشرب معي
ياسيدي نَحْبَ بأسك وشجاعتك ، فالتفت إليه وقال له يخيل
إلى سيدي أنك أشجع مني ، لانك قدمت إلى شيئاً
قبل أن تعلم مارأبي فيه ، ثم دفع السكاس عنه بقوة فهراقها ،
وجاءه أحد مراسلي الصحف وقد أمسك يمينه قلماً ويسراه
قرطاساً وقال له : قص على حديث واقعتك أيها الفارس البطل
لانشره في جريدتي ، فنظر اليه شزراً وقال له : إني لم
أقاتل من أجلك ياسيدي ولا من أجل جريدتك بل من أجل
صديقي لينبير ، فتململ لبريه من خشونته وجفائه وكان جالساً
على مقربة منه فجذبه من ثوبه وقال له همساً : ما الذي أصابك

ياسيرانو ! وما هذه الخشونة التي تستقبل بها أصدقاءك الذين
يهنئونك ويمجدونك ؟ فقال له : لا تصدق كل ما تراه يا بريه
فليس لي في العالم صديق سواك

وإنهم لكذلك إذ ساد السكون وانقطعت الضوضاء
وانفرج الجمهور صفين متقابلين خاشعين مستكينين وإذا
الكونت دي جيش القائد الفرنسي العظيم قد أقبل يجرر
أذياله ويسدد أنفه الى كبد السماء عظيمة وخيلاء ووراءه كثير من
الأشراف ورجال الجيش حتى توسط القاعة فوقف ونادى
أين سيرانو ؟ فالتفت سيرانو فراه فدهش وقال في نفسه : لعله
جاء أيضا تهنئتي ، ولئن فعل لتكونن أعجوبة الاعاجيب ، ثم أجابه
وهو واقف مكانه لا يتحرك ولا يحتفل : هائنذا ياسيدي ، قال
أقدم اليك تهنئتي الخاصة وأبلغك أن جناب القائد العام المارشال
« دي جاسيون » قد أمرني أن أبلغك تهنئته لك وثناءه عليك
وإعجاب به ، واعتباطه بعملك العظيم الذي قمت به ليلة أمس
وأضفت به إلى سجل الشجاعة الفرنسية صفحة من أشرف

الصفحات وأمجدها ، ولقد كان في شك من صحة الخبر
لولا أن أقسم له بعض الضباط الذين صحبوك ليلة أمس الى
« باب نيل » أنهم شاهدوا الحادثة بأعينهم ، فرفع سيرانو
نظره إلى الكونت بهدوء وسكون وقال له لاشك أن
للمارشال قدماً راسخة في الفنون الحربية وأساليبها ومثله من
يقدر أقدار الرجال فيبلغه شكري ، فدهش الناس لجوابه
الخشن الجافي وطاش عقل لبريه حتى كاد يتفجر غيظاً وحنقاً
إلا أنه تماسك وتجلد وهمس في أذنه: إن هذا لا يليق بك مطلقاً ،
قل له كلمة أجمل من هذه رداً على تحيته واستقبل الصنيعة بمثلها ،
فصمت سيرانو هنيهة ثم قال له بصوت خافت: دعني يا لبريه فاني
لا أطيق أن أشكر رجلاً جاء لتهنئتي بانتصاري عليه ، فقال
له يخيل الى أنك متألم يا صديقي ، فانتفض سيرانو وقال أنا!
لا ، أتظن أنني أتألم أمام أحد مهما برح بي اللهم وأمضني أو
أسمح لعدو من أعدائي أن يشمت بي ويرى بعينه منظر
بؤسى وشقائي؟ انتظر قليلاً فسوف ترى ، وكان الكونت

قد جلس على كرسيه المعد له جاسة العظمة والكبرياء فالتفت
الى سيرانو وقال له بنعمة الساخر الهازي : ان تاريخك يامسيو
سيرانو حافل بالحوادث والوقائع ، ويخيل الى اننى رأيتك
في فرقة هؤلاء الجاسكونيين الشياطين ، أليس كذلك ؟
فصاح الجاسكونيين جميعاً : نعم هو في فرقتنا ولنا بذلك
الفخر العظيم ، فالتفت الكونت اليهم وقلب نظره في وجوههم
وهم وقوف بجانب قائدهم «كاربون دى كاستل جالو» وقال :
أكل هؤلاء الذين تلوح عليهم مخائل العظمة الكاذبة
جاسكونيون ؟ فهتف كربون بسيرانو وقال له : تفضل أيها
البطل الباسل بتقديم فرقى بالنيابة عنى الى حضرة القائد
العظيم ، فشى سيرانو نحو الكونت خطوتين وأخذ يقدم اليه
الفرقة بموشح بديع ارتجله في الحال وضمنه الثناء عليهم والتنويه
بفضلهم والاشادة بذكرهم حتى أتمه ، فأعجب الكونت
ببداهته وحضور ذهنه ، وقال فى نفسه ان اصطناع شاعر
مجيد كهذا الشاعر مفخرة عظيمة لمن يصطنعه ، وليس من

الرأى أن يفلت مثله من أيدينا ، ثم استدناه منه وقال له :
أتحب أن تكون لي ياسيرانو ؟ فانتفض وقال لا ياسيدي
ولا لأى إنسان ، قال ان خالى الكردينال دى ريشليميه
كثير الاعجاب بك وبأدبك ويحب أن يراك فان شئت
قدمتك اليه ، ولقد قيل لي إنك نظمت منذ عامين رواية
تمثيلية جميلة لم توفق الى تمثيلها حتى اليوم ، فلو أنك ذهبت
بها اليه ورفعتها له لعرف لك فضلك فيها وأحسن جزاءك
عليها كما أحسن من قبلك الى غيرك من الكتاب
والشعراء (١) فهمس لبريه في أذن سيرانو : لقد آن لروايتك
« أجريين » أن تمثل فليهنئك ذلك ، فلم يلتفت اليه سيرانو
وقال للكونت بنغمة الساخر المتهمم : أحق ماتقول
ياسيدي ؟ قال نعم والرجل كما تعلم أديب بارع راسخ
القدم فى النقد الأدبى ، وسينظر فى روايتك هذه نظر

(١) مما يذكر من مآثر الكردينال ريشليميه أنه منشئ الجمع
العلمى الفرنسى « الاكاديميه » وأنه كان أكبر عون فى عصره
للأدب والأدباء

الناقد البصير وربما أجرى فيها قلم تهذيبه وتنقيحه فجاءت
آية الآيات في حسنها وجمالها ، فاكفهر وجه سيرانو
وتفصّد جبينه عرفاً وقال للكونت : ذلك مستحيل
ياسيدى ، وإن دى ليجمد في عروقي عند ما أتخيل أن
إنساناً في العالم يحدث نفسه بتغيير حرف واحد من
قصيدة من قصائدى ، وما أنا في حاجة إلى الاستعانة على
أدبى بأحد من الناس كائنًا من كان ، قال ولكنك تعلم أنه
إذا أعجبه بيت من الشعر دفع ثمنه غالباً ، قال نعم أعلم ذلك
ولكنه لا يستطيع أن يبذل فيه ثمنًا مثل الذى بذلته ،
لأننى انما أسكب فيه دم قلبى حاراً ، ودم القلب أغلا
قيمة من الفضة والذهب ، قال : إنك أبيت النفس ياسيرانو ،
قال نعم وقد كان جديراً بك أن تفهم ذلك من قبل
وهنا دخل رجل يحمل على يديه قبعات كثيرة قدرة
كان قد وجدها في ميدان المعركة عند باب « نيل » من

آثار الفارين والمنهزمين فألقاها بين يدي سيرانو، وقال له ها هي
أسلاب المعركة التي تركتها احتقاراً لها وازدراء بها قد
حملتها اليك لا لأنها تستحق عنايتك والتفاتك بل لأنها دليل
قاطع على جبن أعدائك ونذاتهم، فضحك الجمهور طويلاً وظلوا
يهتفون : قبعات الهاربين ! قبعات الهاربين ! وقال سيرانو وهو
ينظر خلسة الى وجه الكونت : ليت شعري من هو ذلك
الجبان النذل الذي جرد مثل هذا الجيش السافل ليحارب
به شاعراً مسكيناً ! ما أحسبه الا الآن الا خزيان نادماً يتمنى
أن لو انفجرت الأرض تحت قدميه فهو في أعماقها أبد
الأبدين، فصاح الجمهور من كل ناحية : لاشك في ذلك، فارتعد
الكونت غيظاً واربد وجهه وصاح بصوت أجش كهزيم
الرعد ماذا تقولون : أنا الذي جرد هذا الجيش السافل كما
تقولون لانني أردت تأديب ذلك الرجل الوقح البذيء، ولا
يتولى تأديب سافل دنىء مثله إلا سفلة أدنياء، فقهقه

سيرانو ضاحكا وأخذ يجمع القبعات بحد سيفه ثم دفعها تحت
قدمي الكونت وقال له : إذن يمكنني ياسيدي أن
أكلفك برد هذه القبعات إلى أصدقائك



سيرانو يجمع قبعات اللصوص بسيفه ويدفعها تحت قدمي الكونت
فثار الكونت من مكانه غاضباً ونظر إلى سيرانو
نظرة ملتهبة ينبعث الشرر من جوانبها وقال له هل قرأت

أيها الرجل « دون كيشوت »^(١) قال نعم قرأته وأنا حاسر
الرأس اعجاباً بذلك البطل الشريف ، قال أتذكر من قصصه
قصة الطواحين الهوائية ؟ فأمحني سيرانو وقال نعم « في الباب
الثالث عشر » قال مارأيك فيمن يحاول مهاجمة تلك الطواحين
أو اعتراض سبيلها ؟ ففطن سيرانو لما أراد وقال ما كنت
أظن أن أعدائي طواحين هوائية تذهب مع كل ريح ،
قال انها تمدأذرعها الطويلة لتتناول بها من يجسر على مقاومتها
وتقذف به في الهوة العميقة ، قال : أو الكوكب العالى ، فصاح
الكونت : مركبتي وخدمى ! فابتدر الاشراف تنفيذ أمره
وظلوا يتراكضون ويتدافعون كأنهم بعض الخدم ، وما هي
إلا لحظات حتى حضرت المركبة فخرج الكونت وخرج

(١) رجل خيالى جمعه الكاتب الاسبانى الشهير « مجول
سرفانتس » بطلا لقصته الخيالية المضحكة المسماة بهذا الاسم التى
ألفها سنة ١٦٠٥ وكان معاصراً للشاعر الانكليزى « شكسبير »
وباب الطواحين الهوائية أحد أبواب تلك القصة

بخروجه جميع الاشراف والنبلاء ، من حضر منهم معه ومن
حضر قبل ذلك ، لا يحيون سيرانو ولا يدنون منه ولا يرفعون
أنظارهم اليه مصانعة للكونت ومداهنة فمشى وراءهم سيرانو
يشيهم إلى الباب وهو يقول لهم : ماذا دهاكم يا أصدقائي ؟
مالكم تعرضون عني وتفرون مني ؟ مالكم لاتودعون البطل
الذي جئتم الساعة لتهنئته وتكرمه ؟ وما زال يشيهم
بامثال هذه الكلمات حتى ركبوا جميعاً مركباتهم وانصرفوا
فعاد إلى مكانه الأول وهتف بلبريه فلباه فاستدناه
منه واحتضنه إلى صدره وقال له : ألم أقل لك أيها الصديق
إنه ليس لي في العالم صديق سواك !

« نفس الشاعر »

نكس لبريه رأسه ملياً ثم نظر إلى سيرانو نظرة
حزينة مكتئبة وقال له : قل لي أيها الصديق ماذا أعددت
لنفسك من الوسائل غداً للخلاص من هذه الهوة العميقة

التي قذفت بنفسك فيها؟ واسمح لي أن أقول لك إنك قد
جننت جنونا لأدري كيف يتركونك بعده خارج
المارستان ، أليس كل ما تستطيع الذود به عن نفسك في
سلوك هذه الخطة العسراء أن تقول لي كما تقول كل يوم
إنك تحب أن تعيش حراً مستقلاً في حياتك لا يسيطر عليك
أى مسيطر من القيود والتقاليد ؟ فليكن لك ما تريد ،
ولكن هل تستطيع أن تذكر أنك مغال متطرف ؟
إنني لأطلب إليك شيئاً سوى أن تعترف لي بذلك ،
فابتسم سيرانو وقال له : إن كان هذا هو كل ما يرضيك فاني
أعترف لك به فتهلل لبريه فرحاً وقال له آه لقد اعترفت أيها
الصديق فلزمتك الحجة التي لا قبل لك بدفعها ، قال إنني
لأ أنكر يا لبريه أنني رجل مغال متطرف كما تقول ولكن
في سبيل المبدأ والفكرة ، والتطرف قبيح في كل شيء إلا
في هذا السبيل ، قال ولكنك في حاجة إلى شيء من حسن
السياسة وسعة الصدر ولين الجانب لتستطيع أن تصل إلى

المجد الذي تجبه وتتعشقه ، فاستوى سيرانو في مكانه جالساً
وقد ظللت جبينه سحابة سوداء من الهم واستحالت صورته
إلى صورة مريعة مخيفة وقال ماذا تريد منى يا لبريه ! وماهى
الخطة التى تجب أن ترسمها لى لأ نفذ من طريقها إلى المجد
الذى تتحدث عنه وتزعم إننى أتعشقه وأصبو إليه !

أتريد أن أعتمد فى حياتى على غيرى وأن أضع زمام
نفسى فى يد عظيم من العظماء أو نبيل من النبلاء يصطنعنى
ويحتبىنى ويكفينى مؤونة عيشى ويحمل عنى هموم الحياة
وأثقالها فيكون مثلى مثل شجرة « اللبالب » لا عمل لها
فى حياتها سوى أن تلتف بأحد الجذوع تعلق قشرته
وتمتص مادة حياته بدلا من أن تعتمد فى حياتها على نفسها؟
ذلك ما لا يكون

أتريد أن أحمل نفسى على عاتقى كما يحمل الدلال سلعته
وأدور بها فى الاسواق منادياً عليها : من منكم أيها
الأغنياء والأثرياء والوزراء والعظماء وأصحاب الجاه والسلطان

يبتاع نفساً بذمتها وضميرها وعواطفها ومشاعرها بلقمة
عيش وجرعة ماء؟

أتريد أن أنصب نفسي سخريّة في الانديّة الخاصّة
والمجتمعات العامّة، ألعب كما يلعب القرد، وأنطق كما تنطق
البيغاء، وأتلون كما تتلون الحرباء، رجاء أن أجد التفاتة من
عيني أمير، أو أرى ابتسامة على شفهي وزير؟

أتريد أن تستحيل قامتي إلى قوس من كثرة الاتحناء،
وأن تهطل أجفاني من كثرة الاطراق والاغضاء، وأن
تجتمع قوق ركبتى طبقة سميكة من كثرة السجود والجلوس
بين أيدي العظماء؟

أتريد أن يكون لي لسانان، لسان كاذب أمدح به
ذلك الذي اصطنعني واجتبانني، ولسان أعدد به عيوبه وسينئاته،
وأن يكون لي وجهان، وجه راض عنه لانه يزود عني
ويحميني، ووجه ساخط عليه لانه يستعبدني ويسترقني؟
أتريد أن أقضي حياتي كلها واقفاً وسط دائرة واحدة
أثب فيها وأطفروا واطالُ بعنقي ليتوهم الناس اني طويل وما

أنا بطويل ؟ أو أن أتخذ لي بوقاً ضحكاً أنفخ فيه ليتوهم
السامعون إني جهورى الصوت وما أنا إلا نافخٌ في بوق ؟
أتريد أن أسير سفينة شعري في العالم بأذرع العظماء
والكبراء بدلا من المجازيف التي أتحتمها بفأسي ، وشعور
« الدوقات » الفانيات بدلا من الاشرعة التي أنسجها بيدي ،
وبتهنيدات الاميرات العاشقات بدلا من الرياح الجارية التي
يسخرها الله لي ؟

أتريد أن أجعل حياتي الأديمة تحت رحمة المقرظين
والناقدين ، والراضين والساخطين ، فان شاؤا رفعوني إلى
علياء السماء ، وان شاءوا هووا بي الى أعماق الجحيم ؟
ذلك مالا يكون ، والموت أهون على من ذلك
أريد أن أعيش حراً مستقلاً لا أخشى أحداً ولا
أهاب شيئاً ، لا يعنيني تهديد الجرائد التجارية الساقطة ،
ولا يفرحني أن تنشر الصحف الكبيرة اسمي بالاحرف

الضخمة في أكبر أنهارها، ولا أبلى أتداول الناس قصائدى
وتدارسوها ورنّت نعماتها في أرجاء المسارح ، أم بقيت
في كسر خزائى اقرأها بنفسى لنفسى وأنغنى بها فى ساعات
وحشى و خلوتى

أريد أن أعيش حراً مطلقاً ، أضحك كما أشاء ، وأبكى
كما أريد ، وأحتفظ بنظرى سليماً ، وصوتى رناناً ، وخطواتى
منتظمة ، ورأسى مرتفعاً ، وقولى صريحاً ، أنظم الشعر
فى الساعه التى أختارها ، وفى الشأن الذى أريده ، فان
أعجبنى ماورد علىّ منه فذاك ، وإلا تركته غير آسف عليه
وأخذت فى نظم غيره ، بدلا من أن أتوسل إلى الطابعين
أن ينشروه ، والأدباء أن يقرظوه ، والممثلين أن يمثلوه ،
والعظماء أن ينهوا به ويرفعوا من شأنه

أحب أن لا أنظم من الشعر إلا ما يوجد به خاطرى ،
وأن لا أنظم إلا بالطريقة التى أريدها أنا لا التى يريدها
الناس لى ، وأن لا أمتع نظرى إلا بمنظر الازهار التى أغرسها

بيدى فى حديقتى ، فان قدر الله لى منزلة فى الحياة فلن
أكون مديناً بها لاحد غيرى ، ولن يكون نخرها عائداً
إلا على وحدى ، ولا أسمح لأحد من الناس كائناً من كان
أن يرفعنى ، بل لا بد لى من أن أرفع نفسى بنفسى
أريد أن أعيش حراً طليقاً ناضل من أشاء ، وأجادل
من أشاء ، وأنتقد من أشاء ، وأن أقول كلمتى الخير والشر
بلا خيار والاشرار فى وجوههم ، لامتملقاً أولئك ، ولا
خاشياً هؤلاء

إن العبد المقيّد بقيود الأحسان والنعمة لا يمكن أن
يكون حراً طليقاً ، فليعفى الناس من أيديهم وصنائعهم
لانى لا أحب أن أكون عبداً لهم ، ولا أسيراً فى أيديهم
وأخر ما أقول لك إنى أفضل أن أعيش ممقوتاً مردو لا
عند الناس على أن أعيش ذليلاً مستعبداً لهم ، ولا أحب
أن أرتفع ارتفاع الزيزفون والسرو إذا كانت اليد التى
ترفعنى غير يدي ، وحسبى من الرفعة والشرف أن أنال

منهما نصيبى الذى قسم لى قدر ما تسمح به قوتى ومواهبى
لا أزيد على ذلك شيئاً

فقال له لبريه عش بنفسك وحيداً كما شئت ، ولكن
لا تكن عدواً للجميع

قال ربما أكون مغالياً فى ذلك ، ولكن مادعانى الى
المغالة فى المعادة إلا مغالاتكم معشر المتكافين والمتعملين
فى المصادقة والموالاتة ، وتصنعكم فى اجتذاب الخلان
والأصدقاء ، وما بغض الى التوادد والتحاب إلا بغضى
لتلك الابتسامات الباردة الثقيلة التى تنفرج عنها شفاهكم
كلما قابلتم صديقاً أو عدواً ، شريفاً أو ضيعاً ، كريماً أو لئيماً ،
حتى أصبحت لأحب شيئاً فى العالم حبي لبغض الناس
إياى ، ولا أكره شيئاً كرهى لحبهم لى وتوددهم الى

هذا هو عيبى الوحيد الذى لا أعرف لنفسى عيباً سواه ،
ولكنه عيب يعجبنى جداً ويلذ لى كثيراً ، وإنك
لا تستطيع أن تدرك مقدار ما أجد من اللذة والغبطة

في نفسى عند ما أسير في طريق فأراه مملوءاً بنظرات البغض
ملتهباً بنيران الحقد وأرى نفسى محاطاً بنطاق محكم من
قلوب الساخطين والناقمين

أما الشتائم التي أسمعها والعنات التي تصوب إلىّ فهي
أشبه الأشياء عندي بذلك البرد المتساقط الذي يتناثر من
الجو على رداي ثم ينزلق عنه إلى الأرض فأدوسه بقدمي
ان الصداقة الباردة المتفككة التي يسعى وراءها
الناس أشبه شيء « بالياقة » الإيطالية اللينة التي تهتدل حول
العنق فيتهدل العنق معها، فهي وان كانت لينة مريحة الا
أنها رخوة مهلهلة ليست لها مسكة ولا قوام

أما العداوة فهي الدرع الفولاذية الصلبة التي تدور
بالجسم فتحفظ كيانه وقوته وتمنعه عن أن يضعف أو أن
ينخور، وكل عدو جديد هو حلقة جديدة في تلك الدرع
القوية المتينة

فقال لبريه : إنني لم أرك في حياتي راضياً عن البغض
مثل اليوم ، وإن نفسي تحدثني أن كارثةً من الكوارث
العظمى قد نزلت بك فأثارت هذه الخواطر في نفسك ،
فاضطرب سيرانو وخفت صوته وهدأت تلك الزوبعة التي
كانت نائرة في نفسه وقال : ماذا تقول يا لبريه ؟ قال أظن
أنك قد عرفت منها عند ما قابلتها أنها لا تحبك ، فأنت ناظم
على الحب راض عن البغض ، فنكس رأسه وصمت صمتاً
طويلاً لا يقول فيه شيئاً ففهم لبريه كل شيء

« المعركة النفسية »

وفي هذه اللحظة دخل المطعم البارون كرستيان مختال
في حلته الجميلة ورونقه الشائق البديع ورأى أبناء فرقة
مجتمعين فتقدم لتحييتهم فلم يعباؤا به وحاول أن يداخلهم
ويتحجب إليهم كما هو شأن أبناء الفرقة الواحدة عند
ما يجتمعون في مكان واحد فانقبضوا عنه وتسللوا من
جواره فلم ير بدأ من أن ينتبذ مكاناً قصياً ويجلس

فيه وحده ، فلم يقنعهم ذلك منه حتى أرادوا إزعاجه وإقلاقه
وكان من شأنهم كما حدثت روكان عنهم أنهم لا يحبون
أن يدخل فرقتهم غريب عنهم عصبيةً لأنفسهم واحتفاظاً
بجامعتهم ، والجنوبيون في فرنسا ينظرون دائماً إلى
الشماليين بعين البغض والازدراء ويسمون ترفهم ونعومتهم
ضعفاً وجبناً ، فشى أحدهم إلى سيرانو وقال له وهو يغمز
كرستيان بعينه : قد كنت وعدتنا ياسيدي منذ هنيهة أن
تقص علينا حديث الواقعة التي انتصرت فيها ليلة أمس على
أعدائك الشماليين الجبناء فحدثنا ذلك الحديث الآن
ليكون درساً تهذيبياً لهذا الفتي الشمالي المتأنث ، وأشار
إلى كرتيان ، فانتفض كرتيان غضباً واتفقت إلى المتكلم
وقال له ماذا تقول ! وكان سيرانو مشتغلاً بمحادثة صديقه
لبريه وكان يفضي إليه بشأنه مع روكان فلم يشعر بشيء
مما حوله ، فتركه الفتي ومشى إلى كرتيان فوقف أمامه وقال
له : عندي نصيحة لك أيها السيد أحب أن أقدمها إليك لتنتفع

بها في مستقبل حياتك معنا ، فألقى عليه كرستيان نظرة
ازدراء واحتقار وأشاح بوجهه عنه ، فقال له الفتي : أترى
هذا الرجل ذا الانف الكبير والسحنة المخيفة الجالس هناك ؟
إن ههنا كلمة لا يجوز لأحد النطق بها أمامه مطلقا كما
لا يجوز النطق بكلمة الجبل في بيت المشنوق ، وأحب
أن لا يفوتك العلمُ بها ضمنا بحياتك ، فمجب كرستيان لامره
ورفع رأسه إليه وقال : أى كلمة تريد ؟ قال انظر إلى وجهي
تفهم معناها فاني لأستطيع النطق بها ؟ ثم وضع أصبعه
على أنفه وهو يتلفّت ويتحدّر فقال له أترى كلمة الأذ ...
فقاطعه الفتي وقال صه إياك أن تتممها فيسمعها فيكون فيها
هلاكك ، فلم يرفع كرستيان طرفه إليه أنفة وكبرياء فتقدم
نحوه فتى آخر وقال له : ولا بد لك أن تعلم أيضا أن أحدا من
الناس لا يحدث نفسه بمناوأة هذا الرجل أو مخاشنته إلا اذا
كان من رأيه أن يلاقى حتفه قبل نهاية أجله ، ثم وقف به آخر
وقال له احذر الحذر كله من أن تنطق على مسمع منه

بهذه الكرامة أو ما يشبهها لا تصرحاً ولا تلميحاً ولا كتابة ولا
تعريضاً فقد قتل في الاسبوع الماضي رجلاً أخنف لانه
ظنه يتخاف هزءاً به وسخرية ، وقتل آخر منذ يومين
لانه أخرج منديله من جيبه وأدناه من أنفه
وهكذا ظلوا يتقدمون نحوه واحداً بعد آخر يندرونه
ويتوعدونه ويهمسون في أذنه بكلمات مختلفة ويشيرون بين
يديه بإشارات غريبة تهويلاً عليه وإرهاقاً له وهو صامت
ساكن لا يرفع طرفه إليهم حتى يرم بهم فنض من مكانه
بهدهوء وسكون ومشى إلى كاربون دي كاستل قائد الفرقة
وهو جالس على كرسيه فوقف بين يديه وقال له ماذا يصنع
الانسان ياسيدي القائد إذا رمت به يد المقادير بين جماعة
من الجنوبيين الوقحاء لا يزالون يشاكسونه ويناؤونه
ويستثيرون غيظه وحفيظته بسفاهتهم ووقاحتهم ؟ فاجابه
القائد ببساطة غير محتفل به ولا مكترث : يبرهن لهم على
أنه وان كان شمالياً فهو شجاع مثلهم ، فأنحنى كرستيان بين

بيديه وقال سأفعل ما أشرت به ياسيدي ، وعاد إلى مكانه الأول
وكان سيرانو قد فرغ من حديثه مع لبريه واعتدل
في جلسته فهرع إليه الجنود من كل ناحية وأحاطوا به وقالوا
الحديث ياسيرانو ، فاتجه إليهم وأنشأ يقص عليهم قصته ويقول
تقدمت نحوهم وحدي منفرداً وكان القمر يلمع في قبة
السماء لمعان القطعة الفضية في رمال الصحراء ، ثم لم
يلبث أن غشيتُه سحابة دكناء فصار الظلام حالكا مدلهما
لا يستطيع المرء أن يرى فيه أبعد من ... فقاطعه كرستيان
وقال « أنفه » فدهش القوم واصفر وجه سيرانو وتهالك
في نفسه ثم صرخ بصوت كهزيم الرعد قائلاً : من هذا
الرجل ؟ وهمّ بالهجوم عليه ليفتك به فقال له أحد الجنود :
هو رجل شمالي دخل فرقتنا صباح هذا اليوم ، فجمد سيرانو
في مكانه ذاهلاً ومر بخاطره كملح البصر حديثاً رو كسان
فقال صباح هذا اليوم ! وما اسمه ؟ قال يزعم أن اسمه البارون
كرستيان دي نوفييت ، فتضعض سيرانوا وتحاذل وشعر أن

نفسه تتسرب من بين جنبيه وقال: آه، إنه هو، ثم استجالت صورته إلى صورة مرعبة مخيفة وظلت أطرافه ترتجف ارتجافاً شديداً فهافت على كرسى بجانبه وصمت صمتاً عميقاً لاحتس فيه ولا حركة، ثم أخذ يعود إلى نفسه شيئاً فشيئاً حتى هدأ فألقى نظره على الجنود المحيطين به وقال لهم: ماذا كنت أقول لكم؟ آه لقد تذكرت، كنت أقول إن الظلام في تلك الساعة كان حالاً جداً حتى أن المرء لا يستطيع أن ينظر إلى أبعد مما تحت قدميه... وتوقف عن إتمام كلامه لأنه تذكر مقاطعة كرستيان إياه عند وصوله إلى هذه الكلمة فوثب من مكانه ووثبة النمر الضائع وهجم عليه هجمة ما كان عند الحاضرين ريب في أنها تحمل في طياتها الموت الأحمر وهو يطمطم بلهجته الجاسكونية: موردبوس، ميلديوس، ولكنه لم يبلغ مكانه حتى جمد أمامه جمود التمثال فوق قاعدته، وظل يزفر زفيراً متتابعاً ثم تراجع بهدوء وسكون إلى مكانه الأول والقوم يتبعونه بأنظارهم ويعجبون لأمره ويقولون في أنفسهم

ماله يقدم ثم يحجم ! وما الذي يبدو له فيتراجع بعد اندفاعه !
وما هي إلا هنيهة حتى هدأ وسكن وعاد إلى حديثه يقول :
وكنت أعلم أنني مُقدم على خطر من أعظم الاخطار وأنى
إنما أحارب في الحقيقة رجلا عظيم الجاه والسلطان لو شاء
أن يسحقني بقدمه كما يسحق السائر النملة الدارجة في طريقه
لفعل ، بل لو شاء أن يضعني بين ... فقاطعة كرستيان
وقال « منخريه » فاهتزَّ سيرانو في كرسيه يمنة ويسرة
وغلا دمه في رأسه غليان الماء في مرجه ولكنه لم
يتوقف بل استمرَّ في حديثه يقول بين شذقيه
لما حال بينه وبين ذلك حائل^١ لأنه صهر الكاردينال ،
والكاردينال هو كل شيء في فرنسا ، ومرت بي ساعة
ضعف كنت أقول فيها لنفسى « وهنا نظر إلى كرستيان
كأنه يخاطبه » إنك قد عرضت نفسك أيها الرجل المسكين
بتهورك وجنونك للهلاك الذي لا بد لك منه ، ووضعت
أصبعك بين الشجرة ولحائها ، وليس بكثير على رجل

قاس مستبدا كهذا الرجل أن يرغم... فقاطعه كرستيان وقال
 « أنفك » فتصامم سيرانو وكأنه لم يسمع شيئاً وقال ...
 ارادتك على مايريد ، وليكنني تجلدت واستمسكت ولم
 أعبأ بهذه الاعتبارات جميعها وقلت في نفسي : سرُّ أيها
 الجاسكونيُّ الحرُّ وامض في سبيلك قدماً لا تحفلُ بشيء
 مما يعترض طريقك وقم بواجبك الذي حملت عبئه وعاهدت
 نفسك عليه كما يفعل الحر الشريف ، وبينما أنا أفكر في ذلك
 إذ لحتُ شقيماً من أولئك الاشقياء يهيء لي في هذا
 الظلام الحالك المدهم ضربة قوية فما هو إلا أن لحتها حتى
 رغتُ منها بأسرع من ضربة السيف فأفسدتها عليه وليكنني
 لم ألبث أن وجدت نفسي في الحال وجهها لوجه ... فقاطعه
 كرستيان وقال « أو أنفًا لانيف » فزار سيرانو زئيراً مخيفاً
 ووضع يده على مقبض سيفه وصاح « يا لصواعق السماء
 ورجومها » فدعر القوم وأيقنوا بالشر وأتلعوا إليه
 أعناقهم لينظروا ماذا يفعل ، فلم يفعل شيئاً ، بل استمر

في حديثه يقول : وجدت نفسي أمام مائة من الغوغاء
الساقطين ثم ثيابهم البالية وأزيائهم القبيحة عن حقارتهم
وسفالتهم وتتصاعد من أردانهم القذرة روائح كريهة تملأ...
فقاطعه كرستيان وقال « الانف » فانفجرت شفته عن
مثل ما تنفجر عنه شفتا الليث ولكنه لم يلتفت إليه واستمر
يقول... تملأ الجو وتزهق النفس فلم أتردد لحظة واحدة
في الهجوم عليهم ففتكت باثنين منهم ثم أتبعتهما بثالث
وإذا بأحدهم يصوب إلى سهمي... فقاطعه كرستيان وقال
« أنفياً » فلم يستطع على ذلك صبراً وهب من مكانه هبوب
العاصفة وصرخ صرخة عظمى : أخرجوا من هنا جميعكم
ودعوني مع هذا الرجل وحدي

ففروا من وجهه جميعاً يستبقون الباب ويترا كضون
ويهمس كل منهم في أذن صاحبه : إنها وثبة الاسد مافي
ذلك ريب ، وراجنو يقرب كفيه حزناً وأسفاً ويقول :
وأسفا عليك أيها الفتي المسكين ، ما أحسبها إلا لمحة

الطرف حتى أراك قطعاً متناثرة على مائدتي

فلما خلا المكان بسيرانو وصاحبه ظلاً يتناظران ساعة
في صمت وسكون لا يفوهان بحرف واحد وكرستيان
ينتظر وقوع الكارثة ويتأهب لها تأهب الجريء المقدم ،
ثم مالبت أن رأى سيرانو يتقدم نحوه رويداً رويداً حتى
وقف أمامه ووضع يده على عاتقه فارتعد ككرستيان
ارتعاداً خفيفاً ، وبينما هو ينتظر عاصفة من الشر تمب
عليه إذ سمعه يناديه بنعمة لطيفة هادئة ويقول له :
سيدي كرستيان ! فرفع طرفه إليه فراه باسم متطلقاً
فعجب لأمره وقال له ماذا تريد ياسيدي ؟ قال أريد أن
أعانقك وأقبلك أيها الصديق فتعال إلي ، فظلل كرستيان
ينظر إليه نظراً حائراً متضعضاً لا يفهم من أمره شيئاً ،
فقال له سيرانو : تعال إلي وقبلي فاني أخوها ، وقد بعثتني
برسالة إليك فاستمعها ، فزادت حيرة كرستيان ولم
يفهم ما يريد وقال له أخو من ياسيدي ؟ قال أخو الفتاة

التي تحبها ، قال أي فتاة تريد ؟ قال : روكسان ، قال أنت
أخوها ؟ وظل يقلب نظره في وجهه كأنه يفتش عن وجه
الشبه بين الأخوين فلا يجده ففطن سيرانو لغرضه وقال
أخوها تقريبا ، أي ابن عمها ، فتلا لأوجه كرسيتيان سرورا
وقال وهل حدثتكَ عنى ؟ قال نعم ، قال وهل أخبرتك أنها
تحبني ؟ قال ربما ، فزاد سروره واعتباطه وقال له : ما أجمل
هذه البشرية التي جئتني بها ياسيدي وما أعظم شكرى لك ،
فابتسم سيرانو وقال : ما أغرب عواطف النفوس وما أسرع
تقلباتها ، فقال اعف عنى ياسيدي فقد أسأت عليك ، قال
وما رأيك في تلك الانفيات التي رميتني بها منذ هنيئة ؟
قال إنني أستردّها جميعها وأجثو تحت قدميك معترداً عنها
معتمداً على كرمك وإحسانك ، قال الآن أستطيع أن أقول
لك أنها اعترفت لى بأنها تحبك حبا شديداً وشريفاً وتضمّر
لك في قلبها من الوجد مثل ما تضمّر لها ، وقد كلفتني أن أقول
لك أنها تنتظر منك اليوم كتابا ، قال وا أسفاه ياسيدي
ذلك ما لا أستطيعه ، قال ولم ؟ قال لاننى رجل عاطل من

جميع المواهب والمزايا لأملك حلية من حلى الدنيا غير
حلية الصمت ، فان عطلت منها هلكت وافتضحت ،
قال عجباً لك ألا تستطيع أن تكتب كتاباً؟ قال لا ، لانى
عمى بليد ، قال إنك مغال جداً وحسبك من الذكاء أنك
تعرف مقدار نفسك ، على أن أسلوبك فى مقاطعى
ومغايظى يدل على أنك لم تحرم فضيلة الشجاعة والذكاء ،
قال استطيع أحياناً أن أكون شجاعاً إذا كان الحديث
بينى وبين رجل ، أما المرأة فانى أضعف الناس مُنة بين
يديها ، قال ولكنك جميل ، والجمال قوة يستمد منها اللسان
فصاحته وبيانه ، قال لا أنكر أن لنظراتى تأثيراً خاصاً
على النساء وأنى مامردت بهن إلا استثيرت بجمالى إعجابهن
ودهشتهن ولكننى أذوب حياء وخجلاً إذا جلست إليهن
أو جمع الحديث بينى وبينهن ، وربما استطعت فى بعض
الاحيان أن أتحدث إليهن فى بعض الشؤون العامة التى

لا يتحامي فيها أحداً أحداً حتى إذا وصلنا إلى حديث الحب
كان الموتُ الأحمر أهون على من أن أنطق بحرف واحد
فيه ، قال إني لا أعجب لأمرِك جداً يا كرستيان ، ويخيل
إلي أنني لو كان لي مثل حظك في الجمال لأحسنت
الكلام في الحب ، قال ويخيل لي أنا أيضاً أنني لو كان
لي مثل حظك في الفصاحة لاستطعت الكلام فيه ،
قال ليتني أستطيع إذا جلست إلى النساء أن أستثير بجمالي
إعجابهن ودهشتهن ، قال وليتني أستطيع إذا جلست إليهن
أن أسترعى ببياني أسمعهن

وصمت كرستيان لحظة ثم قال : ولقد حدثوني عنها
أنها فتاة ذكية متفوقة تتعشق في الرجال الذكاء والفتنة
قبل أن تتعشق فيهم الحسن والجمال ، فإذا يكون
شأني معها إذا كتبت إليها كتاباً فقرأته فلم ترين
سطوره إلا عيياً وركاكة وضعفاً واضطراباً ، فقال وهو
يصعد نظره في وجهه ويصوبه ويعجب بجماله ووضاءته

يخيل الى يا كرستيان أنك لو أعرتني جمالك أولو أننى
أعرتك لسانى لتألف منا انسان تام المواهب والمزايا،
قال نعم ما فى ذلك ريب ، قال ألا تمنى أن تكون ذلك
الانسان ، قال نعم أتمنى أن أكونه ولكن كيف السبيل الى
ذلك ، قال ان فى استطاعتى أن أنفخ فىك روح الفصاحة وأنفث
فى صدرك سحرها فإذا أنت أجمل الناس وأذكاهم معاً ،
قال لا أستطيع أن أتصور ذلك الا اذا زعمت انك من
الساحرين ، قال ما فى الامر سحر ولا مخرقة ، حدثنى
عن نفسك اولاً ، هل تعجز عن حفظ ما يلقى اليها من الجمل
والكلمات وان لم تفهم معناه ؟ قال لا ، فان ذا كرتى
قوية جداً ، ولكنها كذا كرة البيغاء تنقل ولا تعقل مما
تنقل شيئاً ، وأظن انى قد فهمت غرضك الآن ، وانى
لأعجب أشد العجب من اهتمامك بهذا الامر الاهتمام
الشديد ومن الحاحك فى تلمس الوسائل للوصول اليه هذا
الاحاح كله كأنه شأن من شؤونك الخاصة التى تعنيك ،

قال سأفضي اليك بسر المسألة فاستمع لما أقول
ان رو كسان ابنة عمي وصديقتي ورفيقة صباى وطفولتي
وليس لها في العالم من صديق ولا معين سواى ، ويهمنى جداً
أن اراها سعيدة في حياتها هائلة في عيشها لا يكدر عليها
مكدر من عوادي الدهر ونكبات الايام ، ولا اكتمك
انى أخاف عليها الخوف كله ان تحل بها في هذا الحب الذى
اختارته لنفسها نكبة من النكبات العظام ، أو فاجعة من
الفواجع الجسام ، تقضى عليها وعلى آملها ، وما احسبك
تتمنى لها الا ما أتمناه أو تضررها في نفسك الا العطف
الذى أضمره لها خصوصاً وان الصلة التى بينكما ستتحول طبعاً
الى عشرة زوجية طويلة لا يقطع حبلها الا الموت ، لذلك
اردت أن نتعاقد يداً واحدة على اسعادها وترفيه عيشها
وحماية ذلك الحب فى قلبها وحراسته من أن تغشاه
غاشية من وساوس اليأس أو خيبة الأمل ، أنت بحسبك
وجمالك ، وأنا بفصاحتى وبيانى ، تسمع صوتى ولكن من
فمك ، وتحس بروحى ولكن فى جسمك ، وتشرب

عواطفى ولكن من كَأْسِكَ ، وتطرب لنغماتى ولكن من
قيثارتك ، أى أننى أقمصّ فى جسمك وأتسرب بين حنايا
ضلوعك وأكهن فى قرارة نفسك فنستحيل نحن الاثنين الى
شخص واحدٍ أو تصبح أنت كل شىء وأصبح أنا لاشىء ،
وما دامت سعادتها فى الحياة تتوقف على أن ترى بجانبها
إنساناً يجمع فى نفسه بين موهبتي الفصاحة والجمال فليتألف
منى ومنك ذلك الانسان الذى تريده وتمناه ، ولا تقل إننا
نخدعها بذلك أو نغترها فاننا لا نريد بما نفعل إلا سعادتها وهناءها
هذا هو الغرض الذى أرمى اليه ولا أرمى لغرض سواه ،
فارتجف كرستيان وقال إنك تخيفنى جداً ياسيرانو ، ويخيل
إلىّ أن عقلى يحاول الفرار منى دهشة وعجباً ، فانك تقترح
على أمراً ما سمعت بمثله فى حياتى ، قال إنك مغال
يا كرستيان والمسئلة بسيطة جداً ، ألم تقل لى منذ هنيهة
إنك تخاف إن جالستها أو تحدثت إليها أن تملك وتحتويك
فتموت عواطف الحب فى قلبها ! فما الذى يريبك منى وأنا

لا أريد إلا ما تريد ولا أرمى إلا إلى بقاء عاطفة الحب حية
في قلبها نامية، فتنتمتع أنت بعطف الفتاة التي تحبها، وأتمتع أنا
بسعادة الصديقة التي أجلبها وأحترمها وأحرص على راحتها
وهدوها، قال وهل تشعر في نفسك أنك سعيد بذلك؟
فانتفض سيرانو انتفاضة خفيفة لم يشعر بها كرستيان
وقال بصوت خافت: سعيد! وصمت لحظة ثم قال بصوت
متهدج مرتعش: نعم سأكون سعيداً يا كرستيان لأنني
شاعر، والشاعر ممثل بفطرته، يلذ له دائماً أن يلبس ثوباً
غير ثوبه، ويتراءى في صورة غير صورته، فيمثل دور
المجنون وهو عاقل، ودور الشجاع وهو جبان، ودور السعيد
وهو شقي، ودور العاشق الولهان وما في قلبه ذرة واحدة من
الحب والغرام، فاسمح لي أن أمثل دور العاشق الولهان فهو
الدور الذي يلذ لي تمثيله أكثر من غيره، وكن أنت
المسرح الذي أمثله عليه وأخطر في أرجائه جيئةً وذهوباً
كن اللسان وأنا الفكر، كن الجسم وأنا الروح، كن
الجمال وأنا العقل، كن الزهرة وأنا العطر، كن العين وأنا

النور المنبعث منها، كمن القلب وأنا حبيته الكامنة فيه،
فلا تكتب إليها إلا ما أمليه عليك، ولا تحدثها إلا بما
ألقنك إياه، وليكن ذلك سرّاً بيني وبينك لا تعرفه روكسان
ولا يعرفه أحد من الناس

فهدأ كرستيان وسرّي عنه واستقر في نفسه أن الرجل
صديق فيما يقول، ولكنه لو استطاع أن يفهم الحقيقة كما
يفهمها بقية الناس لادرك أن سيرانو عاشق مثله لتلك الفتاة
التي يحبها وانه لما أخفق في حبه وساء حظه فيه وعجز عن
أن يفضي إلى حبيبته بدأت نفسه وسريرة قلبه وجهالوجه أراد
أن يتخذ منه بوقاً يهتف في جوفه بأناؤه وزفراته لتصل إلى
آذانها فتسمعها من حيث لا تراها ولا تشعر بمكانه لا يرجو
من وراء ذلك غرضاً ولا غاية سوى أن يرفّه عن نفسه بعض
همومها وآلامها بالمناجاة والشكوى كما يرفّه المريض عن
نفسه آلامه وأوجاعه بتريديد الانات، وتصعيد الزفرات
فقال له كرستيان ولكن ما العمل في الكتاب الذي

قلت لى إنها تريد أن أرسله اليها اليوم ؟ فد سيرا نويدة
إلى صدره وأخرج تلك الرسالة اللى كان يريد أن يقدمها
اليها فى الصباح فلم يفعل وأعطاه إيها وقال له ابعت اليها بهذه
الرسالة فهى تامة لا ينقصها غير التوقيع ، فدهش كرستيان
وعاودته وساوسه وهو اجسه وقال له : وهل كتبتهما من أجلى ؟
وما الذى دعاك إلى ذلك ؟ قال لم أكتبها من أجلك ولا
من أجل أحد من الناس ولكننا معشر الشعراء لا نتخلو
جيو بنا غالباً من أمثال هذه الرسائل الغرامية الخيالية فاننا
وإن كنا محرومين سعادة الحب وهناءه ولكننا نتخيل أحياناً
صوراً وهمية لا وجود لها فى الخارج نخطبها ونناجىها كما
يناجى المحب محبوبه لنستطيع إمداد الفن الذى نشغل به
بمحقق الحياة وصورها ، ولقد أودعت هذه الرسالة جميع
ما يمكن لمحبتين أن يضمراه فى نفسه من لواجى الحب
وخوالج الغرام ، ولقد كانت أناأتى وزفراتى قبل اليوم طائفة

هأمة في أجواز الفضاء لا تجد لها مستقراً ولا مهبطاً، أما الآن فقد وجدت على يدك المستقر الذي تتطلبه وتسعى إليه، وتستقرأ روكان هذه الرسالة بعد ساعة وسترى أنها الصورة الحقيقية لعواطفك وشعورك لا ينقصها شيء حتى روح الاخلاص وجوهه، قال ألا نحتاج لتغيير شيء فيها؟ قال لا، قال أخاف أن ترتاب بها، قال كن على ثقة من أنها ستعتقد حين تقرأها أنها ما كتبت إلا لها وانها هي التي أوحى بها إلى نفس كاتبها

فتناول كرستيان الرسالة طائراً بها فرحاً وترامى على عنق سيرانو يقبله ويلثمه ويضمه الى صدره ويقول آه يا صديق الكريم، ما أعظم شكرك لك واغتباطي بصحبتك، وظل على ذلك هنيهة وكان القوم وقوفاً أمام باب المطعم ينتظرون اذن سيرانو لهم بالرجوع وهم يسمعون ضوضاء الحديث بينه وبين صاحبه فيتموهمون أنه الجدال العنيف والخصام الشديد

حتى شعروا بذلك السكون الذي ساد بينهما فريعوا وخيل
إليهم أنه سكون الموت فدفع راجنو الباب قليلاً وأطل
من فجوته فرأى هذا المنظر فذعر وخيل إليه الرعب
الذي لحقه أنه يرى منظر الموت وان كرسيتان صريع بين
يدي سيرانو فظل يرتجف ارتجافاً شديداً فهمس القوم
في أذنه ماذا ترى ؟ قال دعوني فاني لا أجرؤ على النظر
وأكاد أموت خوفاً ورعباً ، فدفعوا الباب جميعاً ودخلوا
ففهموا الحقيقة التي ما كانوا يتصورونها ولا يقدرونها
في أنفسهم ، ورأوا أن ذلك الصراع الذي كانوا يتوهمونه
بين خصمين متباغضين إنما هو عناق طويل بين صديقين
مخلصين ، فدهشوا دهشة عظيمة وظل بعضهم يهمس
في أذن بعض : إنه يعانقه ويلتزمه كأنه أصدق أصدقائه ،
وقال « كاربون دي كاستيل » أحمد الله تعالى فان شيطاننا قد
اهتدى ، وصاح آخر عجباً لك ياسيرانو ! لقد أصبحت
مسيحياً تقيماً إذا ضربك أحد على أحد منخريك أدت

له الآخر ، فلم يغضب سيرانو هذه المرة ولم يكثر بل ابتسم
له وتطلق ، وكان بين الداخلين « الرجل الهائل » صديق « ليز »
فأطمعه هذا الموقف في حلم سيرانو وقال في نفسه : لقد فقد
الرجل حميته وانطفأت شعله حماسه وأظن أني أستطيع أن
أتكلم عن أنفه الآن باطمئنان ، ثم أشار إلى ليز فاقتربت منه
فقال لها سأريك الآن منظر من أبداع المناظر وأبهجها ،
وأخذ يدور في أنحاء القاعة ويتمشق الهواء بصوت
عال كأنما يشعر برائحة غريبة حتى دنا من سيرانو فلمس كتفه
وقال له : ماهذه الرائحة الغريبة ياسيدى ؟ فصمت سيرانو
ولم يقل شيئاً ، فأدنى وجهه من وجهه وأطال النظر إلى
أنفه وقال له : قل لي ماهذه الرائحة الغريبة المنتشرة في هذا
الجو فانك تستطيع أن تفهمها أكثر مني ، فما أتم كلمته
حتى لطمه سيرانو على وجهه لطمه هائلة رنت في أرجاء
القاعة وقال : رائحة الذعر أيها الجبان ، فصفق القوم تصفيقاً
شديداً وأغربوا في الضحك جميعاً حتى « ليز »

الفصل الثالث

« حرفة الأدب »

منزل روکسان منزل جمیل أنیق تمتد أمام بابه شرفة عالية بديعة قائمة على ساريتين ضخمتين تتسلق فوقهما أغصان شجرة ياسمين مغروسة أمام الباب حتى تصل الى الشرفة فتنتشر في أنحاءها ، ويقابل هذا المنزل منزل آخر يشبهه في شكله ورونقه ولا يختلف عنه بشيء سوى أن حلقة بابه ملفقة بقطعة من نسيج كأنها أصبع مجروحة^(١) مضمدة وبين المنزلين ميدان واسع يتوسطه مقعد مستطيل

(١) هو منزل كلومير وهي سيدة من الاشراف كانت تقام في بيتها الحفلات التي تجمع المتأدبين والمتأدبات وتلقى فيها المحاضرات الادبية والخطب العلمية شأن كثير من الشريقات في ذلك العصر . وقد لفت حلقة الباب بذلك النسيج حتى لا يزعج صوتها المجتمعين أثناء سماع المحاضرات

من الرخام جلست عليه وصيفة روكسان وراجنو الشواء
يتحدثان، فمسح راجنو دمة كانت تترقق في عينيه وقال
لها: ولقد حزنت كثيراً لفرارها مع ذلك الضابط الخبيث
وبكيت ماشاء الله أن أفعل لأنها كانت سلوة حياتي،
ومعيني على أمري، وما هي إلا أيام قلائل حتى تكشف الغطاء
عن ذلك الافلاس العظيم الذي كان كامناً في حسابي والذي
كنت أستره بجدي وجدها وتراكت على الديون وعجزت
عن الوفاء فلم أربداً من الانتحار نخلوت في حانوتي ليلة أمس
وألقيت أخية في عنقي، وما هو إلا أن صعدت على الكرسي
ووضعت قدمي على حافته لأدفعه من تحتي حتى دخل سيرانو
فهاه الأمر وتعاضمه وفهم للنظرة الأولى كل شيء فابتدر
الجبل فقطعه بسيفه وقال ماذا أصابك أيها المسكين!
فنفضت له جملة حالي وأبثته همي فأشفق علي وجدني من
يدي حتى جاء بي إلى هنا وقص علي روكسان قصتي وقال
لها: إن راجنو صديقنا وصاحب اليد البيضاء علينا وعلى

الأدباء جميعاً شعرائهم وكتابهم ، وهو وان لم يكن من
نوابغ الشعراء المجيدين فهو أديب متفنن محسن الى رجال
الشعر والأدب ضنين بهم وبكرامتهم ، فلم أحفل كثيراً
بتلك الغمزة التي غمزنيها في حديثه ، وما زال بها حتى استثار
عطفها وشفقتها فبكت رحمة بي واستدنتني اليها واستنى ببعض
الكلمات الطيبة ثم عهدت الى بهذا الشأن الذي أقوم به في منزلها
كما تعلمين ، فاستعبرت الوصيصة باكية وقالت : لقد كان
يخيل الى يارا جنو أنك سعيد الطالع في أعمالك وأنتك ترحب
كثيراً فما الذي دهاك وجر عليك هذا البلاء ؟ قال :
حرفة الادب ياسيدي ، فقد كنت أحب رجال الشعر
وكانت ليزنح رجال السيف فلم يزل « مارس » يأكل
ما يشاء ثم يلقى ما يتبقى منه الى « ابولون » ^(١) حتى نزل بي ماترين
فرثت الوصيصة لحاله وظلت تلاطفه وتواسيه حتى
هدأ وسكن ثم نهضت من مكانها واتجهت جهة الشرفة

(١) مارس إله الحرب واپولون إله الشعر وغيره من الفنون

وظلت تنادى : سيدتي روكسان ! أسرعى فقد دنا ميعاد
المحاضرة ، فأجابتها سيدتها من داخل البيت هائئذا آتية
فانتظري قليلا ، فقال لها راجنو : أية محاضرة تريدن ؟
قالت سيحضر الساعة الى منزل « كلومير » وأشارت الى ذلك
المنزل المقابل لمنزل سيدتها رجل من العلماء الباحثين اسمه
« ألكندر » ليلقى محاضرة عن الحب وقد دعيت سيدتي
لاستماعها وسأذهب معها بالطبع ، فضحك راجنو وقال :
ما سمعت قبل اليوم أن الحب فن من الفنون التي تلقى فيها
المحاضرات ، قالت وتبتسم : ليس في الفنون ما هو أحق
بالمحاضرات من الحب

وهنا سمعا صوت قيثارة آتية من بعيد فالتفتا وراءهما
فاذا سيرانو مقبل ووراءه غلامان صغيران يحمل كل منهما
في يده قيثارة يوقع عليها وهو ينهرهما ويتغيبظ عليهما كأنهما
طالبان بين يدي مؤدبهما ويقول لهما : قد أمرتكما أيها
البليدان أن تثمنا النغمات وأنما تأبيان الا تشنيتهما ، فقال له

راجنوبنج بنج ياسيرانو ، متى كان عهدك بمعرفة المثلث والمثاني !
قال عهدي بهامند ذلك اليوم الذي جثوت فيه بين يدي
جاصندي الموسيقى العظيم ، وما أنا الا تلميذه وخرّيج



سيرانو قادم الى منزل روکسان حاملا قيثارته
ووراءه غلامان موسيقيان

مدرسته ، ثم التفت الى أحد الغلامين وانزع منه قيثارته
واستقبل شرفة روکسان وأخذ يغني هذه القطعة

« قد جئت أسلم على ياسمينك ، وأقدم تحياتي لورودك ، وألثم
بمخضوع وخشوع أوراق زنا بقلك البيضاء » فسمعت روكسان
صوته فخرجت إلى الشرفة فرأته فقالت هائئذا قادمة
يا سيرانو ، وكانت قد فرغت من زينتها ولباسها فنزلت
لحيته وقالت له : ما هذا المنظر الغريب ! ومن هذان
الغلامان الصغيران ! قال هما ولدان موسيقيان قد ربحتهما
اليوم في رهان ، فضحكت وقالت أي رهان ؟ قال قد
جادلت اليوم « داسوسى » فى مسألة نحوية موضوعها
الفرق بين لا وبلى واشتد بيننا اللجاج ساعة فاستحقم
وأشار إلى هذين الغلامين وكانا واقفين بين يديه وقال لى
سأراجع المسألة الآن فى مظانها من الكتب وليكونن
هذان الغلامان طوع أمرك ليلة كاملة تذهب بهما حيث
تشاء ويغنيانك ما تريد إن كان الفوز لك فيها ، ثم قام إلى
خزانة كتبه فراجع المسألة فكان الحق فى جانبى فأخذت

العلامين وسرت بهما يغنيانني ويأتمران بأمرى فى كل
 ما أقترحه عليهما من الضروب والالخان حتى وصلنا إلى
 هنا، قالت وهل أنت راض عنهما؟ قال إنهما يجيدان بعض
 الاجادة وقد طربت لثغماهما ساعة ثم سئمتهما ولا أدرى
 ماذا أصنع بهما الآن، وأحسب أنى لأستطيع احتمالهما
 حتى مطلع الفجر، وصمت هنيهة، ثم ابتسم والتفت إليهما
 وقال لهما أتعرفان منزل مونفلورى الممثل البطين؟ قالان نعم،
 قال اذهبا إليه وقفاتحت نافذة مخدعه الذى ينام فيه وأضر بالحنًا
 طويلًا مزعجًا مضطرب الثغما يذهب براحتة وسكونه
 ويملاً صدره غيظًا وحنقًا ثم عودا إلى بمد ذلك

فأنحى الغلامان بين يديه وانصرفا، فالتفت سيرانو
 إلى روكسان وقال لها: قد جئت أسأل سيدتي كما أسألها
 كل ليلة ما رأيها فى حبيبها كرستيان؟ ألا تزال تراه إنسانا
 كاملا خاليا من العيوب والهنات حتى الآن؟ قالت نعم ما فى ذلك
 ريب فليقد جمع الله له بين فضيلتى الجمال الباهر، والذكاء

النادر ، وقاما اجتماعا لانسان سواه ، قال أترين أنه ذكى إلى
هذا الحد ؟ قالت نعم ، بل أذكى من كل من عرفت في حياتى
حتى أنت ياسيرانو ، فاعتبط سيرانو فى نفسه اغتباطا
عظيما ولكنه تظاهر بالتبرم والاستياء وهز رأسه كالمرتاب
وقال ربما ، قالت ولقد بلغ من الذكاء والفطنة تلك المنزلة
التي يتكلم فيها المرء بأشياء غريبة مدهشة يظنها السامع
لاول وهلة أنها لاشيء ، والحقيقة أنها كل شيء ، ولقد
يضعف نور ذكائه أحيانا ويشرد ذهنه حتى يخيل إلى أنه
عبيّ أو غبيّ ولكنه متى عاد إلى نفسه صاغ بلباقة ومهارة
تلك الجوهر البديعة التي لم أر مثلها فى حياتى ، قال وهال
يحسن الكلام عن القلب ؟ قالت انه لايقنع بالكلام
عنه حتى يحلله تحليلا دقيقا ، قال وما رأيك فى كتابته ؟
قالت انه يكتب أحسن مما يتكلم ، وكان أسلوبه الماع
النمير المترقق على بياض الحصباء ، وما أجمل كلمته التي يقول
فيها « خذى من قلبي ما شئت فسيتقى لى منه ما يكفينى »

ألا ترى أنه معنى بديع؟ قال لا بأس به، قالت وسمع هذه
الجملة أيضا وقل لي ما رأيك فيها « إن كان لا بد لك من
أن تحتفظي بقلبي لديك فأعيريني قلبك بدلا منه فاني
في حاجة إليه لاحتمال ما ألاقيه في سبيلك من الآلام
والاوجاع، فقال وهو يكاد يطير في نفسه فرحا: إنه يناقض
نفسه بنفسه، أحيانا يغالى وأحيانا يكون غير وفى،
ولا أدري ماذا يريد بقلبه، فتاملت روكسان وقالت:
إنك تضايقتي كثيرا ياسيرانو، وما أحسبك إلا غيوراً،
فانتفض سيرانو وخيل إليه أنها قد ألمت بسريرة نفسه
فظل ناظراً إليها ذاهلاً لا يدري ماذا يقول حتى قالت له:
وكذلك أنتم معشر الشعراء لا يطيق أحدكم أن يسمع كلمة
ثناء على رفيقه، فهدأ روعه وعلم أين ذهبَتْ في حديثها
ثم قالت له: وسمع هذه الجملة أيضا فهي غاية الغايات في قوتها
ومتانتها « لو كان في استطاعتي أن أرسم قبلاتي على صفحات
ورطاسي لقرأت كتابي بشفتيك بدلا من عينيك »

ما رأيك في هذه أيضاً؟ هل تستطيع أن تجد فيها مأخذاً؟
قال لا أنكر أنها جملة بديعة لولا ركة في بعض أجزائها،
فأربد وجهها غيظاً وقالت له إنك عنيد ياسيرانو فاسمع هذه
القطعة أيضاً فهي خير من جميع ما مضى، فقاطعها وقال لها
وهل بلغ بك الاهتمام بأمره أن تستظهري كلماته وتعيها
في صدرك؟ قالت نعم، قال ما يطمع كاتب من الكتاب
في منزلة أعظم من هذه ياسيدتي، قالت انه نابغة عظيم
ما في ذلك ريب، فاحمر وجهه خجلاً كأنما خيل إليه أنها قد
ألمت بسريرة قلبه وأنها إنما تعنيه بكلامها وقال إنك
تغالين ياروكسان

وإنهما كذلك إذ أقبلت الوصيفة مسرعة وقالت:
قد جاء الكونت دي جيش، فاضطربت روكسان وقالت
اسيرانو لا أحب أن يراك هذا الرجل عندي فأنت صديق
كرستيان وأخاف إن رأك هنا أن يدرك سر غرامي
فيفجئني فيه، فادخل المنزل ولا تظهر له حتى ينصرف
لسأته، قال سأفعل كلما يرضيك ياروكسان، ودخل المنزل

ودخلت الوصيفة وبقية الخدم وراءه

« دهاء المرأة »

أقبل الكونت دي جيش فرأى روكسان واقفة
وحدها في مكانها فأنحنى بين يديها وحياها وقال لها : قد
جئتك اليوم ياسيدي مودعاً وربما كان الوداع الأخير ،
قالت أمسافر أنت ؟ قال نعم قد صدر الامر إلى الجيش
بالسفر إلى « أراس » بعد بضع ساعات لتخليصها من يد
العدو ويظهر لي أن نبأ سفري لم يؤثر عليك أقل تأثير ،
قالت لا تظن ذلك ياسيدي الكونت ، قال أما أنا فاني
حزين لفراقك حزنا شديداً ولا أدري ما الله صانع بي بعد
اليوم هل كتب لي في لوح مقاديره أن أراك مرة أخرى
أم هو الفراق الدائم الذي لاقاء من بعده ، وأطرق برأسه
حزينا مكتئباً ثم قال لها : وهل علمت أن الملك قد عهد إلى
أمس برآسة أركان حرب الجيش ؟ قالت ما كنت

أعلم ذلك من قبل ، وإنه لنجاح باهر ياسيدي الكونت
فله درك ، قال أى أننى أصبحت صاحب السلطان المطلق
على الجيش بأجمعه بعد القائد العام ، وفي استطاعتي أن أنتقم
لنفسى فى ميدان المعركة من جميع أعدائى وخصوصى خصوصاً
ذلك الرجل الوقح الجرىء ابن عمك سيرانو وأن أحاسبه
حساباً غير يسير على جرائمه وآثامه ، فدعرت روكسان
وخفق قلبها خفقاً شديداً لاخوفاً على سيرانو بل على
كرستيان لانها فهمت من كلامه أن فرقة شبان الحرس
ستسافر مع بقية فرق الجيش ، فقالت له أتذهب فرقة شبان
الحرس إلى الحرب ؟ قال نعم كما تسافر جميع الفرق ، فاصفر
وجهها وتحاذلت أعضاؤها ومدت يدها إلى المقعدة فاعتمدت
عليه وهى تقول بصوت خافت متهافت : آه يا كرتيان !
فمجب الكونت لامرأها وسألها ما بالها ؟ قالت ان هذا
السفر يحزننى جداً خصوصاً عند ما أتصور أن الشخص
الذى يهمنى أكثر من كل انسان فى العالم يخوض تلك

المعامع المهلكة التي يرفرف عليها طائر الموت ، ولا أعلم
هل أراه بعد اليوم أم هذا آخر العهد به ، فافتقر ثغره وتهلل
وجهه بشراً وحبوراً وخيل إليه انها انما تعنيه بكلامها وأنه
هو الشخص الذي يشغلها ويعنيها والذي تخشى عليه أن تُلَمَّ
به تلك الكارثة العظمى ، فقال لها ما كنت أعلم ياروكسان
قبل اليوم أنك تضميرين لى فى نفسك هذا الحب كله ،
فصمت لحظة ثم التفتت اليه وقالت : وهل أنت مصمم
على الانتقام من سيرانو ؟ قال نعم إلا إذا كنت تكرهين
ذلك ، قالت لا ، بل لا أريد غير ذلك ، قال هذا ما أعتقده ،
ثم قال ألا يزال هذا الرجل يختلف إلى منزلك حتى اليوم ؟
قالت لا ، إنه لا يزورني إلا نادراً جداً ، وليته لا يفعل ،
ولولا صلة القربى التي بيني وبينه ما أذنته بزيارتى ، قال قد
حدثوني عنه أنه منصرف فى هذه الايام إلى مرافقة جندى
نبيل من جنود الحرس الطارئين ، ويقولون انه لا يكاد يفارقه
ليله ولا نهاره ، قالت ومن هو هذا الجندى النبيل ؟ قال قد

نسيت اسمه الآن، وهو كما وصفوه لي فتى طويل القامة مشرق
الوجه أصفر الشعر تلوح على محياه مخائل العز والنعمة وتلمع
في صفحة وجهه بارقة خفيفة من الجمال ولكنه عيى بليد، ولا
أفهم حتى الآن ماهي الصلة التي بينهما، فصمتت رو كسان
صمتا طويلا ذهبت نفسها فيه كل مذهب، ثم التفتت إليه
بغثة وقالت له وهي تبسم ابتسامة غريبة لا يفهم معناها
إلا من فهم سريرة المرأة واضطلع بغير أئرها وسجاياها وقالت
له أظن ياسيدي الكونت أنك تكون قد انتقمت لنفسك
منه إذا عرّضته لنار الحرب التي يحبها ويعبدها ولا يقترح
على ذهره شيئا سوى أن يصطلي بها ويجوز غمارها؟
هذه هي المرة الأولى التي رأيتك فيها تنظر في أمر من
الامور نظر الغرارة والسداجة، قال آه لقد فاتني أن أتبه
إلى ذلك فما العمل؟ قالت عاقبه بحرمانه من أمنيته التي
يتمناها، فذلك أقتل له من القتل وأنكى له من الموت، فليسافر

الجيش بأجمعه وليتخلف هو وحده بل ليتخلف معه فرقته
جميعها ، فانها كما علمت مؤلفة من أشرار متمردين يذهبون
مذهبه في أخلاقه وطباعه ويساعدونه في كل جرائمه وآثامه ،
ولتكن حجتك في ذلك إن شئت ان باريس في حاجة إلى
فرقة من الجيش تتخلف فيها للدفاع عنها وقت الحاجة ،
وأناك قد اخترت لها هذه الفرقة للدفاع عنها ، وهكذا يموت
الرجل همًا وكمدًا وتمزق أحشاؤه غيظًا وحنقًا ويغرب نجم
شهرته غروبًا لا طلوع له من بعده ، فيصبح يطل الطرق
والشوارع ، لا يطل الحروب والمعامع

فابتهج الكونت ولعت أسارير وجهه ووضع يده على
كتفها وقال لها : لله درك ياسيدي ، لقد صدق من قال :
« لا يحسن الانتقام من الرجل مثل المرأة »

ثم حنا عليها وقال لها : إذن أنت تحبينني ياروكسان ،
فنظرت إليه نظرة باسممة متلاثلة وأطرقت برأسها ولم تقل
شيئًا ، ففسر ابتسامتها التفسير الذي أراده ، وابتسامته

المرأة لفظ مشترك يحتمل جميع المعاني وضروبها من الحب
القاتل إلى البغض العميق ، ثم قال لها : ذلك ما كنت أقدره
ياروكسان مذ عرفتك حتى اليوم فلم يخطئ ظني ، ثم أخرج
من جيبه كتباً مغلفة معنونة بعناوين فرق الجيش فأمر
نظره عليها إمراراً حتى عثر بكتاب فرقة شبان الحرس
ففصله عن بقية الكتب ووضعها في صدره وهو يقول
ما أشد دهائك ياروكسان وما أوسع حيلتك ! نعم إن مزاج
الرجل مزاج حربي متوقد فلا يقتله ولا يفت في عضده
ولا ياصق أنفه بالرغام غير حرمانه من ميدان الحرب
وتركه في شوارع باريس يتسكع فيها تسكع العاطلين
المتبلدين ، ثم نظر إليها باسمها وقال لها : أهدأ شأنك دائماً
ياروكسان أن تكيدى للناس أمثال هذه المكائد : فابتسمت
وقالت لا ، بل لا أفعل ذلك الا عند الضرورة

فأطرق برأسه وصمت صمتاً طويلاً وقد أخذت شفتاه
تحتاجان وترتجفان كأنما تحدثه نفسه بشيء يحاول أن يقوله

لها فلا يستطيعه ثم تشجع وقال : بقيت لي كلمة احب أن
أقولها لك ياسيدتي فهل تسمحين لي بها ؟ قالت قل ماتشاء
فانا مصغية إليك ، قال إنني أحببتك ياروكسان من عهد
بعيد كما تعلمين ، وكان كل أمل في حياتي أن أعيش
بجانبك عيش القانع بك عن جميع مُتَمَع الحياة ولذائدها
فالت بيني وبينك الحوائل التي تعلمينها ، وقد كنت
أظن اني سلوتك وغنيت عنك بغيرك ونفصت يدي
أبد الدهر منك ثم مالبت أن علمت أنني واهم فيما ظننت
وأن ذلك الداء القديم لايزال كامنا بين أحناء ضلوعي
فسمج في نظري وجه الحياة ومرّ في فني مذاقها وأصبحت
حائراً قلقاً لا يهدأ لي روع ولا يستقر بي مضجع ولا
أدرى حين أراك وأرى ابتساماتك اللامعة المضئية ونظراتك
العذبة الجميلة هل تضررين لي في قلبك من الحب مثل
مأضمر أو أنها المصانعة والمجاملة ومجازاة الود بالود والرجاء
بالتأميل ، ومازال هذا الشك يساورني ليلى ونهارى حتى

رأيت الآن بعيني تلك الرجفة الشديدة التي سرت في أعضائك
عند ما أنبأتك نبأ سفري فعلمت أنك تحبينني ، وما
كشفت أسرار الحب ولا هتك الستر عن مخائبه ومكامنه
مثل مواقف الوداع

وهائذا الآن على وشك السفر ولا أعلم هل هو
فراق وشيك أم هو السفر الدائم الذي لارجعة من بعده ،
فأسألك أن تزوديني بقليل من الزاد أستعين به على مشقة
السفر ووحشة الطريق ، حتى إذا دنت الساعة الأخيرة تمثلت
صورته في ذهني فهانت على آلام الموت ، فإن سمحت به
فأذني لي أن أتخلف الليلة عن السفر مع الجيش على أن
لا تطلع شمس الغد حتى أكون قد امتطيت جوادى
ولحقت به في المسكن الذي وصل إليه

فارتجفت روكان وقالت ولكن ماذا يقول الناس
إذا رأوا رئيس أركان حرب الجيش قد تخلف عن جيشه
وبقي في باريس لغرض من أغراضه الغرامية ؟

قال ذلك ما لم يفتنى النظر فيه والحيطة له ، يوجد
بالقرب من هذا المكان ديرٌ في شارع أورليان أسسه
رئيس الكابوشان الاب « أناس » وله قانون غريب يقضى
بأن لا يطاء أرضه أحد من الناس سوى رهبانه وقساوسته ،
وأنا وان لم أكن راهباً ولا قسيساً ولكننى صهر الكردينال
ريشليميه رئيس الكهنوت الأعظم ، ولا شك أن
الذين يخافونه ويخشون صولته لا يستطيعون أن يرفضوا
نزولى بديرهم بضع ساعات ، بل ليس فى استطاعتهم ان
أردت أن يمتنعوا عن أن يخبئوني تحت قلائسهم أو
فى ثنايا طياسهم أو فى فروج أكمامهم لانها واسعة جداً
لا تضيق بمثل ، وهائئذا ذاهب الآن الى ذلك الدير المقدس
لا كمن فيه بضع ساعات حتى اذا اتصف الليل لبست
قناعى وجئت متكرراً فى جنح الظلام فلا يشعر أحد
بمقدمى ولا منصرفى

فاستطير عقل روكرسان وجن جنونها ودهمها من
الامر ما لا تعرف وجه الحيلة فيه ولا طريق المخرج منه ،

ثم ما لبثت ان رجعت الى نفسها وملكت زمام عواطفها
وقالت له بهدوء وسكون : إن مجدك وعظمتك يامولاي
يأبيان عليك ذلك الأباء كله ، وابن استطعت أن تكاتم
الناس أمرك فانك لا تستطيع أن تكاتم نفسك أو تخادع
فيه ضميرك

إن فرنسا تطالبك بطرالعدو عن أرضها واستنقاذها من
يده القاهرة المسيطرة ، فليكن هذا هو كل ما تفكر فيه ، ولا
يشغلك عنه شاغل من شهوات نفسك ولذائذها ، ولا تسمح
لأحد من الناس أن يتحدث عنك ، لا بل لا تسمح
لنفسك أن تحاسبك على ليلة قضيتها لاهياً ناعماً في بيت
امرأة تجبها و « أراس » باكية حزينه تضطرب بين يدي
قاهرها اضطراب الحمامة الوديعه في مخالب الصقر الجارح ،
وتصرخ صرخات مؤلمات أنت أولى يامولاي من يسمعها
ويضطرب شعوره لها

سر ياسيدي على رأس جيشك ، وكن نجمة الذي

يهتدى به في ظلماته ، وملجأه الذى يأوى إليه في شدته ،
واعلم أنك لن تستطيع أن تنزل منزلة الحب والكرامة
في نفوس الذين يحبونك الا اذا كانت فرنسا أحب اليك
منهم ، بل من نفسك التى بين جنبيك

فاستخذى لكلماتها وتضعض وقال لها : اذن أنت
تحييننى ياروكسان ؟ قالت كيف لأحب من صميم فؤادى
من خفق قلبى خفقة الحزن والألم جزعاً لفراقه وإشفاقاً
على حياته ! فصاح واطرباه وافرحتاه ، سأنزل على حكمك
فى كل ماتريدين وسأسافر الساعة طوعاً لأمرك فاذ كربنى
دائماً ولا تنسينى ، قالت لا أستطيع أن أنساك قط ، فتناول
يدها وقبلها وانحنى بين يديها وانصرف

وكانت روجينا وصيفة روكسان محتبئة وراء سارية
الشرفة تسمع حديثهما وتفهم مغزاه ، فما أبعد الكوننت
إلا قليلا حتى برزت من مخبئها وهى تُعرب فى الضحك وتقول
ما أشد حزنى لحزنك ياسيديتى ! فضحكت روكسان

وقالت لها ا كتمى كل شيء عن سيرانو فانه لا يغتفر
لى ابد الدهر حرمانى اياه من الحرب ، فوارحمته له ، ثم
هتفت به فخرج من المنزل وهو يقول : ما أكثر الذين
محبونك ياروكسان ! قالت نعم ولكننى لأحب الا
واحداً منهم ، ثم قالت له قد دعيت الليلة الى هذا المنزل
وأشارت الى منزل كلومير المقابل لمنزلها لسماع المحاضرة
التي يلقيها « ألكاندر » عن الحب ^(١) فإذن لى بالذهاب

(١) كان من شأن الكثير من النساء المتعاملات الشريفات في فرنسا
في أوائل القرن السابع عشر أن يعقدن في منازلهن مجالس عامة
أدبية تجرى فيها المذاكرات العلمية والفنية وتلقى فيها المحاضرات .
وكانت تلك المجالس أو « الصالونات » كما كانوا يسمونها تضم بين
حواشيها رجال الفضل والادب ومشاهير الشعراء والكتاب من
عظماء فرنسا . وكانت المحادثات التي تدور فيها تغلب عليها صفة
التحذلق والتأنق والتظرف وهو أمر طبيعي في كل مجتمع يجمع
بين الرجال والنساء فنشأت مع الايام بين هؤلاء النساء لغة
خاصة في الاحاديث والمكاتبات منشؤها رغبة المتكلمات أو

وابق أنت هنا ، فاذا جاء كرستيان فقل له ينتظرنى حتى
أعود ، قال سأفعل ان شاء الله ، ولكنك لم تخبرينى كعادتك
فى أى موضوع من مواضيع الحب تحبين أن يتحدث
كرستيان الليلة اليك ؟ قالت لقد كان حديثنا بالأمس عن

الكاتبات فى إيجاد عبارات لبقة ظريفة تلفت النظر الى المعانى التى
يردن التعبير عنها أو بعبارة أخرى تلفت الرجال الى جماهن
ورقهن . ثم مازلن يفرقن فى ذلك حتى أصبحت تلك اللغة
موضوع سخريه الادباء والناقدين خصوصاً عند ما جاء دور الانحطاط
الاخلاقى وانتشار الفوضى فى الهيئات الاجتماعية وتقليد نساء
الطبقات الدنيا نساء الطبقات العليا فى شمائلهن وأساليهن وزعمهن
أن لهن الحق فى الاشراف على الادبيات فى فرنسا وتقددها
وتمحيصها . تلك الطائفة من النساء هى التى يصورها أو ينتقددها
« إدمون روستان » فى هذه الرواية كما انتقددها من قبله كثيرون
من الكتاب والروائيين ككولير وبوالو . ومع أن تلك اللغة
قد زالت وانقرضت ومرت عليها القرون فلا يزال باقياً منها حتى
اليوم بعض آثارها مثل « سميك الذكاء » و « ظلمة النفس »
و « قسوة الكلمات » و « الدستور المتواضع » وأمثال ذلك من
الكلمات الطائرة فى جو الخيال والسابحة فى بحر اللانهاية

« موقف الوداع » فليكن حديثنا الليلة عن « النظرة الاولى »
لا بل عن « الغيرة » لا بل عن « الأمل الضائع » لا بل
اتركه على سجيته لا تحدد له موضوعاً خاصاً حتى لا يستعد ،
فانى أريد أن أختبر بديته كما اختبرت رويته من قبل ،
فقل له يحدثنى عن « الحب » وكفى ، ثم حيته وانصرفت
وتبعتها وصيفتها

وكان كرستيان مقبلاً فى تلك اللحظة فسمع آخر كلماتها
فقال ما الرأى ياسيرانو ؟ قال عدُّ بنا إلى المنزل لماذا كرهت الدرس
الجديد وماهى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى نكون قد فرغنا
وعدنا قبل عودتها ، فصمت كرستيان هنيهة ثم رفع رأسه
وقال لا ، لا أريد الليلة دروساً ولا مذاكرة فانى أذوب
شوقاً لرؤيتها ، قال واكنك لا تعرف كيف تمادتها ،
قال دعنى وشأنى فقد شببتُ عن الطوق وتجاوزتُ تلك
السن التى يعجز فيها المرء عن أن ينطق إلا بما يلقنه إياه

أبواه وأظاره^(١)، قال إنك تخاطر بنفسك مخاطرة عظمى،
قال فليكن ما أراد الله فقد استجيت من نفسى لكثرة ما
مثلتُ من هذا الدور الشائن المعيب دور الآلة الموسيقية
التي يُوقَّع عليها ضاربها فتنبعث منها نغماتها المطربة دون
أن تشعر بنفسها وبما ينبعث منها، على أنى قد استفدت
من دروسك الماضية ما يسمح لى بمحادثتها ومذاكرتها
والإفاضة معها في كل شأن من الشؤون التي أريدها، وما
أنا بنفى إلى الدرجة التي تصورها فساداً كلها بنفسى وسأشرح
لها جميع عواطفى التي تحتلج في صدرى وما أحسبها تطالبنى
بأكثر من ذلك، قال وهل أنت على ثقة من نفسك؟
قال كيفما كان الامر فقد تجاوزت الصلة التي بينى وبينها
حدَّ الذرائع والوسائل الى الحب الخالص المتين الذي تعترف
معه الهفوات، وتستحيل فيه السيئات إلى حسنات، ولئن
عجزت عن أن أحدثها بلسانى فساداً أحدثها بلسان القبلات واللغات

(١) جمع ظنر وهي المرضع

وهنا سُمع صوت روكسان وهي خارجة من منزل
« كلومير » في جمع عظيم من النساء ، فقال سيرانولكرستيان
قد فات الأوان فائذن لي بالذهاب ، فدُعِر كركستيان
واستطير عقله وقال بل ابقَ معي يا صديقي ، قال لافقد
أصبحتَ غنياً بنفسك عني ، وتركه وانصرف

ولكنه لم يبعد إلا قليلاً حتى عاد متسللاً من حيث
لا يشعر به أحد واختبأ وراء حائط الحديقة يتسمع حديثهما

« الشُّرْفَة »

قالت روكسان لكرستيان وقد جلسا معاً على المقعد
الرخامي في وسط الساحة لم أدرك من المحاضرة الغرامية
التي أُلقيت في منزل « كلومير » إلا ختامها ، فلم أستفد
منها شيئاً فحدثني أنت عن الحب وأطلق لنفسك العنان
فيه ما شئت ، وهما هو الليل قد أظلنا بسكوته وهدوئه
وهاهي باريس قد آوت جميعها إلى مضجعها فتحدثت فاني

مصغية إليك ، فارتجف كرسيتيان ارتجاف الطالب
الضعيف في موقف الامتحان ولكنه لم ير له بدءاً من
أن يتكلم ، فانثى إليها وقال لها : أحبك ياروكسان ،
وصمت ، فقالت له : وأنا أحبك أيضاً يا كرسيتيان ، ثم ماذا ؟
فلم يفتح عليه بكلمة أخرى فعاد إلى نعمته الأولى وقال لها :
أحبك ياروكسان حباً جمّاً ، وسكت ، فقالت له هذا هو
النسيج فوشه وطرزه ، فازداد ارتباكه واضطرابه وقال :
آه ما أشدّ حبي لك ياروكسان ، قالت ما شككت في ذلك
قط ولكني أريد أن تقول لي كيف تحبني ؟ قال أحبك حباً
ما أحبه أحد من قبلي أحداً ، قالت صور لي عواطفك
وشعورك ، قال ليمتك تضمين لي في قلبك من الحب مثل
ما أضمر لك ، قالت إنك تقدم لي من اللبن مخيضه وأنا
لا أريد إلا زبدته ، قل لي كيف تحبني ؟ قال أحبك حباً
يمجز لساني عن التعبير عنه لانه فوق طاقتي ، قالت ولكنني
أريد أن تعبر لي عنه وأن تلمس بيدك أوتار قلبي وتملك عليّ

عواطف وشعوري ، قال آه لو استطعت أن أتم حبيدك الفضي
الجميل ، فجزعت وانحرفت عنه قليلا وقالت كرستيان !
إتاك قد جننت ، قال ما أشوقني إلى لثمة من فيك أبردُ بها
غليلي ، فهضت قائمة وقالت : إنك تضايقتني الليلة كثيرا
ياسيدي ! وأرادت الذهاب فأمسك بشوبها وقال عفوا
ياروكسان فان ذنبي عظيم ، وما زال يصرع عليها بنظراته
المنكسرة حتى هدأت وجلست ، فقال لها آه لو تعلمين
كم أحبك ، قالت أهذا كل ما عندك ! وأرادت النهوض
مرة أخرى ، فأمسك بيدها وقد طار صوابه والثبات عليه
أمره وظل يقول لها ، لا ، لا تغضبي ياروكسان فاني لا أحبك ،
فضحكت وقالت له : ذلك خير لي ، فانتبه إلى هفوته
وقال : لا تصدق ما قلت لك فاني أردت أن أقول لك إنني
لا أحبك فقط بل أعبدك وأدين بك ، فتململت وقالت :
لقد ضاق صدري ، قال أعترف لك بأني قد أصبحت بليدا
لا أفهم شيئا ، قالت ذلك ما يحزنني كثيرا ، فالبلادة عندي

والدمامة سواء ، فاذهب الآن واجمع شتات ذهنك ثم عد إلى
الليلة الآتية ، ونهضت قائمة فتشبت بها وقال انتظري قليلا
فانى سأقول لك شيئا جميلا ، انتظري ياروكسان فانى
أريد أن أقول لك . . . فقاطعته وقالت تريد أن تقول لى
إنك تحبني وتعبدني وتموت وجدابي ، فلقد عرفت ذلك
كله ولا أريد ان اسمع منه شيئا ، فاذهب لشأنك فقد
ضقت بك ذرما

ثم تركته ودخلت المنزل فجئن جنونه وظل واقفا
مكانه يتحرق ويتغيظ ويقول آه ذلك ما كنت أخافه ، أين
أنت ياسيرانو؟ فإثم كلمته حتى رأى سيرانو مقبلا عليه
يبتمس ابتسامه المهكم ويقول له : أهنتك بالنجاح العظيم
الذى أحرزته يا كرستيان ، فانتفض وقال أنت هنا؟ ثم
تراهى بين ذراعيه وقال الرحمة يا صديقي فانى أكاد أموت
غما ، قال وما الحيلة بعد الذى كان ، لقد انقضى كل شيء فلا
سبيل إلى الرجوع ، قال إن لم ترلى الساعة رأياقتلت نفسى ،

إنني لأستطيع أن أنصرف من هنا وهي واجدة على، فارحني
واتخذها عندي يداً لأنساها لك مدى الدهر، فصمت
سيرانو وهو يعالج في نفسه الماء مُضاً لا تستشف مكانه
من أعماق قلبه غير عين واحدة وهي عين الله تعالى، ثم قال
له هاهو الظلام حالك لا يلمع فيه نجم، وهاهي الطريق
مقفرة لا يطررها طارق، فاستمع لما أتى عليك، فاستطير
كرستيان فرحا وتناول يده فقبلها وقال آه ياسيدي بخيل
إلى أنك قد رأيت لي رأياً، قال نعم إن ائتمرت بما أمرك
به، قال ما عصيت لك أمراً قبل اليوم، قال قف هنا أمام
الشرفة وسأقف أنا من تحتها على قيد خطوة منك من
حيث تراك روكسان ولا تراني ثم نادها، فاذا أشرفت
عليك فسألقنك همساً ما يجب أن تقوله لها

وانهما لكذلك إذ أقبل الغلامان الموسيقيان اللذان
كان أرسلهما سيرانو لازعاج مونفلوري في مرقدده فقال

لها أفعلتما ما أمرتكما به ؟ قالوا نعم ، مازلنا نضرب اللحن
المضطرب المشوش زمنا طويلا حتى طاش عقله ووجن جنونه
فأطل من النافذة وظل يشتمنا ويسبنا ويستعدي رجال الشرطة
علينا حتى انصرفنا ، قال أحسنتما فارجما الآن وقفا على رأس
هذا الشارع وليكن كل منكما وراء سارية من سواربه وارقبنا
الطريق فاذا رأيتما سوداً مقبلاً فاضربا لحناً قصيراً ، فقالا
له أى نوع من الالحان تريد أن نضرب ؟ قال اضربا لحناً
مخزناً إن كان القدام رجلاً ، ومفرحاً إن كان امرأة ، فعاد
الغلامان أدراجهما ووقفا حيث أمرهما ، ودفع سيرانو
كرستيان وأقامه أمام الشرفة ووقف هو من تحتها على
مقربة منه وقال له نادها واخفض صوتك ما استطعت ،
فأجبه كرستيان إلى النافذة ونادى : روكسان ! روكسان !
فما لبثت أن فتحت الباب الموصل إلى الشرفة وخرجت
إليها وقالت من يناديني ؟ قال أنا ، قالت ومن « أنا » ؟ قال
كرستيان ، قالت ماذا تريد ؟ قال أريد أن أكلمك ،



روکسان فی شرفها تقول من ینادینی ؟

قالت ذلك مستحيل لأنك لا تحسن الكلام ، قال أضرع
إليك ، قالت إنك لا تحبني ، ولو كان في قلبك ذرة واحدة
من الحب لأحسنت الكلام فيه ، قال « وسيرانو يلقنه »
يا لله ! إنها تهمني بأني قد سلوتها في الساعة التي أجمع فيها
كأس الموت وجداً بها ، وكانت قد همت بالدخول فاستوقفتها
هذه الكلمة وقالت وكيف تحبني ؟ قال قد اتخذ طفلاً الحب
من نفسى الجائشة المضطربة أرجوحةً لينة يلهو فيها ويلعب
وينمو ويترعز حتى إذا شب وأيفع وبلغ أشده عقها
وغدر بها وجازاها شرّ الجزاء على صنيعها وقسا عليها القسوة
التي يقسوها الطفل على عصفوره الضعيف المسكين ،
فأصغت إليه وشعرت أن في حديثه روحاً جديدة لم تكن
فيه من قبل فقالت له : ولم لم تخنقه في مهده قبل أن يشب
ويترعز ؟ قال ما كنت أستطيع ذلك لانه ولد جباراً قوياً
متنمراً حتى انه استطاع وهو لا يزال يلعب في أرجوحته
أن يصارع شيطان الكبرياء حتى صرعه وألقاه جثة

هامدة بين يديه ، فاتكأت روكسان على حافة شرفتها وقد
أطربتها هذه النعمة الجديدة وقالت : ما أشدّ سواد هذا
الظلام ، إنني لا أتبين موقفك جيداً يا كرستيان ،
ولكنني أشعر أن كلامك ينير لي مكانك فتكلم فانك
تطربني كثيراً ، ولكن مالي أرى نعمة حديثك تصدر
عك متقطعة كأنما قد أصبت بالنقرس في مخيلتك ، وكان
عهدي بك قبل الآن طلق اللسان متدفقاً كالسيل المنهمر ،
فدع سيرانو وخاف أن ينكشف الامر فحذب كرستيان
إلى ماتحت الشرفة ووقف هو في مكانه وانثنى إليه
وأسر في أذنه : قد أصبح الموقف حرجاً جداً فاصمت أنت
وسأتكلم أنا عنك بصوت يشبه صوتك ، ثم أنشأ يجيب
روكسان على سؤالها مقلداً صوت كرستيان ويقول :
ذلك لان كلماتي تتخبط في هذا الظلام الحالك أثناء صعودها
باحثة عن أذنك الصغيرة جداً فلا يستقيم مسيرها ، قالت ولم
لا تضرب كلماتي في هبوطها اضطراباً كلماتي في عروجهما ،

قال لأنها تنحدر إلى قلبي مباشرة ، وقلبي رحب واسع
فلا تفضل طريقها ، على أن كلمتي صاعدة وكلماتك منحدره
والنزول أسهل من الصعود ، قالت ما أبدع هذا المعنى !
ويخيل إلى الآن ان كلماتك قد انتظم مسيرها فانها
تصل إلى أذني بأسرع من ذى قبل ، قال ذلك لانها ألفت
هذه الحركة وخذقنها ^(١) ، فصممت لحظة ثم دارت بعينها
في الفضاء وقالت حقيقة اني أتكلم من علو شاهق ، قال
اذن فاحترسى ، فان كلمة واحدة قاسية تلقينها على من موقفك
هذا كافية لقتلي ، فاستضحكت وقالت لا تخف يا كرستيان
فاني آتية إليك لاحدئك وجهاً لوجه ، قال لا تفعل ، بل
ابقي في مكانك ، قالت لماذا ؟ قال لان هذا الموقف
جميل جداً يعجبني ويطربني ، فلننتحدث كما نحن كأننا روحان

(١) يصور المؤلف في هذه المحاوره تشدق نساء ذلك العصر
وتخذلقهن في أحاديثهن وحوارهن وتمسكهن بهذا النوع من
الكلام المتكلف المتعمل الذي قصت عليه الاساليب الحديثة
فيما بعد

هأمتان في أجواز الفضاء تفتش كل منهما عن صاحبها
فلا تكاد تعثر بها ، دعينا نتحدث كما نحن وبيننا هذا الموج
المتلاطم من الدُّجينة الحالكَة ، لا ترين مني إلا سواد معطفي
المسبل على ولا أرى منك إلا بياض ثوبك الصيفي الجميل ،
فأنت تمثلين الكوكب الساطع في سمائه ، وأنا أمثل
الظلام المخيم على سطح الغبراء

ان لهذا الموقف الشعري الجميل في هذه الساعة الساكنة
من الليل أعظم الفضل في صفاء ذهني وانتعاش نفسي
ويقظة قلبي وانطلاق لساني من حبسته وجوده ، فكوني
كما أنت ، ولا أكن كما أنا ، لا تشعرين مني بغير خفقان
قلبي ، ولا أشعر منك بغير أشعة جمالك ، أناجيك كأنني
أناجى الله في علياء سمائه ، وتصغين الى نجائي أصغاء
الملائكة الابرار إلى أنات البائسين وزقراتهم على
ظهر الارض

وكان قد غلبه الموقف على أمره واستلهاه حسنه



مناجاة سیرانو لوكسان بنغمة كرتیان

وجماله واستغرق شعوره ووجدانه ففسى انه يتكلم بلسان
غيره فأطلق لنفسه عنانها وأصبح يتحدثها بنعمة غريبة لاهى
نعمته ولاهى نعمة كرستيان ، بل نعمة النفس الواهية المعذبة
المتألمة ، فنالت من نفسها ما لا عظيمًا وقالت له إنك تحدثني الآن
يا كرستيان بلهجة غير لهجتك الأولى ، حتى ليخيل إلى أنك
قد تبدلت من نفسك نفساً أخرى غيرها ، قال نعم لأن
كلامي قبل الآن لم يكن صادراً من أعماق قلبي لأننى إنما
كنت أحدثك بلسان . . . وكان يريد أن يقول
« كرستيان » فاستدرك هفوته وقال : بلسان الدهشة والحيرة
والاضطراب الذى يُلمُّ بكل من يجرؤ على أن يقف
موقفي هذا بين يديك ، أما الآن فنفسى هادئة وجأشى
ساكن وروحي مطمئنة حتى ليخيل إلى أننى أناجيك
للمرة الأولى فى حياتى ، قالت صدقت ويخيل إلى أنا
أيضاً أنك تتكلم بصوت غير صوتك الاول ، قال نعم لأننى

استطعت في هذا السكون السائد والظلام الحالك الذي
يحجبني عن العيون أن أكون أنا نفسي وأن أناجيك من
طريق لا من طريق . . . وأراد أن يقول « غيري » ف شعر
بهفته وحاول أن يصلحها فلم يستطع فتعلمم وتلجج
ف قالت له طريق مَنْ ؟ قال عفواً ياروكسان إن شرد لي
واضطرب جناني بين يديك فقد سحرني وملك على عقلي
هذا الموقف الجديد الذي لم أفته مرة في حياتي ، فمجبت
لامره وقالت : جديد ؟ قال نعم جديد ، لانه أول موقف
استطعت فيه أن أكون صريحاً في كلامي ، حرأفي أفكارى ،
جريئاً في حديثي ، أُطلق العنان لنفسي فتهيم وتنبعث
حيث تشاء ، لا يحول بينها وبين الغاية التي تريدها حائل ،
قالت وهل لم يكن ذلك شأنك من قبل ؟ قال لا ، لان
خوفي من هزئك بي وسخريتك كان يزعجني جداً ويملاً
قلبي رعباً وخوفاً ، فدهشت وقالت : سخريتي ؟ ولماذا ؟
قال تسخرين من تطرفي واندفاعي وتبسطي في الافضاء

بمكونات نفسي ، فقد كان قلبي دائماً متسر بلا بسربال عقلي
والعقلُ سربال ضاغط لا يطيقه القلب ، وكنت كلما هممت
أن أترك السبيل لعواطفى أن تفيض وتنساب حيث تشاء
أدركنى الحياء والخجل فتلوّمت واحتشمت ووقفت دون
الغاية التى أريدها ، ولا ألبث أن أتطلع إلى الكوكب النائى
فى سمائه وأخطو الخطوات الاولى اليه لتناوله واستنزاله من
فلكه حتى أشعر بالخجل من نفسى فأعود أدراجى قانماً
من حظى بزهرة صغيرة أجدها فى طريق من زهرات حديقة
السماء فأقتطفها ، قالت ان الزهرة جميلة أحياناً ، قال ولكنى
لأأريدها الليلة ولا أقنع بها ، قالت إنك ما كلمنى قط يا كرسيمان
بمثل هذه اللهجة البسيطة التى تكلمنى بها الآن ، قال نعم ،
وليتنا نستطيع دائماً أن نحتقر فى مواقف الحب توافه
الاشياء وحقالاتها وأن نترك التأثّق والتجمل فى صلواتنا
وعلائقنا ونطلق العنان لانفسنا لتعبر عن مشاعرنا وعواطفها
بالصورة التى تريدها بدلاً من أن نقيدها بتلك القيود الثقيلة

التي نجسها في محبس ضيق لاسبيل لها إلى التفلت منه
فلنطرح بعيداً عنا هذه الكاس الذهبية الصغيرة التي
تتعاطى بها شرابنا قطرة قطرة فلا نكاد نشعر بلذة ما نتعاطاه،
ولنندفع معاً إلى ذلك الغدير المترع المتدفق فنجثو على صفته
ونكرع من مائه العذب حتى نرتوى

« البلاغة »

قالت ولكنني أحب البلاغة يا كرستيان، قال إني أُجل
هذا الليل الساكن الهادي وهذا الموقف الجليل المهيب
وهذه النفحات العطرية المترقرة وهذه القبة الجوفاء المرصعة
بمصاييحها اللامعة أن أهينها بهذا الشيء الذي يسمونه
البلاغة، أو أن يكون حديثي معك بتلك اللغة التي يتفكك
بها العشاق الكاذبون في رسائلهم الغرامية، فلنتحدث
بما توحيه إلينا ضمائرنا، لا بما توحيه إلينا دواوين الشعراء
ورسائل الكتّاب، ولنهدم تلك الحواجز المادية القائمة

بين نفسينا حتى تتلامسا وتماسا وتستجيلا إلى نفس
واحدة، فاني أخشى إن نحن ظللنا نشتغل زمنًا طويلًا بهذه
التجارب الكيائية أن تتبخر عواطفنا وتلاشى في
أجواز الفضاء، وان يكون فيما نظنه كل شيء القضاء على
كل شيء

قالت ولكن البلاغة جميلة جداً، قال وأنا أكرها في
الحب، وأرى أن من أكبر الجرائم وأفظعها أن نشتغل عن
أنفسنا ومطامح آمالنا ومسارح عواطفنا بإدارة هذه المعركة
اللفظية التي لا طائل تحتها، وان تكون تلك المحاولات التي
لا فائدة منها هي غاية مقصدنا من الحب ومنتهى أملنا منه
والثمرة الأخيرة التي نجنيها من حياتنا

إننا ما اجتمعنا هنا لنترى كيف نتحدث، بل لنتحدث
ونتناجى، وما وقفنا هذا الموقف الجليل المهيب بين أحضان
هذه الطبيعة الحلوة العذبة لنشتغل بتهديب اللغة وابتكار
الاساليب واختراع المعاني، ولا ليقول كل منا لصاحبه

ما أبلغك ، وما أسمى خيالك ، وما أبدع تصوراتك
وأفكارك ، ولالتدريس البلاغة وأصولها وقوانينها ، ولا
لنتجدي الشعراء والكتاب في أساليبهم ومناهجهم ، بل
ليسكب كل منا نفسه في نفس صاحبه فإذا هما نفس
واحدة تشعران بشعور واحد ، وتحسنان إحساساً واحداً ،
حتى لو استطعنا أن نصل الى هذه الغاية ونحس سكوت
لا نتكلم ولا ننبس بحرف واحد فعلنا

هذه هي البلاغة وهذه هي حقيقةها ، أما الاغراق في
التخيل والمبالغة في الوصف وخلق الصور والاساليب
التي لا وجود لها في الخارج ولا أساس لها في الذهن
وابتكار المعاني الغريبة التي تنبعث شرارتها من شعلة الذكاء
ولا تتفجر من ينبوع القلب فهي وان كانت جميلةً محبوبة
تستلهي الخاطر وتستوقف الناظر ولكنها ليست من
البلاغة في شيء

نريد أن نترك السبيل لنفسينا أن تتحدثا وتتناجيا

كما شاءتا وأن لا ننقص عليهما نجواهما وسمرها بهذه
الضوضاء اللفظية التي نثيرها من حولهما

نريد أن نفارق هذا العالم المملوء بالأكاذيب والباطيل،
والصور والتهاويل، إلى أفق طاهرٍ نقيٍّ، صافٍ متفرق،
نتكاشف فيه ونترآى، ويتحدث كل منا إلى صاحبه بلغة
تشبه في جمالها وحسنها، وبساطتها وطهارتها، ورقتها
وعذوبتها، ذلك الأفق الجميل الذي نسبح فيه ونطير في
أجوائه، فيكون مثلنا مثل الكوكبين الهامين في أجواز
الفضاء يتحدان بلسان الضوء ويتناحيان بلغة الأثير

قالت وماذا تقول لي لو أردت أن تحدثني بتلك اللغة؟
قال ألقى إليك بكل ما يخطر ببالى من الكلمات مبعثراً غير
منتظماً ولا مرتباً، كما تتناثر أوراق الزهر عن أغصانها
فأقول لك مثلاً:

أحبك ياروكسان حب العابد معبوده، لا أستطيع
أن أصبر عنك لحظة واحدة، أصبحت على وشك الجنون

بك وربما أكون قد جننت من حيث لأدرى ، كأن قلبي
معبود وكان اسمك ناقوسه فاذا وقع نظري عليك ارتعدت
وارتجفت فرن اسمك في قلبي رنين الناقوس في المعبد ، قد
احتملتُ فيك فوق ما يستطيع أن يحتمله بشر فما شكوتُ
ولا تأملت ، أحبيت فيك كل شيء وأحبيت من أجلك كل
شيء ، أحبيت فيك حتى كبرياءك ، وأحبيت من أجلك
حتى شقائي ، يُخَيَّلُ إلى أن الشمس على جدار قصرك أجمل
منها على جدران القصور الأخرى ، وأن الروض الذي
تخطر في فيه أبداع رياض الدنيا والآخرة ، لا أستطيع أن
أنساك أو أنسى حالة من حالاتك أو حركة من حركاتك
مهما طال عليها الزمن ، رأيتك صباح الأحد الماضي وأنت
خارجة من بيتك وقد غيرت نظام شعرك الذي أعرفه لك
فأصبح لامعاً متألّقاً يدور بوجهك دورة الهالة بالقمر
فبهرتني هذا المنظر وارتسم في شبكة عيني فأصبحت أراه
في كل ما يقع عليه نظري من المنظورات كما يرى الناظرُ

إلى ضوء الشمس هالةً بيضاء في كل ما يتناوله بصره من
الأشياء، وسمعتك منذ أيام تضحكين فما غرد طائر على
فنز ولا رنت قطرات الغيث على صفحات الماء ولا مرت
النسائم بين خمائل الأشياء الا خيل إلى أنني أسمع رنين
تلك الضحكة في كل ما أسمع من هذه الألحان

وهنا اضطربت روكسان واشتد خفوق قلبها وقالت

بصوت خافت متهرج « نعم هذا هو الحب »

قال نعم هو الحب الذي غالب قلبي حتى غلبه واتخذته

أسيراً عنده، وهو حب شرس غيور يتوقد حدةً وحرارةً،

وإنه على ذلك متواضع بسيط خال من الاثرة وحب النفس

إنني لا أستطيع أن أخلص لنفسي ياروكسان كما أخلص

لك، انني في سبيل هنائك أجود بهنائي كله وان لم تشعرى

بذلك، حسبي من الدنيا أن أسمع من بعيد رنين ضحكاتك

فأعلم أنك سعيدةٌ مغتبطةٌ وان ماضيت به لك من

سعادتي وهنائى كان هو السبب فى هناء عيشك وراحة
نفسك ، كل نظرة من نظراتك تثير فى فضيلة جديدة
كانت كامنة بين أطواء قلبى لأهتدى الى مكانها وتبت
فى نفسى خالق الشجاعة والاقدام ، مم أخاف إن كنت
راضية عنى ، وبم أعتبط إن كنت ساخطة على ، وهل الدنيا
شئ سواك فى إقبالها وإدبارها ؟

قلت ما أعذب كلامك يا كرستيان : إن قلبى يخفق
لها خفقاناً شديداً

قال أرايت الآن كيف أن الكلمات الصادرة من
القلب بلا تكلف ولا تصنع لا يستطيع حائل أن يحول
بينها وبين قلب سامعها ، ألا تلمسين بيدك نفسى الخزينة
وهى صاعدة اليك فى هذا الظلام الحالك ، ألا تسمعين خفقان
قلبي وهو يرنّ فى جوف هذا الليل البهيم ، آه ما أحلى هذه
الساعة وما أجملها ، إنها الساعة الوحيدة التى ذقت فيها حلاوة
السمر والمناجاة ، ما كنت أصدق أن أقف يوماً من الأيام هذا

الموقف العظيم بين يديك ، أتكلم وتسمعين ، وأبشك ما في
نفسى وتنصتين ، لم يبق لى من أرب فى الحياة بعد اليوم
فليأت الموت إلى فقد بلغت جميع أمانى وأمالى ، هاهى
يدك ترجف الآن من تأثير كلماتى كما ترجف الورقة
الخضراء بين الالسام المتناوكة ، ولقد نمّ عليك غصن
الياسمين الذى تمسكين فقد مشت فيه تلك الرجفة حتى
وصلت إلى يدي ، ثم انحنى على طرف الغصن الذى فى يده
فلشمه فى صمت وسكون

فقال رويسان : نعم انى أرتجف وأبكى ، وما بلغ
امرؤ منى فى حياته ما بلغت منى ، ولقد سحرني حديثك
وملك على لى حتى أصبحت أشعر أنى قد أصبحت ملك
يدك وأن لاشأن لى فى أمر نفسى

قال فليأت الموت إلى إذا فقد بلغت من حياتى ما كنت
أرجو وأتمنى ، وليهنى أنى أنا الذى قدمت اليك بيدي تلك
الكأس التى أسكرتك وأخذت بلبك فلم يبق لى مما أتمناه
غير شىء واحد ، قالت ماهو ؟

وهنا نطق كرستيان وهو في مكانة تحت الشرفة بعد هذا
الصمت الطويل وقال « قبلة » فذعر سيرانو وقال له بصوت
خافت : لقد تسرعت في الطلب ، قال لا ، انها الآن ذاهلة
مسحورة فلا تنهز هذه الفرصة التي لاتواتيني في كل
حين ، فقالت رو كسان ماذا قلت ؟ فقال كرستيان « أريد
قبلة » فوكزه سيرانو برجله وقال اسكت يا كرستيان :
فسمعت رو كسان كلمته فقالت له مع من تتحدث ؟ وهل
كرستيان شخص سواك ؟ قال أتحدث مع نفسي ، فقد
ندمت على تطرفي واندفاعي في هذا المقترح الذي اقترحتة
وقلت لنفسي اسكت يا كرستيان فحسبك منها انها أصغت
إليك وسمعت صوت قلبك وأذرفت من أجلك دمة من
دموعها الغائبة فلا تطمع فيما وراء ذلك

وهنا رن صوت قيثارتى الغلامين من بعد فقال سيرانو
ادخلي الآن يارو كسان فاني أسمع صوت قادم ثم عودى إلى بعد
قليل ، فدخلت رو كسان غرفتها وأقفلت باب نافذتها وأصغى

سيرانو إلى الصوت فسمع في آن واحد الحنين مختلفين ،
لحنا مفرحا وآخر محزنا ، فقال : يا للعجب ! إن القادم ليس
برجل ولا امرأة ، فلا بد أن يكون قسيساً ، وما أتم كلمته
حتى أقبل قسيس شيخ وبيده مصباح ضئيل وجعل يمر
بأبواب المنازل باباً باباً ويدنى مصباحه منها ليتبينها كأنه
يفتش عن منزل يقصده ، فتقدم نحو سيرانو وقال له إنك
تعيد لنا أيها الشيخ عهد ديوجين^(١) فهل تفتش عن الرجل ؟
قال لا بل عن المرأة ، إني أفتش عن منزل السيدة
مادلين روبان الشهيرة بروكسان ، فانبرى له كرستيان وهو
يقول في نفسه إن الرجل يضايقنا في مثل هذه الساعة
ولما ننته من أمر القبلة ، وأمسك بيده وأشار له إلى
جهة بعيدة وقال له : هناك أيها الشيخ هناك ، فسر أمامك
لا تعطف يمنة ولا يسرة حتى تجد المنزل الذي تريده ، فشكر

(١) هو الفيلسوف اليوناني المشهور وكان يحمل في يده مصباحاً
ليه ونهاره فسأله بعض الناس مرة عم يفتش فقال افتش عن الرجل

له الشيخ فضله وعاد أدراجه ، فقال كرستيان لسيرانو
لا أستطيع أن أبرح هذا المكان حتى أنال القبلة التي أريدها،
قال لا تعجل يا صديقي فستوافيكما سريماً تلك اللحظة
السحرية العجيبة لحظة الذهول والاستغراق التي تشملان فيها
بخمرة الحب وتذهلان فيها عن نفسيكما ، فاذا شفتما كما ذهبتان
وحدهما كل منهما إلى صاحبها حتى تتلامسا ، وصمت لحظة
ثم قال في نفسه مادامت تلك اللحظة آتية لا ريب فيها خير
لي أن أكون صاحب الفضل فيها ، ثم قال له نادها يا كرستيان
فستنال منها القبلة التي تريدها ، فنادها ففتحت النافذة
وخرجت إلى الشرفة وهي تقول أباق أنت يا كرستيان
حتى الآن ؟ فقال سيرانو لقد جاء الساعة هنا كاهن شيخ
يسأل عن منزلك فلم تعجبني زيارته في مثل هذا الوقت فاضلته
عن الطريق ، وأظن أن في يده كتاباً ، فدعرت روكان
واضطربت مخافة أن يكون الكونت دي جيش قد أخلف
وعده وتحلف عن السفر واختبأ في الدير وأن يكون

هذا الكاهن رسوله ، ولكنها ما لبثت أن سرت عن نفسها
وأنساها موقف الغرام كل شيء عداه وقالت أظن أننا
كنا نتكلم عن . . . وتلثم لسانها فقال سيرانو عن القبلة ،
ومالك لا تجسرين على النطق بها كأنها تحرق شفقتك ، فإذا
كان هذا شأنك مع لفظها ، فكيف يكون شأنك مع
معناها ، تجلدى ياروكسان ولا تجزعي فلقد تحولت منذهنهة
من الدعابة إلى الاضطراب ومنه الى الخلفان ومنه إلى التهنيد
ومنه إلى البكاء ، وليس بين الدموع والقبلة إلا رجفة

« القبلة »

فارتعدت روكسان وقالت لا أمنحك إياها حتى تصفها لي ،
قال هي الميثاق الذي يعطى عن قرب ، والوعد الصادق
الذي لا ريبه فيه ، والاعتراف بالحقيقة الواقعة ، والنقطة
المرقومة تحت باء الحب ، والسر العميق الذي يصل إلى
القلب من طريق الفم ، واللحظة الأبدية التي يقصر زمنها



سيرانو يدفع كرسيه الى الشرفه ليتناول القبلة

وتدوم حلاوتها ، واتفاق الخاطرين على معنى واحد ،
والطريق المختصر لاستنشاق رائحة القلب ، وتذوق طعم
النفس على الشفاه ، لها دوى النحل في صوتها ، ومذاق
العسل في حلاوتها ، وعبير الازهار في رائحتها

فاضطربت روكرسان وقالت حسبك يا كرستيان ،
فقال إن القبلة شريفة ياسيدي حتى أن ملكة فرنسا لم
تبخل بها على نبيل من نبلاء الانكليز ، وكلاهما شريف
وعظيم ، قالت اسكت ولا تزد ، قال أنت الملكة التي
أعبدها وأدين لها أكثر مما دانت فرنسا ملكتها ، وأنا
اللورد بوكانجهام في صدقه واخلاصه وأمه وحزنه ، قالت
وفي جماله أيضاً ، فانتفض سيرانو وشعر بوخزة الألم في
قلبه وقال : نعم وفي جماله ، ولقد كنت لذلك ناسياً ، فقالت له
اصعد أيها السعيد المجدود لاقتطاف تلك الزهرة التي لانظير
لها ، فأخذ سيرانو بيد كرستيان وقال له بصوت خافت

إصعد وتناول القبلة التي تريدها ، فحين وتلكاً وقال ما أشد
خجلى وحيائى ، قال اصعد أيها الحيوان وتناول القبلة التي
لايستحقها منك غير شفتيك الورديتين ، ثم دفعه بيده
ففسلق أغصان الياسمين حتى بلغ مكان رويسان على الشرفة
فالقت رأسها الجميل على عاتقه فاحتضنها إليه ورسم على
شفتيها تلك القبلة التي لها دوى النحل في صوتها ، ومذاق العسل
في حلاوتها ، وعبير الازهار في رائحتها ، وسيرانو واضع يده
على قلبه يتلوى في مكانه تلوى الملسوع ويتأوه آهات خفيات
مضمرات ، ولكنه ما لبث أن ارعوى وتجمّل ولجأ إلى
سلوته التي اعتاد أن يلجأ إليها كلما عظمت آلامه وهوموه
وأخذ يعزى نفسه ويقول

ياما دُبة الحب العظيمة التي أنا صاحبها ومحبيها ! هنيئاً
للذين يذوقون طعامك ، ويتناولون ثمارك ، ويرتشفون
كؤوسك ، أما أنا فحسبي منك هذا الفتات الذى يتناثر
على من مائدتك ، فإن رويسان لا تقبل شفتي كرستيان ،

بل تقبل عليهما كلماتي التي أقيمتها في أذنها وسحرت بها
وهنا رن صوت قيثارتى الغلامين بلحنين مختلفين ، لحن
مفرح وآخر محزن فسألت روكسان ما هذا ؟ فقال لها
كرستيان لعله سيرانو يتمشى في الطريق مع غلاميه
الموسيقيين ، فانفتل سيرانو من تحت الشرفة إلى موقف
الغلامين فحدثهما قليلا ثم أشار إليهما بالانصراف ومشى يترنح
في مشيته كأنه شارب ثمل ويتغنى ببعض الألحان كأنه قادم
الساعة فما وقع نظره على كرستيان حتى تظاهر بالدهشة
وقال له : أباق أنت هنا يا كرستيان حتى الآن ؟ قال له
بصوت عال تسمعه روكسان ، نعم أحدث روكسان وتحدثني ،
والى أين أنت ذاهب ؟ قال لقد مللت هذين الغلامين
وسئمت ألحانهما وتعبت من طول المسير فعزمت على الرواح
إلى المنزل ، فأشرفت عليه روكسان عند ما سمعت صوته
وقالت له انتظرني يا سيرانو فاني قادمة إليك ، وأقفلت باب
الشرفة ، وفي هذه اللحظة أقبل الكاهن بمصباحه وهو

يحدث نفسه ويقول : ما زلت على رأي الأول فان المنزل
هنا في هذا الميدان

وهنا ظهرت روكسان على عتبة بابها يتبعها كرسيتيان
وراجنو فلما رأت الكاهن ذعرت واضطربت فتقدم
نحوها وحياها ومدَّ يده اليها بكتاب فقالت له ما هذا ؟ قال
كتاب بعثني به إليك السيد الصالح التقي الكونت
دى جيش صهر سيدنا ومولانا صاحب القداسة الكردينال
دى ريشليميه من دير القديس « أناناس » ولا بد أن يكون
مشتملا على غرض من الاغراض الشريفة المقدسة أو مكرمة
من المسكارم العليا فاقرئيه ، فتناولته وقرأت فيه على مصباح
راجنو وهي صامته هذه الكلمات :

سيدتى

الطبول تدق ، وقد أعد الجيش عدته للرحيل ،
والجميع يظنون أنى فى مقدمته ، ولكننى تخلفت وعصيت
أمرك لأننى لم أستطع السفر دون أن أتزود منك بذلك

الزاد القليل الذي سألتك إياه ، فاعتفر لي ذنبي فاني ما
أذنبت إلا في سبيلك ، وهائذا قادم اليك بعد قليل
فهدي لي سبيل زيارتك ، إن ثغرك قد ابتسم لي اليوم
ابتساماً جميلاً ، ولا أحب أن أفارقك قبل أن أراه مرة
أخرى يبتسم لي تلك الابتسامة البديعة المؤثرة

وقد بعثت إليك بكتابي هذا مع قسيس أبله لا يفهم
من شؤون الحياة شيئاً سوى إقامة الصلوات وتعزية المحتضرين
ومباركة المتزوجين ، فلا يعنيك من أمره شيء

دى جيش

وهنا برقت عيناها ببارق غريب والتفتت الى الكاهن
وقالت له اسمع ياأبت نص الكتاب فهو بمثابة أمر صادر
اليك ، وأخذت تقرأ بصوت عال مالا وجود له الا في
تخيلتها وتقول :

سيدتي

يجب عليك اطاعة أمر قداسة الكردينال ، وهو

يأمرك أن تزوجي الليلة سرّاً من البارون كرستيان
 دي نوفييت ، وأنا وإن كنت أعلم أنك غير راضية عن
 هذا الزواج وأنت لا تحبين هذا الفتى ولا تجدين في نفسك
 ارتياحاً لمعاشرته فاني أرى لك أن تخضعي لأمر الكاهن
 الأعظم وتدعي لرغبته ، فالخير كل الخير فيما يراه ويشير
 به ، فاصبري على قضاء الله وقدره ، وانتظري حسن المشورة
 منه والجزاء الأوفى

وقد بعثت إليك بكاهن من أفضل الكهان وأتقاهم
 وأحفظهم للأسرار ليقوم بعقد هذا الزواج السري بينكما
 في منزلك فاقري عليه كتابي هذا وبلغيه أمري وكوني على
 ثقة من إخلاصي لك واحترامي الدائم لمقامك الكريم
 دي جيش

ثم طوت الكتاب وهي تتظاهر بالأسف والحزن
 وتقول : آه مأسوا حظي وأعظم شقائي ، ثم همست في
 أذن كرستيان قائلة له ألا ترى أنني أحسن قراءة الرسائل ؟

قال اسكتي فاني أ كاد أموت فرحاً ، أما الكاهن فقد تهلل
وجهه وانبسبت أساريره وظل يقول له الله من سيد نبيل
كريم ماخاب ظني فيه وفي حسن مقاصده وشرف أغراضه ، ثم
رفع المصباح إلى وجه سيرانو وقال له لعلك الزوج ياسيدي ؟
فامتقع لون سيرانو وأشاح بوجهه عنه فتقدم نحوه كرستيان وقال
له لا بل أنا ياسيدي ، فأذني المصباح من وجهه فرأى وجهاً جميلاً
مشرقاً فظل يهز رأسه كالمرتاب ثم التفت إلى روكسان وقال
لها يخيل إلى ياسيدي أن مصيبتك في هذا الزواج ليست
عظيمة كما تتوهمين ، فارتعدت وخفق قلبها خفقاً شديداً
مخافة أن يكون قد فهم شيئاً ثم ما لبثت أن عرفت وجه
الحيلة في ذلك ففتحت الكتاب بلهفة وقالت : لقد فاتني
يأبت أن أقرأ عليك الحاشية التي كتبها الكونت في
كتابه وهي تتعلق بدير كم المقدس فاستمعها ، وقرأت ما يأتي
« ويأمر ك صاحب القداسة أيضاً أن تبرع للدير من
مالك الخاص بعشرة آلاف فرنك فائتمري بأمره وادّخريها

يداً عند الله سالحة ، فتلاً لأ وجه الكاهن واستطير فرحاً
وسروراً ولم يبق لتلك الريبة التي خالجتة أثر في نفسه
وقال لها لا مناص لك يا بنيتي من الأذعان لأمر صاحب
القداسة ، والله يتولاك برعايته ، فقالت سأذعن لأمره
وأمرك يا أبت ، ثم هتفت براجنو فأمرته أن يمشي أمامهم
بمصباحه ففعل فدخلوا المنزل جميعاً وتراجعت روكسان
قليلاً قبل دخولها فجذبت سيرانو من يده وأسرت في
أذنه قائلة : أما أنت فابق هنا حتى يأتي الكونت فامنعه من
الدخول ودافعه بكل حيلة وترفق في الأمر ما استطعت
حتى يتم عقد الزواج ، فقال سأفعل ما يرضيك يا روكسان
فكوني مطمئنة ، فتركته ولحقت بالقوم وبقى هو وحده
يفكر في الطريقة التي يمنع بها الكونت من الدخول إذا جاء

« سياحة في القمر »

وما هي إلا هنيهة حتى رأى شبح الكونت مقبلاً

من بعيد نخلع سيفه والتف بمعطفه وأنزل قبعته على عينيه
وتسلق شجرة الياسمين وكمن بين اغصانها وأقبل الكونت
واضعاً على وجهه نقاباً أسود وهو يتلمس الطريق في هذا
الظلام الحالك ويقول ليت شعري أين ذهب ذلك الكاهن
المنحوس وماذا صنع بالرسالة التي بعثته بها؟ لا بد أن
يكون قد بلغها روكسان وانصرف لشأنه، ولا بد أنها
تنتظرنى الساعة داخل المنزل

واتجه جهة الباب فما دنا منه حتى سقط جسم عظيم بين
يديه سقطه هائلة دوت بها جوانب الميدان كأنما هو هابط
من علياء السماء فتأمله فاذا هو رجل متلفع ملثم فدُعر
وتراجع وقال من هذا؟ فتقدم نحوه سيرانو بخطوات بطيئة
متشاقلة وقال له بنعمة أشبهه بنعمة الحالم المستغرق:
كم الساعة الآن، أيها الانسان، فقال له من أنت؟ قال أنا
رجل من سكان كوكب القمر سقطت منه من زمن

لا أعلم مقداره هل هو يومٌ أو ساعةٌ أو دقيقةٌ أو عامٌ أو أعوام
لأن صدمة السقوط أذهلتني عن نفسي فلم أفق إلا في هذه
اللحظة ، ولا أعلم هل سقطت في كوكب الأرض أم في كوكب
آخر غيره ، فقل لي أين أنا وفي أي عام وفي أي يوم وفي أي ساعة؟
فعلم الكون أن مجنوناً أو ثمل فاراد ملايينه ومداورته فقال
له اسمح لي بالمرور أولاً وسأخبرك فيما بعد عما تريد ، قال
يُخَيَّلُ إِلَى أَنْكَ تَظُنِّي مَعْتَوْهَا أَوْ مَجْبُولَا فَاعْلَمْ أَنِّي لَا أَحْدَثُكَ
عَنْ خِيَالِ بَلْ عَنْ حَقِيقَةِ لَارِيبِ فِيهَا وَأَنِّي قَدْ سَقَطْتُ
مِنْ كَوْكَبِ الْقَمَرِ سَقُوطًا اضْطِرَارِيًّا لَمْ أَمْلِكْ فِيهِ الْخِيَارَ
لِنَفْسِي فَظَلَلْتُ أَتَخَبَّطُ بَيْنَ الْكُوكَبِ وَالنَّجُومِ وَالْمَذَنَّبَاتِ
وَالشَّهَبِ حَتَّى وَقَعْتُ فِي هَذَا الْمَكَانِ الَّذِي أَجْهَلُهُ وَلَا أَعْلَمُ أَيْنَ
مَوْقَعِهِ مِنَ الْعَالَمِ ، ثُمَّ رَفَعَ نَظْرَهُ إِلَى وَجْهِ الْكُوكَبِ وَصَرَخَ
صَرَخَةً هَائِلَةً فزَعَهَا الرَّجُلُ وَتَرَاجَعَ بِضَعِ خَطَوَاتِ وَظَلَّ
يَسْأَلُهُ مَا بَالُكَ ! مَا بَالُكَ ! فَقَالَ ذَلَّنِي سَوَادُ وَجْهِكَ وَظَلَمَتَهُ
عَلَى أَنِّي قَدْ سَقَطْتُ فِي خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ بَيْنَ قِبَائِلِ الزُّنُوجِ ،

فوا أسفاه وواسوء حظاه ، فامس الكونت وجهه بيده
وكان قد ذهل عن نقابه فحسره عنه وقال له لآتحف انما هو
نقاب أسود كنت أسدلته على وجهي لبعض الأسباب
الخاصة فهذا سيرانو قليلا وقال له عفواً يا سيدي ، إذا
أنا في فينيسيا أو فيينا^(١) فقل لي في أي المدينتين أنا؟ فضجر
الكونت وقال له سواء أ كنت في هذه أم في تلك فدعني
أمر فان إحدى السيدات تنتظرتني ، فقال آه لقد فهمت الآن
لابد أن أكون في باريس بلد الوعود والمقابلات ، والاسياد
والسيدات ، فالحمد لله على ذلك ، ومد يده الى ردائه وظل
يمسحه كأنما ينفض الغبار عنه ، ثم وقف متأدباً وأحني رأسه بين
يديه وقال له اغفر لي يا سيدي مقابلي إياك بهذه الملابس الرثة
المغربّة فقد كان سقوطي مع الزوجة الأخيرة فانتشر غبار الاثير
على ملابسي وامتلات عيناى بذرات الضوء وعلقت بنعلي

(١) يشير الى ان عادة النقاب كانت معروفة في هذين البلدين

أكثر من غيرهما

بضع ريشات من ريش « النسر الطائر » ثم مديده إلى
نعله كأنه يتناول ريشة عالقة بها وظل ينفخها في الهواء ،
فازداد غيظ الكونت وعظم ضجره وقال له تنح عن طريق
ياسيدي فاني أريد الدخول ، وظل يدفعه أمامه حتى بلغا
الباب فترامى سيرانو على الارض ومد ساقه في مدخل الباب
وكشف عنها وقال له انظر ياسيدي إلى ساقى فقد عضنى
فيها « الدب الاكبر » عضه مؤلمة لايزال أثرها باقياً حتى
الآن ، ولقد وقع لى ذلك فى الساعة التى كان يطاردنى فيها
« السمك الرامح » برمح المثلث الأسنه وما أفلتت من
مخالب الدب حتى سقطت فوق حمة العقرب فلدغتنى فى
ساقى الثانية ، وانظرها هو أثرها ، ومد ساقه الثانية أيضاً
فاستحال على الكونت المرور ، ثم قال له واؤكد لك
ياسيدي أننى لو عصرت أنفى الآن لجرى منه سيل دافق
يغمر هذا الميدان جميعه ، أتدرى لماذا؟ قال لا ، قال لأننى
سقطت بعد ذلك فى نهر « المجرة » فظلمت أسبح فيه

حتى أعياني الجهد، ولولا أن « الدب الاصغر » مد يده
إلى فأنقذني لما نجوت، واعلم أنه لم يفعل ذلك تكرمته منه
وتفضلاً بل كان يريد أن يعضني أيضاً كما عضني أخوه من
قبله فعجز عن ذلك لأن أسنانه صغيرة جداً كأنها حبُّ
الكأس فاستطعت الافلات منه والمحدث الى « القيثارة »
فاخترقها وعلقت يدي بوتز من أوتارها فانقطع وظل
معي حتى الآن وسأريكم إذا أردت، ومد يده إلى جيبه
كأنما يريد أن يخرجته ثم قال لا لزوم لذلك الآن، فقد
عزمت على أن أولف كتاباً أسميه « سياحة في القمر »^(١)
أدون فيه هذه الرحلة جميعها وسأرصد دفتيه بالشهب الصغيرة
التي اصطدتها في معطفي من غابات السماء

فاشدد جزع الكونوت ونفذ صبره وقال له ثم ماذا؟
قال أظن أنك تريد أن تعرف الآن شيئاً من أخبار سكان
ذلك الكوكب الذي عشت فيه حقبة من الزمان . . .

(١) اسم كتاب لسيرانو دي برجرانك كما ورد في ترجمة حياته

فقاطعه الكونت وقال لا ، لا أريد أن أعرف شيئاً
فدعني أمرّ ، فان بيني وبين أصحاب هذا المنزل ميعاداً لا بد
لي من الوفاء به ، قال ولكنك وقد عرفت كيف نزلت
من السماء لا بد لك أن تعرف كيف صعدت إليها ، إنني
صعدت إليها بطريقة عجيبة جداً أنا الذي اخترعتها وابتكرتها
فلم أجد إلى الذسر البليد كما فعل « رجيو مونتانوس » ولا
إلى الحمامة البلهاء كما فعل « اركيتاس » وكان دي جيش مولعاً
بعض الولع بعلم الفلك ولوع الكثير من الأشراف والنبلاء
الذين يزاولون بعض الفنون تجملاً وتلهياً دون أن يدركوا
من أسرارها شيئاً ، فقال في نفسه ان الرجل وان كان مجنوناً
فهو واسع الاطلاع غزير المادة ، واستهواه حديثه فبدأ
ينصت له واستمر سيرانو يقول

ولم أقلد أحداً من الطيارين الذين سبقوني بل خطرت
على بالي ست طرق لا خراق أطباق السموات لم تخطر على
بال أحد من فحول علم الفلك ونوابغه ، فدأهش الكونت

وقال ستُطرق؟ قال نعم ، هل نعدني أن تصغى الىّ حتى
أسردها عليك جميعها؟ قال نعم أعدك بذلك فتكلم وأوجز ،
قال تعال إذن معي إلى هذا المقعد لنجلس عليه قليلا فقد
انتقض على جرحي الذي في ساقى ، ثم جذبته من ردائه
فأجلسه بجانبه وظلّ يقول له :

أولها : أن اتجرد من ثيابي وأدير حول جسمي بضع
قارورات بللورية مملأى بقطر الندى ثم أقف تحت الشمس
فتمد إلى خيوط أشعتها فتجذبني اليها كما هو شأنها
في امتصاص الابخرة والانداء حين تشرق عليها

وثانيها : أن أعمد الى صندوق كبير فافرغه من الهواء
بواسطة حرارة المرايا المضلعة ثم أملؤه بالاهوية المتصاعدة
وأجلس فيه فيصعد الى الملا

وثالثها : أن أصنع جرادة من الصلب ذات أذرع
كبيرة وأضع في جوفها باروداً ملتهباً ثم أمتطيها فكلاماً
فرقع البارود اندفعت صاعدة في جو السماء

ورابعها: أن أملاً « بالوناً » بالدخان ، والدخان كما
تعلم يطلب العلاء دائماً فأركبه فيصعد بي حيث أشاء
وخامسها: أن أدهن نفسي بنخاع الثور فاذا دنا
كوكب « فيبيه » أى القمر من الارض وهو كما تعلم مولع
بامتصاص هذا الدهن امتصني معه

وسادسها: أن أركب لوحاً من الحديد وأمسك بيدي
قطعة من المغناطيس وأقذفها في الهواء ، والمغناطيس كما
تعلم يجذب الحديد ، فاذا سقطت تلقفتها وقذفها مرة أخرى
وهكذا حتى أصل الى غايته

فأعجب الكونت بزكائه وفطنته وقال له حسبك ذلك
وائذن لى بالذهاب وتأهب للقيام فانزعج سيرانو وتشبث
بردائه وقال له ولكن فاتك يا سيدى أن تسألنى عن
الطريقة التى اخترتها من بين تلك الطرق واعتمدتُ عليها
فى هذه الرحلة القمرية ؟ قال قل لى وأسرع ، قال لم
أختر واحدة منها ، بل اخترت طريقة سابعة هى أغرب

الجميع وأعجبها ، قال قل ماهي وعجّل ، قال أراهن انك
لا تعرفها ولو فكرت فيها ثلاثة أيام ، فضايق صدر الكونت
وقال أترف لك أنى عاجز عن معرفتها ، فقل لى ماهي فقد
ضقت بك ذرعا ، وثار من مكانه غاضباً ، فوثب سيرانو
واعترض سبيله وقال له هاهي فاستمعها ، ثم مد ذراعيه
إلى الامام وظل يلوّح بهما فى الهواء كما يفعل الساج على
سطح الماء ويقول هو ، هو ، هو ، فدهش الكونت
وقال ماهذا ؟ قال الموج المتلاطم ، قال لأفهم ماتريد ،
قال المد والجزر ، قال لأفهم شيئاً فقل ماذا تريد ؟ قال بما
انى أعلم أن القمر هو السبب فى حركة المد والجزر فقد
نمت على ضفة النهر ساعة المد حتى غمرنى الماء منتظراً
ساعة الجزر وما هي إلا لحظة حتى دنا القمر من اللجة
فجذبها وجذبني معها ولم أزل صاعداً أخترق حجب السماء
حجاباً حجاباً حتى . . . ومد صوته بها طويلاً فقال له الكونت

بضجر شديد حتى ماذا؟ وكان سيرانوا قد سمع جلبة القوم
وهم مقبلون من داخل المنزل فعلم أن الأمر قد انتهى فقال
له: حتى تمت حفلة القرآن، وألقى عنه رداءه ورفع قبعته
عن رأسه فظهر وجهه وفي مقدمته ذلك الأنف الضخم
العظيم فانتفض الكونت وقال: سيرانوا! ثم التفت وراءه
فرأى العروسين مقبلين في ملابس عروسهما وأمامهما
الشموع ووراءهما القسيس والخدم ففهم كل شيء وصاح
ماذا أرى؟ يخيل إلى أني قد جننت، وأخذ يدور بعينه
ههنا وههنا كالذاهل الخبول، ثم مشى نحو روكسان فأنحنى
بين يديها وقال لها: لله درك ياسيديتي! إنك من أمهر
الماكرات، ثم التفت إلى سيرانوا وقال له أقدم إليك تهنئتي
أيها المخترع العظيم على تفوقك ونبوغك، وسيكون مؤلفك
الجليل أعظم مؤلف نافع للمجتمع، ولا تنس أن ترصع
دفتيه بتلك الشهب الذهبية التي اصطدتها في معطفك من
غابات السماء، قال سأفعل انشاء الله ياسيدي وسأقدم الكتاب

اليك تذكراً لهذه المهزلة البديعة ، فأعرض عنه والتفت
إلى القسيس وقال له متهمكاً : لقد أدت الرسالة أيها الشيخ
أحسن تأدية فلك الشكر على ذلك ، فلم يفهم القسيس
غرضه وقال له لعلك راض عني يامولاي ، قال نعم كل
الرضا ، ثم أخذ يخطو في تلك الساحة خطوات واسعة
سريعة ثم وقف ورفع رأسه بعظمة وخيلاء وقد لبس
وجهه تلك السحنة العسكرية القاسية ونظر إلى روكسان
نظرة جامدة مخيفة وقال لها بصوت قاس شديد: ودعي زوجك
ياسيدتي ، فدعرت واصفر لونها وقالت لماذا؟ قال لان فرقة
الحرس ستسافر الآن مع بقية فرق الجيش ، وأخرج من
ثنايا قيصمه ذلك الكتاب الذي كان قد فصله عن بقية
الكتب منذ ساعة ونادي كرستيان بصوت هائل رنان
فلباه ووقف بين يديه فقال له : خذ هذا الكتاب وسامه
بنفسك إلى قائد فرقتك ، فقالت روكسان : ولكنك
كنت وعدتني أن تتخلف هذه الفرقة . . . فقاطعها وقال

لها قد غيرت رأي عند ما علمت انك انما كنت تكيدني
لى لا لابن عمك سيرانو ، فصمتت وقد نال من نفسها
منالا شديداً وملاً قلبها حزناً وشجناً أنها لم تكذب تلمس
بفمها شفة الكاس حتى انتزعت من يدها ، ثم ترامت بين
ذراعى زوجها وظلت تقبله وتبكي بكاءً مرّاً فضمها إلى
صدره وظل يبكي لبيكها فصاح الكونوت : حسبكما ذلك
فأمامكما ليلة الزفاف ولعلها قريبة جداً ! ثم تركهما وانصرف
ليصدر بعض أوامره إلى الجيش وهو يرمى سيرانو
بنظرات هائلة لورمى بها أهدأ غيره لصعق لها ، على أن سيرانو
كان فى شاغل عنه بما كان يعالجه فى أعماق نفسه من الألم الممض
عند رؤية تلك القبلات الجميلات المتبادلة بين هذين العاشقين
الجميلين ، وظل يقول بينه وبين نفسه : ياله من سعيد !
ويالى من شقى ! ، كلانا يحبها ، وكلانا يموت وجداً بها ،
ولكنه استطاع لانه جميل أن يلثمها ويقبلها ، ولم أستطع
لانى دميم أن أنال منها شيئاً فى حياتى أكثر من أن أقبل

طرف الغصن الذي كانت واضعة يدها على طرفه الآخر
من حيث لا تدري ، وها هو ذا الآن يضمها إلى صدره
ضمة الوداع ويتزود منها الزاد الذي يعينه على سفره الطويل
وشقته البعيدة ، أما أنا فكل زادي منها هذه الدمعة التي
تترقق في عيني ولا أستطيع إرسالها مخافة أن تراها
وهنا دقت طبول الجيش مؤذنة بالرحيل فدنا منهما
سيرانو وقال لكرستيان حسبك ذلك الآن فهيا بنا ، فلم
ينتبه كرستيان إليه واستمر في شأنه فظل يجذب من يده
ويقول هيا بنا فقد دقت طبول الرحيل ، فقال امهاني قليلا
ياسيرانو فانك لا تعلم ما يصنع الفراق بقلوب العاشقين ،
قال أعلم ذلك حق العلم فهيا بنا ، فالتفتت إليه روكسان
وقالت له اني أكلُ إليك أمره ياسيرانو فعِدني ألا يهدد
حياته شيء ، قال سأجتهد إن شاء الله تعالى ، قالت وعدني
أن يكون حذراً متيقظاً ، قال سأحاول ذلك ، قالت وأن لا
يتألم من البرد والصقيع في تلك الاجواء الثلجية الباردة ،



كرستيان يودع روکسان قبل سفره الى الحرب وسيرانو
يجذبہ من يده

قال سأفعل ما في وسعي ، قالت وأن يكون لي وفيًا مخلصًا ،
قال أظنه لا يستطيع أن يكون غير ذلك ، قالت وأن
يكتب لي دائمًا ، قال أما هذه فأعدك بها



الفصل الرابع

« الميدان »

بدأ الفجر يرسل أشعته الاولى إلى جوانب الميدان وكانت فرقة الحرس نائمة في سفح تل مرتفع يحميها ويحمي مواقعها ، وكانت قدمرت على الجنود ثلاثة أيام لم يذوقوا طعاما ولم يتبلَّغوا بشيء حتى ساءت حالهم وشجبت ألوانهم وخارت قواهم فاستيقظ أحدهم وهو يتضور جوعاً ويقول آه ما أشد ألمي ! فاستيقظ بعض رفاقه على صوت أئنه وظلوا يتضورون مثله فشعر قائدهم بحركتهم وكان واقفاً على قمة التل ليله كله يتولى حراسة الموقع بنفسه فأنحدر إليهم وقلب نظره في وجوههم ثم قال لهم : ناموا يا أولادى فالنهار لا يزال بعيدا ، فقال له أحدهم وكيف لنا بالنوم وقد أقلق الجوع مضاجعنا وحال يئتنا وبين الغمض ،

فَنَكَسَ رَأْسَهُ وَصَمَّتْ وَقَدْ أَضْمَرَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ لَوْعَةً لَا يَعْلَمُ
إِلَّا اللَّهُ مَكَانَهَا مِنْ أَعْمَاقِ نَفْسِهِ

وَإِنَّهُمْ لَكَذَلِكَ إِذْ سَمِعُوا مِنْ نَاحِيَةِ الْعَدُوِّ بِضَعِ طَلْقَاتٍ
نَارِيَّةٍ فَتَارُوا جَمِيعًا وَابْتَدَرُوا سَيُوفَهُمْ فَجَرَدُوهَا مِنْ أَعْمَادِهَا
فَصَاحَ فِيهِمْ « لَبْرِيه » هَدُّوْنَا رَوْعَكُمْ يَا إِخْوَانِي وَالْبَشْوَا
فِي أَمَا كُنْتُمْ فَاَنْ سِيرَانُوْ قَدْ عَادَ مِنْ رِحْلَتِهِ الَّتِي اعْتَادَ أَنْ
يَرْحَلُهَا سَجَرَ كُلِّ لَيْلَةٍ وَأُظِنَ أَنَّ الْأَعْدَاءَ قَدْ لَحَّوْا شِبْحَهُ
مِنْ بَعِيدٍ فَأُطْلِقُوا عَلَيْهِ بَعْضَ الْمُقْدُوفَاتِ وَأَرْجُوا أَلَّا يَكُونَ
قَدْ أَصَابَهُ مِنْهَا شَيْءٌ ، فَسَكَنَ جَأْشَهُمْ وَعَادُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ
وَمَا هِيَ إِلَّا هَنِيئَةٌ حَتَّى ظَهَرَ سِيرَانُو عَلَى قَمَّةِ التَّلِّ فَهَرَّغَ
إِلَيْهِ صَدِيقَهُ لَبْرِيهَ مُتَلَفِفًا وَقَالَ لَهُ : هَلْ جَرَحْتَ . قَالَ لَا ،
لَا نَهُمْ يَخْطِئُونَنِي دَائِمًا ، قَالَ وَلَسْكَنِي أَخْفَ عَلَيْكَ إِنْ
أَخْطَأْتُكَ الْيَوْمَ أَنْ يَصِيبُوكَ غَدًا ، قَالَ وَمَاذَا أَمْنَعُ وَقَدْ
وَعَدْتَهَا عَنْهُ أَنْ يَكْتُبَ إِلَيْهَا كَثِيرًا وَلَا بَدْلَى مِنَ الْوَفَاءِ بَعْدَهُ ،
قَالَ إِنَّكَ لَمْ تَخْبِرْنِي حَتَّى الْآنَ عَنِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي اتَّخَذْتَهَا

للتنكر والتوارى عن عيون الاعداء وأرصادهم ، قال لقد
اهتديت من زمنٍ إلى مسلكٍ خفيٍّ وراء هذا الجبل لاتناله
أنظارهم ولا تمتد إليه خواطرهم ، فأنا أسلكه برفق وحذر
حتى أوصول إلى الموضع الذى أجد فيه من يتولى توصيل
الكتاب إلى روكسان ، قال إذن يمكنك أن تأتينا كل
ليلة بشيء من القوت نسد به جوعتنا ، قال ليبنى أستطيع
ذلك ، بل ليبنى أستطيع أن أقوت نفسى ، إننا جئنا هنا
لنحاصر الاعداء فى أراسٍ فاصبحنا محصورين خارجها ،
وقد أحاط بنا جيش العدو من كل جانب وأخذ علينا
شعاب الارض فلا سبيل لنا إلى أى شيء حتى إلى القوت ،
وأطرق برأسه هنيهة ثم قال : ولقد وقفت الليلة أثناء
عودتى على حركة فى جيش العدو هائلة جداً ، ويخيل إلى
أن الغد يحمل فى طياته أعظم حادثة مرت بنا فى هذا
الميدان ، فإمّا نجاة الجيش الفرنسى من مخالب الجوع أو هلاك
من أوله إلى آخره

فاصفر وجه لبريه وقال له قل لي ماذا رأيت ؟ قال
لأستطيع ، لانى لست على يقين ، فدعنى وشأنى وأستودعك
الله ، قال الى أين ؟ قال إلى خيمتى لأكتب إلى روكسان
رسالة الغد وربما كانت الرسالة الاخيرة ، ثم مشى إلى خيمته
ولبريه يتبعه بنظراته الحزينة الدامعة ويقول : وارحمته لك
أيها البائس المسكين

« الوطن »

نشرت الشمس رايتها البيضاء ، فى آفاق السماء ،
فاستيقظ الجنود من نومهم يتألمون من الجوع ويترنحون
ضعفًا وإعياء فتقدم نحوهم قائدهم وحاول أن يعزيهم ويهون
عليهم آلامهم وهو الى التعزية والتهوين أحوج منهم ، فلم
يأبهوا له وأخذوا يرمونه بنظرات السخط والغضب فأمرهم
أن يتقلدوا أسلحتهم ويأخذوا أهبتهم فأعرضوا عنه ولم
يحفلوا به ومشى بعضهم إلى بعض يتهايمسون ويتغامزون

ومرت بأفواههم كلمة « الثورة » وهي الكلمة الهائلة التي
تأتي دائماً في ترتيب قاموس الحياة بعد كلمة الجوع فانتفض
القائد واستطير رعباً وفزعاً وهرع إلى خيمة سيرانو فهتف
به قلباه فقال له أدرك الجنود ياسيرانو فقد نال منهم اليأس
أو كاد حتى نطقوا بكلمة الثورة المخيفة ، فخرج إليهم سيرانو
وأخذ يخطو بينهم خطوات هادئة مطمئنة ويسارقهم من
حين إلى حين نظرات العتب والتأنيب حتى سكنوا
وهدءوا وعضوا أبصارهم حياء منه وخجلاً ، ثم أخذ
يمازحهم ويداعبهم ويفنن في مفاكهم ومطايبتهم حتى سرى
عنهم بعض ما بهم ، فقال له أحدهم ، أما في هموم الحياة
والآلها ما يشغلك عن الفكاهة ياسيرانو ؟ قال لا ، ولو ان
لامرئ أن يختار لنفسه الميته التي يريد لها لا خرت لنفسى أن
أموت في ليلة صافية الاديم متلاثة النجوم تحت قبة السماء
بأجمل سلاح وهو السيف وفي أجمل بقعة وهي الميدان ،
وأن يكون آخر ما أنطق به ملحقة لطيفة يتحرك بها في



سيرانو يغنى الجنود الجاسكونيين أنشودة قومية تذكروهم ببلادهم
ليتلوها بها عن آلام الجوع

في الساعة التي يامس فيها ذباب السيف قلبي

ثم هتف « باپتراندو » فلباه جندي شيخ قد أوفى
على الستين من عمره فقال له أخرج نايبك من كيسك
وغن لهؤلاء الاطفال الشرهين تلك الاغنية الجاسكونية
التي تذكركم ببلادهم ومعاهد طفولتهم ومغاني صباهم فأخذ
الرجل يغنيها ويحيد في توقيعها وسيرانو يغني معه ، فأطرق
الجنود برء وسهم وقد تمثلت لهم بلادهم كأنها حاضرة بين
أيديهم يرون جبالها ووديانها وغاباتها وأحراشها ويرون الرعاة
السمر بقلانسهم الحمراء يسوقون أمامهم قطعان البقر
والاغنام والفتيات الجميلات في أثوابهن القصيرة حاملات
جرارهن على رؤوسهن وهن ذاهبات إلى الغدران أو
صادرات عنها فأخذت مدامعهن تتحدر على خدودهم
فيمسحونها بأطراف أردتيهم في صمت وسكون

فقال القائد لسيرانو : إنك تهيج أشجانهم وتستثير
آلامهم بهذه الذكري ، قال فليكواوليتألموا ، علمهم يتألمون



بلاد جاسكونيا في خيال الجنود الجاسكونيين عند سماع
الانشودة القومية

قليلا عن آلام الجوع التي يكابدونها، وليت جميع الآلامهم
تنتقل من أمعائهم إلى قلوبهم فيستريحوا، قال إني أخاف
على حميتهم أن تفتر وتتضعع، قال لا يخفك ذلك
ياسيدي، فإن بكاءهم على وطنهم الصغير لا ينسبهم واجبهم
لوطنهم الكبير، وإن أردت أن تكون على بينة من
ذلك فانظر ماذا أصنع، ثم أشار إشارة خفية إلى حامل
الطبل أن يدق طبله دقة الهجوم ففعل فانتفض الجنود
من أماكنهم وثاروا إلى أسلحتهم يتقلدونها، فقال للقائد
انظر ياسيدي إلى هؤلاء الأطفال الباكين كيف استحالوا
في لحظة واحدة إلى ليوث كواسر عند ما سمعوا نداء وطنهم،
ثم التفت إليهم فهدأ روعهم وقال: لا عدمتكم فرنسا
يأبناء جاسكونيا

وانهم كذلك إذ هتف الحارس القائم على رأس
التل باسم الكونت دي جيش رئيس أركان الحرب،
فما سمع الجنود اسمه حتى وجها وامتعضوا وانتشر على

وجوههم الألم والانقباض وأخذ بعضهم يقول لبعض :
ما أثقل ظله ، ما أسيج وجهه ، إنه فاسد الذوق ، يلبس
الشفوف الرقيقة فوق الدرع ، يلبس الخذاء اللامع في ميدان
الحرب ، ما أكثر تملقه ، إنه لم ينجح في حياته إلا من
طريق المداهنة ، حسبه أنه صهر ذلك الرجل الذي يأكل
في اليوم أربع أكلات في الوقت الذي لا تكاد نظفر فيه
بأكلة واحدة في الأربعة الأيام ، فأنهرهم قائدهم « كاربون
دى كاستل » وقد سمع حديثهم وقال لهم : ولكن لا تنسوا
أنه جاسكوني مثلكم ، فقال له أحدهم : نعم ، ولكنه جاسكوني
عاقل ، وما خلق الجاسكوني إلا ليكون مجنوناً ، فقال لهم
سيرانو : نصيحتي إليكم يا إخواني أن تتجلدوا أمامه وتكتموا
في أعماق نفوسكم هوكم وآلامكم ولا تسمجوا له بالشماتة
بكم ، أما أنا فساأجلس هناك قليلاً على هذه الصخرة لاقرأ شيئاً
في كتاب « دى كارت » حتى ينصرف ذلك الرجل لشأنه ،

فأسرعوا بمسح آثار الدموع من خدودهم واستداروا حلقات
صغيرة وأخذوا يلعبون الورق ويتضاحكون كأنهم
لا يشكون هما ولا الماء ، فدخل الكونت دى جيش متجهماً
الوجه مكفهراً الجبين وكان قد سمع آخر حديثهم وقرأ على
وجوههم ما يضمرون له من البغضاء بين جوانحهم فصاح
فيهم : لقد سمعت بأذني بعض ما تقولون أيها الأشقياء
فعلت أنكم لا تتركون فرصة تمر بكم دون أن تتناولوني بألسنتكم
وتناولوني ، فتسموني تارة متملقاً وأخرى منافقاً وتعيون
على حسن هنداى ونظافة ملبسى كأنتم ترون أن الجاسكونى
لا يكون صحيح النسب إلا اذا تصعلك وتشعث وأصبح
من البائسين المفلوكين

وكان يتكلم والجنود مقبلون على العابهم يتشاغلون
بها كأنهم لا يسمعون ما يقول ، فقال لهم وهو يشير الى قائدهم
ولقد كنت أريد أن أمر قائدكم بمعاقتكم ولكنتى... فقاطعه
القائد وقال له لو أنك فعلت ذلك ياسيدى لما أذعنتُ

لأمرك ، فاضفر وجه الكونت وقال ولماذا ؟ قال لأنني
دفعت للقيادة العامة ضريبة الرأسة وهي تجعلني صاحب
السلطان المطلق على فرقتي لا ينازعني فيها منازع ولا أخضع
في أمرها لارادة غير ارادتي ، وبعد فليس من الرأي أن يحاسب
القائد جنوده على الحب والبغض والرضى والسخط أو أن
يطلب إليهم شيئاً سوى الطاعة والاذعان لأوامره ونواهيهم ،
فوجم الكونت ولم يستطع أن يقول شيئاً ولكنه
التفت إلى الجنود وقال لهم اني أحتقركم جميعاً أيها السفهاء
الثرثارون وأحتقر مطاعنكم ومغامزكم لأنني أعرف مكانة
نفسى كما أن الناس جميعاً يعرفونها وأعلم أنني جندى شريف
مقدم لا أبالي بالمخاطر التي تعترضني في طريقى ، وقد
رأيتم جميعاً موقفي العظيم في « يابوم » الليلة الماضية وهجومى
بنفسى ثلاث مرات على رجال الكونت « دى بكوا »
حتى ألبأتهم إلى الهزيمة التي تعرفونها
وكان سيرانو لا يزال مكباً على كتابه يقرأ فيه فقال له

وهو مطرق برأسه لا يرفعه : وما رأيك في وشاحك
الاييض يا سيدي ؟ فدهش السكونت واصفر وجهه وقال
ومن أين لك علم ذلك ؟ نعم وقع لي ليلة أمس انني بينما كنت
أجول في أنحاء الميدان لاجمع رجالى استعداداً للهجوم الثالث
إذ لمحت فصيلة صغيرة من فصائل جيش العدو تتقهقهر
على مقربة منى فطمعت فيها واندفعت وراءها اندفاع اليأس
المستقتل لا ألقى على شيء مما ورأى ، فهاهو إلا أن دركتها
وأعملت سيفي في ساقها حتى رأيتني بعد قليل وسط خطوط
جيش العدو الأكبر وإذا الخطر محقق بي من كل جانب
نخفت الاسر لا من أجل نفسى بل من أجل الجيش الذى أقوده
وأدير حركاته ، وكان الظلام حالكا جداً فلا ينم على شيء
سوى ردائى الاييض فأسرت بألقائه الى الارض لا أستطيع
أن أتوارى عن عيون الاعداء فيخفى عليهم مكاني ، ثم
انسلت من بينهم وغادرت صفوفهم آمناً مطمئناً ، وما هو
الا أن بلغت ما منى حتى جمعت رجالى وكررت عليهم كرتة

هائلة فكانت الواقعة الثالثة التي أحرزنا فيها ذلك النصر العظيم ،
فماذا تقولون في هذه الحيلة الغريبة ؟ وكان الجنود لا يزالون
مكبين على العابهم لا يرفعون إليه أنظارهم يستمعون
القصة وكانهم لا يسمعونها حتى انتهى منها ، فأمسكوا عز
اللب وشخصوا بأبصارهم الى سيراو ليروا ماذا يقول ،
فقال له : إن هنرى الرابع يا سيدي ما كان يرضى لنفسه
مهما كان الخطر المحقق به عظيماً أن يتنازل عن ريشته
البيضاء لأعدائه ، فهلل الجنود فرحاً وانبسبت أساريرهم
وعادوا إلى جليتهم وضوضائهم ، فقال له الكونت : ذلك
لا يعنيني ، إنما الذي يعنيني أنني قد حققت دمي واستبقيت
حياتي لوطني وسلبت العدو يوماً كان يريد أن يعده من أيام
مجده ونفاره ، قال أما الفكرة فبديعة جداً لا أرتاب فيها ،
ولكن الذي أعلمه أن الجندي ما خلق إلا لموت ، فمن العار
أن يخسر هذا الشرف بأي ثمن كان ، وأقسم لك يا سيدي أنني
لو كنت حاضراً معك في تلك الساعة ما هان على أن أرى

وشاحك العظيم في يد أعدائك دون أن أقاتل عنه حتى أفتديه
ولو بجيأتي ، قال : قسم ضائع لاقيمة له لانك لم تكن معي ،
قال بل كنت معك ياسيدي وقاتلت عن وشاحك حتى
استنقذته من يد أعدائك وهاهو ذا ، ومد يده الى جيبيه
فاستخرج منه الوشاح وألقى به بين يديه ، فارتد وجه
الكونت وانتفض غيظاً وألقى على سيرانو وعلى الجنود
نظرة شمرءا ملتهبة وقال لهم أتدرون ماذا أضع الآن بهذا
الوشاح : قالوا لا ، قال سألوّح به في الجو لتلويحاً لايسركم ولا
يهنؤكم ، وصعد الى التل ولوّح به ثلاث مرات في الهواء والجنود
يمجبون لأمره ولا يدرون ماذا يريد ، ثم نزل وهو يقول
أما وقد انقضى كل شيء فسأفضي إليكم بسر من أسرار
الحرب ما زلت أكتمه في صدري حتى حان وقته فاستمعوه
قد انفتحت منذ أيام مع جاسوس من جواسيس
العدو على أن يكون عوناً لي على قومه فيما أريد وأن
يكون مخلصاً لي مؤتمراً بأمرى . . . فقاطعه سيرانو وقال

له : ولكنك تصطنع رجلا خائنا يمولاي ، قال ومن أصطنع
إن لم أصطنع الخائنين ؟ فهو يداني على مقاتل قومه وعوراتهم
ومكان أسرارهم من حيث لا يداهم على شيء إلا على ما أريد
أن يدهم عليه ، أي انه يخدعهم ويضلهم من حيث يظنون
انه ينصحهم ويصدقهم ، وقد جمع قائدنا العام مجلسه الحربي
صباح أمس ونظر في كارثة الجوع التي نزلت بنا فاستقر
الرأي على أن يسافر هو بنفسه خلسة على رأس فرقتين من
فرق الجيش الى « أورلنس » ليحلب منها المؤونة والذخيرة ،
فسافر من حيث لا يشعر العدو بمكانه وترك بقية الجيش
هدفاً للهجوم العام ، فقال له كاربون : أخاف أن يعلم
العدو بذلك فيكون الخطب عظيما ، قال قد علم فعلا وهو
يتأهب منذ الأمس لمهاجتنا ، فهمس سيرانو في أذن لبريه :
ذلك ما حدثتكَ عنه صباح اليوم ، واستمر الكونت يقول :
وقد بعثوا جاسوسهم هذا ليتفقد لهم خطوط جيشنا ويدهم
على أضعف نقطة فيه ليهاجوها ، فاتفقت معه على أن يدهم

على النقطة التي أريدها وأعطيه الإشارة منها مضمراً في نفسي
أن أغريهم بالهجوم على أقوى فرقة في الجيش لتستطيع
مشاغلهم ومطاوتهم زمناً طويلاً حتى يتمكن قائدنا من
العودة بجيشه إلى مركزه آمناً سالمًا ، ولما كانت فرقكم
هي أقوى فرق الجيش وأمضاها عزمًا وأصلها عودًا فقد
رأيت أن أجعلها هدف ذلك الهجوم وإن كنت أعلم أنها
ستموت عن آخرها ، وكنت أمرت ذلك الجاسوس
أن يقف وراء هذا التل لينتظر إشارتي فيذهب بها ،
وها أنتم أولاء ترون أنني قد أعطيته إياها بخففة ذلك
الوشاح فاستعدوا للموت فقد انقضى كل شيء

فقال له سيرانو : أهذا كل انتقامك ياسيدي ؟ إنك
قد أحسنت اليما من حيث أردت اساءتنا ، فالجاسكوني
لا يخاف الموت بل يخاف الحياة مع الذل والعار ، قال
ماشككت في شجاعتك قط ياسيرانو ! فإن من يقا تل
مائة رجل وحده فيغلبهم لا يبالي بمخطر من الأخطار مها

عظم شأنه ! ثم التفت إلى الجنود وقال لهم : لا أكتممكم
أنى كنت أستطيع أن أختار لاستقبال هذه النازلة
فرقة أقل شجاعة من فرقكم لو أنى أحببتكم ورضيت عنكم
وحمدت عشرتكم وسيرتكم ، أما الآن فقد استطعت بعمل
واحد أن أؤدى واجبي وأشفي غليلي ، فقال له سيرانو : وشيء
آخر ياسيدى ، قال وما هو ؟ فمشى نحو خطوة وأسر في
أذنه : أن ترمل روكسان ! فارتعد الكونت ونكس رأسه
وتسلل من مكانه دون أن يقول شيئاً

فالتفت سيرانو إلى الجنود وقال لهم : لقد آن أيها
الأصدقاء أن نضع على شعار جاسكونيا ذى الألوان الستة
لوناً دموياً أحمر كان ينقصه ليكون أجمل شعار فى العالم ،
فكونوا عند ظنى وظن فرنسا بكم ، واعلموا انه مامن مئمة
فى العالم أنخر ولا أجد من هذه المئمة التى ستموتونها اليوم ،
فهبثوا جميعاً بحياة جاسكونيا وحياة فرنسا وابتدروا

أسلحتهم يشحدونها ويصقلونها

« الدمعة »

والتفت سيرانو فرأى كرستيان واقفاً وراءه مطرفاً
جامداً وقد انتشرت على وجهه غبرة سوداء من الحزن فتقدم
نحوه وقال له : أخائف أنت يا كرستيان ؟ قال لا بل حزين
لاني سأفارقها ، فانتفض سيرانو عند سماع كلمة الفراق ووضع
يده على قلبه ورفع عينيه إلى السماء ولكنه لم يستطع أن
يقول شيئاً ، وصمت هنيهة ثم قال له هون عليك الأمر
يا صديق فرحمة الله أوسع من أن تضيق بنا ، فقال كنت
أريد على الأقل أن أكتب لها كتاب وداع أبثها فيه خواطر
نفسى ولو اعجها في ساعتى الأخيرة ، قال لقد حدثتني نفسى
ليلة الأمس ولا أعلم كيف كان ذلك بهذا المصير الذى سنصير
إليه الآن وان هذا اليوم هو آخر أيامنا على وجه الأرض
فكتمت إليها عن لسانك الكتاب الذى تريده وسأبعث

به إليها الآن ، قال أرنيه ، قال ها هوذا ، وأخرج الكتاب
من جيبه فأعطاه إياه ، فأخذ يقرؤه حتى وصل إلى سطر من
سطوره الأخيرة فتوقف ذاهلاً مدهوشاً وقال غريب جداً
ما هذا الذي أرى ؟ قال ماذا ؟ قال نقطة بيضاء على الورق
كأنها دمة ، فاخطف سيرانو الكتاب من يده وقال أرني ،
وظل يتأمل فيه مصعباً منحدرراً كأنه يفتش عن النقطة فلا
يراها ، فقال له كرستيان إنها دمة يا سيرانو ما في ذلك ريب
ولا شك فهل كنت تبكي ؟ فانتفض إلا أنه تجلد وتماسك وقال
نعم ، قال وما الذي أبكك ؟ قال هذا شأن الشعراء دائماً ،
لا يتناولون موضوعاً من الموضوعات المحزنة للكتابة فيه
عن لسان غيرهم حتى يتأثروا به كأنهم أبطاله وأصحاب الشأن
فيه ، ولقد بدأت في كتابة هذا الكتاب وأنت مائل
في ذهني لا تفارقه ، فما زال يمتدبي الخيال ويطيرني في أجوائه
حتى تمثل لي أنني أنا الحزين المتألم ، والمفارق المفجوع ، وأن
الذي أصفه إنما هي هموم نفسي وآلامها ، فأنحدرت من عيني

بالرغم منى هذه الدمعة التي تراها ، فنظر اليه كرستيان
نظرة غريبة واختطف الكتاب من يده وقال له دعه معى
الآن ، ثم طواه ووضع في ثنايا قميصه وانصرف

« جواز المرور »

وقامت فى هذه اللحظة ضجة فى المعسكر وسُمت
أجراس مركبة قادمة من بعيد وصائح يصيح من رجال
الحرس بصوت غليظ أجش : من القادم ؟ فصعد سيرانو
وكرستيان إلى التل لينظروا ماذا جرى فأروا مركبة مقفلة
جميلة تحمل شارة من شارات الشرف ويجلس بجانب حوذها
غلامان حسنا الزى والهندام فاشك الجميع فى أنها قادمة من
باريس وأن راكبها رسول من قبل الملك يحمل أمراً من
أوامره ، فاصطفوا صفين متقابلين وسكنوا سكوناً
عميقاً لاحس فيه ولا حركة حتى وقفت المركبة على مقربة
منهم فأتلعوا إليها اعناقهم وشخصوا بأبصارهم لينظروا

من القادم ، ثم فتح بابها فاذا سيدة باهرة الجمال مشرقة الطلعة
وثبت منها وثبة الجؤذر من خميلته فصاح سيرانو
وكرستيان معاً بصوت واحد : رو كسان ! وكانت كما يقولون
فصعدت إلى التل بخفة ورشاقة حتى بلغت قمته وقالت
صباح الخير أيها الأصدقاء ، لعلمكم جميعاً بخير ، فرفع
الجنود قبعاتهم وأحنوا رءوسهم وعقدوا حولها نطاقاً منهم
ومن أنظارهم وظلوا باهتين لمرآهاذا هلين ، وكانما أدركهم الخجل
منها لرئاسة ملابسهم وتشعث هياتهم فظلوا يمسحون لحاهم
ويفتلون شواربهم ويقلبون النظر في أعطافهم ليروا هل
لصق بها أو خالطها ما تقذى به عيون السيدات الجميلات ،
ومرت بهم رو كسان في مواقفهم تحييمهم واحداً فواحداً
بابتساماتها اللامعة المتلاثلة وكلماتها العذبة الجميلة حتى بلغت
موقف كرستيان فألقت نفسها بين ذراعيه فقال لها وهو
ذاهل مدهوش : ما الذى جاء بك يارو كسان ؟ قالت . أنت
الذى جئت بي يا زوجي العزيز

كان سيرانو واقفاً مذرأها وراء إحدى الربوات
موقف الذهل المشدوه يُرعد ويضطرب ويغالب في نفسه
ثورة هائلة تمثوب نارها بين أضالعه، ثم ما لبث أن سمع
صوتها تناديه فانتبه من غشيته وتقدم نحوها وانحنى بين
يديها فابتسمت له وصاحت به مصافحة طويلة وقالت له :
لعلك بخير يا ابن عمي، قال نعم وأشكر لك تفضلك بزيارتنا
وإن كنت أرجو أن تكون زيارة قصيرة، قالت لماذا؟
قال لاننا في ميدان حرب وأخشى أن يصيبك من شرها
شيء، قالت بل سأبقى معكم أطول مما تظنون، فأعدوا
لى مقعداً أجلس عليه، فابتدر الجنود تلبية أمرها، ولم يبق
بينهم حامل طبل أو صاحب صندوق إلا قدمه إليها،
فجلست وهي تقول: ما أطول المسافة بين باريس وأراس:
لقد كنت أظنها أقصر من ذلك، ولقد مررت في طريق
بيلاد شملها الخراب والدمار ورأيت بعيني منظر الجائعين
والعارين والمتألمين والصارخين، وما كنت أحسب أن الحرب

تنال من الانسانية هذا المنال العظيم ، والحق أقول
يا أصدقائي إن العاطفة التي جاءت بي إلى هنا أجمل وأرق من
العاطفة التي جاءت بكم ، فكم بين من يأتي ليقبل حبيبه ، ومن
يأتي ليقتل عدوه ، والتفتت إلى كرستيان وقالت له : أليس
كذلك يزوجي العزيز ؟ قال بلى ، فقال لها سيرانو : ولكن
كيف استطعت اختراق خطوط العدو وبجشم هذه
المخاطر كلها ؟ قالت لقد كان ذلك سهلاً جداً يا ابن عمي ، واسمحو لي
أيها الأصدقاء أن أقول لكم : إن أعداءكم الأسبانيين قوم
ظرفاء أرقاء لم تسمح لهم شهاتهم وشرف نفوسهم أن يطلقوا
النار على امرأة عزلاء ، فلقد كنت كلما مررت بحارس من
حراسهم فتحت نافذة مركبتى وأشرفت عليه وابتسمت
في وجهه ابتسامة لطيفة فلا يلبث أن يستقبلني بمثلها ويتنحى لي
عن طريقى فأمضى في سبيلي ، فكانت الابتسامة هي «جواز
المرور» الذي فتح لي جميع الأبواب الموصدة أمامي حتى
وصلت إلى هنا ، قال ألم يسألك أحد عن وجهتك التي

تقصدينها؟ قالت كان اذا سألتى أحدهم قلت له : اننى ذاهبة
لرؤية عشيقى ، فتقع هذه الكلمة العذبة الجميلة من نفسه موقع
الماء من مهجة الظامى الهيمان فيبش فى وجهى ويحيينى
باحناء رأسه ويتركنى وشأنى ، فقاطعها كرستيان وقال لها :
ولكننى لست بعشيقك ياسيدتى بل زوجك ، قالت ما ارتبتُ
فى ذلك قط يا زوجى العزيز ، ولكن كلمة العشيق تنال من
نفس العاشق المفارق وكلكم ذلك الرجل مالا تنال منها كلمة
الزوج فسأحبنى واغفر لى ذنبى

وهنادخل الكونت دى جيش رئيس أركان حرب الجيش
فرأى رو كسان واقفة موقفها هذا بين الجنود فدهش دهشة
عظمى اذ رآها ودنا منها فخياها وقال لها : ما الذى جاء بك الى هنا
ياسيدتى؟ قالت جئت لأرى زوجى لأننى لم أتمتع برويته بعد
زواجى منه إلا تلك اللحظة القصيرة التى تعامها ، فارتدَّ
وجهه غيظاً وقال لها : لقد أخطأت بعملك هذا خطأ عظيماً ،
وليس من رأى أن تلبثى هنا بعد الآن لحظة واحدة ،

فأعدى عدتك للرجوع من حيث أتيت ، قالت لماذا ؟ قال
لأن المعركة ستدور بعد ساعة أو ساعتين ولا مكان للنساء
في ميادين الحروب ، فقال كرستيان : وسنموت في تلك
المعركة ياسيدي عن آخرنا لان الكونت أراد ذلك ،
فدعرت روكان واصفر وجهها والتفتت إلى الكونت
وقالت له أصحيح ما يقول ياسيدي ؟ إنك إذن تريد أن
أصبح أرملة ، قال لا وأقسم لك ، قالت ألا تعلم انه إذا قُدِّر
لي هذا المصير كان ذلك آخر عهدي بالدنيا ونعيمها واستحال
على عين الشمس أن تراني بعد اليوم إلا إذا استطاعت
أن تحترق بأشعتها صفائح القبور ؟ قال أقسم لك ياسيدي
انني ... فقاطعته وقالت : كيفما كان الامر فبحال أن أغادر
هذا المكان لانني أريد أن أموت مع أبناء وطني ، فهتف
سيرانو بصوت عال : لقد نطقت بكلمة الابطال ياسيدي
فاهنتك ، فابتسمت وقالت : ذلك لانني ابنة عمك

ياسيرانو ، فصاح الجنود جميعاً بصوت واحد : سندافع
عنك ياسيدتى إلى الموت ، قالت شكراً لكم يا أصدقائى ،
ذلك أملى فيكم وفى الدم الجاسكونى الذى يجرى فى عروقكم ،
فتقدم نحوها « كربون » قائد الفرقة وانحنى بين يديها وقال
لها : أمّا وفد أصبحت شريكتنا فى حظنا ومصيرنا فائذنى
لى أن ألبأ إليك فى طلبية واحدة ، قالت وماهى ؟ قال أن
تفتحنى يدك القابضة على هذا المنديل الحريرى الجميل ،
فلم تفهم ما يريد ولكنها فتحت يدها فسقط المنديل على
الأرض : فالتقطه وقال لها : إن فرقى ياسيدتى ليست لها
راية ، وسيكون منديلك هذا رايتها التى تقاثل فى ظلها ،
واعلمى أن جنودى سيموتون جميعاً دفاعاً عن الراية التى
قدمتها لهم أجمل فتاة فى فرنسا ، ثم عقد المنديل بسنان
رحمه الطويل وركزه على قمة التل ، فظلت الريح تعبث به
وظل الجنود ينظرون إليه نظر السائر الى نجمة القطب
الخافقة فى كبد السماء

« الوليمة »

فالتفتت رو كسان إلى الجنود باسمه وقالت: ألا تقدمون لي شيئاً من طعامكم وشرابكم أيها الاخوان فاني أكاد أموت جوعاً ! فنظر القوم بعضهم إلى بعض وقدمشت في وجوههم صفرة الموت ودهمهم من الأمر ما لم يكن يخطر لهم ببال فشعرت رو كسان بحيرتهم واضطرابهم فابتسمت وقالت أو قوموا بنا جميعاً إلى مطعم « راجنو » لتناول عنده من الطعام ما تريد ، فقال لها أحدهم : إنك تهزئين بنا يا سيدتي : فأين نحن من راجنو ومطعمه ؟ قالت إذن لا أستطيع أن أتصور كيف يكون سروركم واعتباطكم إذا علمتم اني قد نقلت لكم هذا المطعم وصاحبه من باريس إلى هنا ؛ وتركتم ذاهلين مدهوشين لكلامها وصعدت إلى التل وصاحت : راجنو ! راجنو ! هات لنا غداءنا ، فما أتمت كلماتها حتى أقبل راجنو والغلامان الخادمان يحملون على أيديهم سلال الخبز وصناديق

الخمر وأخذ اللحم الناضجة وأنواع الفطائر والحلوى فهتف
الجنود : راجنو ! راجنو ! وداروا به يحيمونه ويعتقونه
ويجاذبونه أثوابه فصاح فيهم : دعوني أيها الكسالى
واذهبوا إلى المركبة واحملوا الطعام الذى جئناكم به بانفسكم
فحسبنا ما حملنا لكم ، فهرعوا إلى المركبة وعادوا بما بقى فيها
من لحم وخمر وحلوى وفاكهة فرحين مغتبطين وهم يقولون
كيف غفلت عيون الاعداء ياراجنو عن هذا الطعام الشهى ؟
قال لأن عيون روكسان الجميلة كانت أشهى اليهم منه
وماهى إلهنية حتى استداروا حلقات واسعة وأنشأوا
يأكلون ويقصفون وروكسان قائمة فى خدمتهم تقدم
لهذا كأساً ولهذا رغيفاً ولهذا سكيناً ومدامعها تتلألأ
فى عينيها رحمة بهم وإشفاقاً عليهم وسيرانو واقف ناحية
ينظر إليها نظر السرور والغبطة ويردد بينه وبين نفسه !
ياملاك الرحمة والاحسان ! ياأجل نسمة طاهرة على وجه
الأرض ! يانفساً تقيّة صافية لم يخلق الله لها مثالا بين

نفوس البشر ، حسبى منك أن أدرك وأن ينفذ شعاع
من أشعة جمالك إلى قباي المظلم الحالك فيضىء ظلمته
ويشرق في جوانبه

وإنهم كذلك إذ سمعوا صوت الكونت دى جيش
مقبلا من بعيد فقال بعضهم لبعض : محال أن ينال هذا الرجل
البنغيض لقمة واحدة من طعامنا فلتطوعنه كل شيء حتى ينصرف
لسأته ، وماهى إلا كرة الطرف أن اختفى كل شيء في ثنايا
معاطفهم وفروج أكامهم ووراء صناديقهم ، ثم دخل
الكونت وهو يقول : ما هذه الرائحة الجديدة ؟ فصمت
الجنود ولم يقولوا شيئا ، فظل يقرب النظر في وجوههم فيرى
الحمرة التى سرت فيها من حرارة الغذاء ونشوة الشراب
فيعجب لها عجباً شديداً ، ثم قال مالى أراكم منتعشين متهللين
وعهدى بكم قبل هذه اللحظة تمهافتون جوعا وتتساقطون
ضعفاً واعياء ! فقال له سيرانو : انها صحوة الموت ياسيدى ،
فأشاح بوجهه عنه والتفت الى روكسان وقال لها : أباقية

أنت هنا حتى الآن ياسيدتى؟ قالت نعم، وما أنا ببارحة
هذا المكان حتى أعود بكم أو أموت معكم، فأطرق هنيهة
ثم رفع رأسه وهتف بكاربون فلباه ووقف بين يديه فقال له:
إنك ستدير المعركة المقبلة بالنيابة عنى يا حضرة القائد، قال
وأنت ياسيدى؟ قال أما أنا فباق هنا لأدافع عن روكرسان
بنفسى لأنى لا أستطيع أن أترك امرأة فى خطر، فأكبر
القوم جميعاً هذه الشهامة الكبرى والعظمة النفسية وهمس
بعضهم فى أذن بعض: إن الرجل لا يزال يجرى فى عروقه الدم
الجالسكونى، فقال لهم سيرانو: إذن يمكننا أن نقدم إليه
شيئاً من طعامنا وشرابنا، فاندفعوا جميعاً نحوه ومدوا
إليه أيديهم بما معهم من الطعام والشراب، فألقى عليهم
نظرة عالية مترفعة وقال لهم: نعم إننى أموت جوعاً وسغباً
ولكن الجالسكونى الشريف لا يأكل فضلات طعام غيره،
فصاح سيرانو: شهامة أخرى أيها الأصدقاء لا تنسوها له،
وهتف: ليحى الكونت دى جيش، فهتف الجند بهتافه

فشكروهم الكونت بايماءة رأسه ثم انشأ يخطب فيهم
خطبة الحرب ويلقى عليهم الاوامر العسكرية حتى قال لهم
وهو يشير إلى مدفع جاثم بين يديه : انكم ما تعودتم اطلاق
المدافع قبل اليوم ، فاعلموا ان المدفع يتراجع بشدة
عند خروج القذيفة منه فكونوا على بينة من
ذلك واحذروه ، فصاح أحدهم بصوت عال : ان مدفع
الجاسكونيين مثلهم ياسيدي لا يتراجع قط ، فابتسم
له وشكره وقال لا يخينن أملى فيكم يا أبناء وطني ، ثم
التفت إلى روكسان وقال لها تعالى معي ياسيدي لتشهدى
منظر استعراض الجيش ، فأعطته يدها فصعدا معاً إلى
قمة التل

وما أبعدا إلا قليلا حتى مشى سيرانو إلى كرستيان
وقال له همساً : كلمة واحدة أريد أن أقولها لك ياسيدي فامش
معى قليلا ، فمشى معه فقال له : ربما فاتحتك روكسان في شأن
الرسائل التي كانت ترد عليها منك وستقول لك انها

كانت تتلقى منك كل يوم رسالة فلا يدهشك ذلك
ولا ترتبك لئلا يفتضح الامر، قال وهل كنت تكتب
اليها كل يوم؟ قال نعم لأنني تعهدت لها عنك قبل سفرنا
كما تعلم أن تكتب اليها كثيراً فلم أر بداً من الوفاء،
وما كان يكلفني ذلك أكثر من التعبير عن شعورك وخوارج
نفسك وذلك ما لا ينقصني العلم به، فاذا فاتحتك في هذا
الشأن فلا يكن لك فيه قول غير الذي قلت لك، قال
وكيف كنت تستطيع توصيل هذه الرسائل اليها وقد
حصرتنا العدو من كل جانب وذادنا عن كل شيء حتى
عن طعامنا وشرابنا، قال الامر بسيط جداً، كنت أخرج
في سحر كل ليلة متنكراً تحت جناح الظلام فأكن
تارة وأظهر أخرى... فقطاعه كرستيان وقال له وهل
هذا بسيط جداً؟ الحق أقول لك يا صديقي إنني أصبحت
أعجب لامرك كثيراً، وإن استطعت أن أفهم كل شيء
فإنني لأستطيع أن أفهم اهتمامك بهذا الامر هذا

الاهتمام كله إلى درجة المخاطرة بحياتك في سبيله ، قال
ما في الامر مخاطرة ولا مجازفة ، فقد كان يلذ لي كثيراً أن
أقوم لك بهذه الخدمة وأن ألاقى ما ألاقى من الاخطار
في سبيلها ، قال وما الذي كان يعجبك من ذلك ؟ قال التمثيل
قال أى تمثيل ؟ قال تمثيل عواطفك وشعورك ، فانى مذ
أخذتُ نفسى بتمثيل دورك في هذه المأساة المحزنة لم
يزل يستهوينى التمثيل ويهيمن على نفسى حتى أصبحت
أتخيل أنى صاحب الدور الذى أمثله وأنى أنا المعنى
دونك بكتابة هذه الرسائل والعناية بها والتدرع بكل
وسيلة إلى توصيلها إليها ، قال وهل تبلغ لذة التمثيل بامرىء
هذه المبالغ كلها ؟ قال نعم ، وكثيراً ما أذرف الممثلون
دموعاً لم يذرفها العاشقون أنفسهم ، ثم التفت
فراى رويسان مقبلة فقال له : لقد فهمت الآن كل شىء
فكن حكيماً حازماً ، ثم تسلل إلى خيمته وتركه واقفاً مكانه

« حقيقة الجمال »

قال كرستيان لروكسان وقد جلسا معاً على بعض المقاعد : هل لك أن محدثيني يا روكسان ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ فاني لا أزال أعجب لأمرك كل العجب ولا أكاد أصدق أن الحب يحشم صاحبه هذه الاخطار التي جشمتها نفسك في سبيله ، قالت لقد سحرني وملكك عليّ لبي رسائلك العذبة الجميلة التي كنت ترسلها إلى صبيحة كل يوم وتودعها شعور قلبك وهو اجس نفسك وتمكثها بتلك اللغة الغريبة المؤثرة التي لولا مست الصخر الأصم لانفجر وتناثرت شظاياها في أجواز القضاء ، وقد حاولت كثيراً أن أثبت لها وأقاوم تأثيرها على نفسي بكل سبيل فغلبتني على أمري وقادتني اليك كما تراني ، قال أمن أجل بضع رسائل بسيطة . . . فقاطعته وقالت لا تقل بسيطة ، بل هي الوحي الالهي الذي ينزل على

نفوس الملهمين من البشر ، بل هي القوة الغيبية التي تهيم
على العالم وتحيط به من جميع أقطاره دون أن يدرك أحد
مكانها أو يعرف مآتها ، ولقد كان يخيل إلى وأنا أقرؤها
أنني أرى صورتك فيها كما يرى الناظر صورة البدر من
وراء السحب الرقيقة فأهوى إليها بفضي لاقبلها فاذا أنا
أقبل السطور والكلمات ، فأطرق كرستيان برأسه وقد
ألم بنفسه من الهم والكمد ما الله عالم به ، واستمرت
دوكسان في حديثها تقول ، إنني ما أحببتك يا كرستيان
حبا صادقا متغلغلا في أعماق نفسي الا منذ تلك الليلة التي
رأيتك فيها واقفا تحت شرفي تناجيني نجا عذبا رقيقا
بتلك النعمة الرقيقة المؤثرة وتقضى إلى بذات نفسك كأنك
قد ألمستني فؤادك ووضعت يدي على قلبك ، ثم توالى
على رسائك بعد ذلك فكنت أسمع فيها دائما تلك النعمة
الموسيقية الخلافة وكأنك لاتزال واقفا أمام شرفي تناجيني
فلا أستطيع أن أمك نفسي دون البكاء والحنين ، وأقسم

لك لو أن « بينيلوب » وردت عليها من زوجها « عولس »
تلك الرسائل التي وردت على منك لما أطاقت صبراً على
فراقه ولألقت بنسيجها الذي عرفت به في التارنج وذهبت
تفتش عنه بين سمع الارض وبصرها حتى تلقاه ، فقال
ونفسه تذوب حسرة وكدأً : ما كنت أقدر يا روكسان
أن تلك الرسائل الصغيرة تبلغ من نفسك هذه المبالغ
كلها ، قالت لقد كان سلطانها على نفسي عظيماً جداً ،
وكنت أعيد قراءتها مرات كثيرة حتى تشربها نفسي
وتتمثلها روعي ، وحتى كان يخيل إلي أن كل كلمة من كلماتها
ورقة تطير الى من أوراق روحك ؛ فما لبثت أن شعرتُ
أنني قد أصبحت ملكاً لك وأسيرة في يديك وأن أمر
نفسى قد خرج من يدي فلا حول لى فيه ولا حيلة

فاكتب كرسيتيان وتقبَّض وجهه وقال لها : أهدأ
كل ما جاء بك إلى هنا ؟ قالت نعم جئت لاستغفرك من
ذلك الذنب الذى أذنبته إليك ، فقد أحببتك لأول عهدى

بك لجمالك ورونقك وقسامة وجهك كأن الجمال هو كل
فضائلك ومزاياك ، فأهنتك بذلك إهانة عظمى ، أما الآن فاني
أجشو بيزيديك - لا يجسمي فانك لا تلبث أن ترفعني بيدك
بل بروحي التي لا يمكنك أن تغير مكانها منك أبداً -
طالبة صفحك وعفوك عن تلك الجريمة التي اقترفتها ،
وما أحسبك تضمن على بذلك في هذه الساعة التي تقف فيها
جميعاً على أبواب الابدية ونودع فيها الحياة الوداع الأخير
فانتفض كرستيان وشخص في وجهها ساعة ثم قال
لها : هذا شأنك في الماضي ، ثم ماذا كان بعد ذلك ؟ قالت
كنت بعد ذلك أكثر تعقلا وروية وأبعد فكراً ونظراً ،
فامتزج في نظري جمال صورتك بجمال نفسك فاستحالتنا
إلى صورة واحدة فاحبيتهما ، قال والآن ؟ قالت أما الآن
فقد انتصرت نفسك عليك انتصاراً عظيماً فأصبحت
لا أحب منك سواها ، ولا أشعر بسطان لغيرها على
قلبي ، فاصفر وجهه اصفراراً شديداً وأطرق برأسه وظل

يقول بينه وبين نفسه : إنها ما أحببتني في حياتها لحظة
واحدة ، واستمرت هي في حديثها تقول ، فليهنك ذلك
الحب الثمين يازوجي العزيز ، فان أسعد الناس حالا في هذه
الحياة وأحظاهم بنعمة العيش فيها أولئك الذين منحهم الله
نفساً جميلة شعرية تتعشقها القلوب وتشرها النفوس وتهفو
لها الأحلام وتقوم لهم في كل موقف ومقام مقام الجمال
العثماني ان فاتهم أو نزلت به كارثة من كوارث الدهر ، وما
الجمال العثماني الا سحابة رقيقة تطير بها برودة الهواء أو
هضبة ثلجية تذيبها حرارة الشمس ، وما أحب المحبون
قط في الصور الجميلة جمالها ورونقها ، بل جمال النفوس
الكامنة في طياتها ، ولا أبغض المبغضون في الصور الدميمة
قبحها ودمامتها بل قبح النفوس المستكنة فيها ، فاذا اختلف
العنوان عن الكتاب في احدي الحالتين كان الفوز العظيم
للجمال النفسي على صاحبه ، وانى أعترف لك يا كرستيان
باني ما أحببتك عند النظرة الأولى الا لجمالك ، لاني ما

كنت أرى في سماء حياتك كوكباً مشرقاً سواه ، وما هي
الأيام قلائل حتى أخذ ذلك الكوكب يتضاءل أمام عيني
شيئاً فشيئاً بجانب تلك الأشعة الباهرة التي كانت تتدفق من
ينبوع نفسك الجياشة الفيضانية حتى أصبحت لا أراه ولا
أشعر به ، فزاد اضطرابه واصفراره وظل ينظر إليها
نظراً غريباً حائراً ، فقالت له مالي أراك حزينا مكتئباً كأنك
في شك من هذا الانتصار العظيم الذي تم لنفسك عليك ،
فنظر إليها نظرة ساكنة جامدة ثم قال اسمعي يا روكسان ،
اني لا أحفل بهذا الحب ولا أغتبط به ولا أريد إلا أن
تنظري الى دائماً بتلك العين التي نظرت بها لأول عهدك
بي ، قالت اني أعجب لامرك كثيراً يا كرستيان ، فان الحب
الذي تؤثره وتغتنبط به حب تافه لا قيمة له ولا ثبات لظله ،
أما الآن فاني أحبك لصفاتك الكريمة النادرة التي قلما
اجتمعت لمخلوق سواك ، أحبك لكائك الخارق ، وفطنتك
النادرة ، وشرف عواطفك ، ورقة شعورك ، ولطف حسك ،

وسعة خيالك ، وذلك البيان الرائق الصافي الذي يشف عن
جوهر نفسك شفوف الغدير الساكن عن لآئمه وجواهره ،
أحبك من أجل ذلك كله حباً ثابتاً راسخاً لاتعبث به
صروف الدهر ، ولاتنال منه عاديات الأيام ، حتى لو استحالت
صورتك إلى صورة أخرى غيرها لما نقص جبي إياك ذرة
واحدة ، فارتعد كرستيان وشعر أن نفسه قد بدأت تتسرب
من بين جنبيه فديده إليها ضارعاً وقال الرحمة يا روكسان !
قالت : بل لو ذهب جمالك بمحاذة من حوادث القضاء
فأصبحت بشع الصورة دميم الخلقة . . . فقاطعها وصاح
دميم الخلقة ؟ قالت نعم وأقسم لك على ذلك يا زوجي العزيز
ويا أحب الناس إلي ، فظل يرتعد ويضطرب اضطراباً خيل
إليها أنها نشوة الحب وسكرة السرور فقالت له : أسعيد
أنت الآن يا كرستيان ؟ فنظر إليها نظرة غريبة لا يعلم
إلا الله ما يكمن وراءها وقال نعم سعيد جداً ، ومن هو أولى
بالسعادة مني ؟ ونهض قائماً يزيد الانصراف فقالت له

إلى أين؟ قال لم يبق بيننا وبين المعركة الا لحظات قليلة
ولا بد أن يكون هذا آخر اجتماع لنا، فالوداع ياروكسان
وداعاً لا لقاء من بعده، فاضطربت وقالت، ولم يغلب بأسك
على رجائك ورحمة الله أوسع من أن تضيق بك؟ قال
ان السعادة أضن بنفسها من أن تثبت زمنًا طويلًا في مكان
واحد فالوداع ياروكسان! وأخذ يبتعد عنها شيئًا فشيئًا
دون أن يضع يده في يدها أو يقبلها قبلة الوداع، فمشت
وراءه وهي تعجب لأمره وتقول: ما بالك يا كرستيان؟
قف قليلا لاقول لك كلمة واحدة ثم اصنع ما شئت، انك
لم تفهم غرضي، وأقسم لك أنك لو فهمته لعامت أني أحببتك
حبا ما أحبه أحد من قبلي أحداً، قال حسبك ياروكسان
وعودى الى هؤلاء الجنود المساكين البائسين فانهم يفكرون
في مثل ما أفكر فيه ويودعون الحياة كما أودعها، فذهبي
اليهم واجلسي بينهم قليلا وعزهم بابتساماتك العذبة الجميلة

عن همومهم وآلامهم ، أما أنا فذاهب لقضاء بعض الشؤون
وربما عدت اليك بعد قليل ، ثم اختفى عن نظرها

« المكاشفة »

دخل كرستيان على سيرانو في خيمته شاحب اللون
مكفهر الجبين فقال له سيرانو ما بك يا صديقي ؟ قال انها
حدثتني الآن حديثاً طويلاً علمت منه انها لا تحبني بل
ما أحبنتني قط في يوم من أيام حياتها ، قال ماذا تقول ؟
قال وأقول أيضاً انها تحبك أنت ولا تحب في الدنيا أحداً
سواك فانتفض سيرانو انتفاضة شديدة كادت تتطاير لها
أجزاء نفسه وقال أنا ؟ قال نعم لانها اعترفت لي بأنها
لا تحب مني الا نفسي ؟ وأنت نفسي التي تكمن بين أضالعي
فهي تحبك حب العابد معبوده ، وما جاءت هنا الا من أجلك
وما أشك في أنك تضمحلها في قلبك من الحب مثل ما تضمحل
لك ، فصرخ سيرانو وقال لا وأقسم ... فقاطعه كرستيان وقال

لا تفعل ، فلقد نمت عليك تلك الدمعة التي رأيتها بعيني
في كتاب الوداع الذي كتبتَه اليها ، وما هي بدمعة الشعر كما
تقول بل دمعة الحب ، وما كنت تكتب إليها عن لساني
كما تزعم بل عن لسانك أنت ، فاعترف بأنك تحبها ، فأطرق
سيرانو هنيئة ذهبت نفسه فيها كل مذهب ثم رفع رأسه
وقال نعم يا كرستيان أعترف لك بأني أحبها ، وأقسم لك
أنني ما طمعت فيها قط ، قال نعم أعلم ذلك فوارحمته لك
ولتلك الآلام الطوال التي قاسيتها في ماضي حياتك ، أما
الآن ففي استطاعتك أن تطمع فيها كما تشاء ، ولا يوجد
في العالم شيء يحول بينك وبينها ، قال لا أستطيع ، فإن من
يحمل وجها مثل وجهي لا يطمع في حياة الحب والغرام ،
قال إنها أقسمت لي أنني لو كنت بشع الخلقه دميم الوجه
لما نقص حبها إياي ذرة واحدة ، فانتعش سيرانو وقال :
أوقالت لك ذلك ؟ قال نعم ما زالت تقول لي حتى أملتني
وأضجرتني ، قال لا تحفل بقولها فهي فتاة شعرية الافكار

والتصورات تقول بلسانها غير الذي تضمرة في أعماق
نفسها ، فابق محبوبها الجميل كما كنت ولأبق أنا لسانك
الناطق بين يديها حتى يقضى الله فينا جميعاً بقضائه ، قال ذلك
مستحيل بعد الآن ، فاني أشعر في أعماق نفسي بخجل ما أحسب
إلا أنه سيقضى على حياتي قبل أن تقضى عليها القذيفة التي
تنتظرنى في ساحة القتال ، فاذهب اليها واعترف لها بكل
شئ وقل لها إن الرجل الذي أحببتَه من أجل ذكائه
وفطنته وذلاقة لسانه وقوة بيانه كاذب غاش ينتحل مواهب
الناس وفضائلهم لنفسه وليس له فيها من الخُط شئ ، قال
ذلك فوق الاحتمال يا كرستيان ، قال لا بد من ذلك فليس
من العدل أن أقتل هناءك من أجل أن الطبيعة جملتني بهذه
الخلية البسيطة من الجمال ، قال وليس من العدل أن
أجمعك في سعادتك لان الطبيعة منحتنى شيئاً من القدرة
على التعبير عن عواطفى ، قال لا بد أن تفاتحها في موضوع
حبك فأنت محبوبها الحقيقي ، أما أنا فخلعتك الجميلة التي

تلبسها وتتجمل بها ، فانزعها عنك وتقدم إليها بأى ثوب تريده
فهي لا تبالي بجمال الأثواب وزخرفها ، إننى ضنقت ذرعاً بهذه
النفس الغريبة التى أحملها دائماً بين جوانحى حتى وعيت بأمرها
عياء شديداً ولا راحة لى إلا فى الخلاص منها ، قال إنك
تريد شقائى يا صديقى ، قال لا بل سعادتك ، فاذهب إليها
وقص عليها القصة من مبدئها إلى منتهاها واترك لها الخيار
فى أمرها ، فان اختارتك فقد أنصفتك ، ولقد كان عقد
الزواج الذى جرى بيننا عقداً سرياً لا تحفل به الكنيسة ولا
يعبأ به الناس فما أسهل التخلص منه ، وإن اختارتنى لا أكون
غاشاً لها ولا خادعاً ، قال ستختارك أنت بلا شك ، قال
أرجو أن يكون كذلك ، وهاهى ذى مقبلة فاشرح لها كل
شئ ، أما أنا فذاهب الى نهاية الخط لشأن من الشؤون
لا بد لى من قضائه وربما عدت اليك بعد قليل ، فارتاب
سيرانو فى أمره وأمسك بيده وقال له ! إننى أقرأ على جبينك
آية اليأس يا كرسيتيان ، فهل تقسم لى أنك لا تقتل نفسك؟

قال نعم اقسم لك ألا أقتل نفسي ، ثم التفت فرأى روكسان
على مقربة منه فقال لها : سيحدثك سيرانو حديثاً خطيراً
فاذهبي اليه ، ثم وضع يده على مقبض سيفه فجرده من غمده
وهرع الى ساحة القتال وهو يقول الوداع يانور السماء

« الفاجعة »

فدنت روكسان من سيرانو وقالت ما باله ؟ إني أعجب
لامره كثيراً ولا أدري ما الذي دهاه ؟ فما هو ذلك الحديث
الخطير الذي تريد أن تحدثني ، قال لاشيء ، انه يهتم بأصغر
الأُمور وأبسطها ، فلقد كان يروى لي تلك المحادثة التي دارت
بينك وبينه منذ هنيئة ، قالت نعم ويخيل الي أنه لم يفهم غرضي
أو أنه في شك مما أفضيتُ به اليه ، واؤ كذلك يا صديقي اني
ما قلت له الا الحقيقة التي أعتقدها ، فاني أصبحت بعد
اطلاعي على تلك الرسائل البليغة التي كان يرسلها الي كل
يوم من ميدان الحرب مفتتنة بعقله وذكائه أكثر من

افتتاني بحسنه وجماله ، حتى لو استحالت صورته الى صورة
أخرى غيرها أو ذهب بجماله حادث من حوادث الدهر
فأصبح . . . ثم سكتت حياء وخجلا ، فقال : دميا ؛ قالت
نعم ولو أصبح كذلك ، قال وبشع الصورة ؛ قالت نعم ، قال
ومشوه الوجه ؛ قالت نعم ، قال وضحكة الناس وسخريتهم ؛
قالت إن من كان له مثل عقله ولسانه لا يكون ضحكة
الناس وسخريتهم ، وهنا سمعا أول طلقة من طلقات المعركة
فلم يحفلا بها واستمر سيرانو في حديثه يقول : أتحمينه رغم
كل شيء ؛ قالت نعم رغم كل شيء ، فقد غمر جمال نفسه جمال
صورته حتى أصبحت لأراها ولا أشعر بها ، فاعتبط سيرانو
في نفسه اغتباطاً عظيماً وعلم أنه قد أشرف على السعادة. التي
ظل ينتظرها أعواماً طويلاً ولم يبق بينه وبينها إلا كلمة أخرى
ينطق بها فإذا هي بين يديه

في هذه اللحظة أقبل « لبريه » من ناحية الميدان
مسرعاً وأسر في أذن سيرانو هذه الكلمة « قد قتل

كرستيان » فانتفض وقال وكيف قتل ؛ قال بأول قذيفة من
قذائف المعركة ، فاصفر وجهه وارتعدت فرائضه وغشت
على عينيه غمامة سوداء ، فمجبت روكسان لأمره وقالت
له مابك ياسيرانو ؛ قال لاشيء ، قالت أتم حديثك ، ماذا
كنت تريد أن تقول لي ؛ فصمت وأطرق هنيهة وظل
يقول بينه وبين نفسه : قد انقضى كل شيء ، فلا أستطيع
أن أقول شيئاً ، ولقد كان كركستيان صديقي وعشيرى
فليس فى استطاعتى أن أبني سعادتى على أنقاض شقائه ،
فظلت روكسان تنظر اليه ذاهلة حائرة وتقول لىمت
شعرى ماذا جرى ! وسيرانو مطرق لا يرفع رأسه حتى
أقبل جماعة من الجنود يحملون على أيديهم شيئاً مسجى
يشبه الجثة فوضعه ناحية فارتعدت روكسان وكأن نفسها
حدثها بما كان فظلت تنظر إلى ذلك الشيء باهتة مدهوشة
وتقول : انظر ياسيرانو ! ماهذا الذى أرى ! أتدرى ماذا
يحمل هؤلاء الرجال ؛ فانتبه إليها وقال دعهم وشأنهم ياسيدتى
واستمع بقية حديثي ، وحاول أن يجمع شتات ذهنه المبعثر

فلم يستطع ، فأخذ يتكلم كلاماً مضطرباً متقطعاً ويقول :
كنت أريد أن أقول لك . . آه ماذا كنت أريد أن أقول؟
لأستطيع أن أقول شيئاً ، فقد انقضى كل شيء ، كنت
أريد أن أقول . . . آه قد تذكرت ، أقسم لك ياروكسان
انك صادقة فيما قلت ، نعم كان كرستيان كما قلت فتى . . .
فقاطعته وصرخت وصرخة عظمى وقالت « كان ؟ » يخيل لي
أنك تراثيه ، ودفعت يديها دفعة شديدة وهرعت إلى الجثة
وكشفت الغطاء عنها فاذا كرستيان في سكرة الموت
فألقت بنفسها عليه وقد أصابها مثل الجنون وظلت
تبكي وتنتحب انتحاباً محزنًا وتصرخ صرخات مؤلمة ، ثم
لمحت في صدره الجرح الذي ينبعث منه الدم فمزقت قميصها
واقطعت منه قطعة وهرعت إلى موضع الماء لتبللها
ففتح كرستيان عينيه في تلك اللحظة وتأوه آهة طويلة
فدنا منه سيرانو وأكب عليه وهمس في أذنه : أبشر

يا كرستيان فقد بحت لها بكل شيء وخيرتها بيني وبينك
فاختارتك من دوني وهي لا تحب أحداً سواك ، وعادت
دوكسان وفي يدها القطعة المبللة فظلت تمسح بها الجرح
وتقول إنه لا يزال حياً ، وسيلتم جرحه بعد قليل ، وسيعيش
بجانبي دهرًا طويلاً ، أليس كذلك ياسيرانو ؟ ثم وضعت
خدها على خده فشعرت ببرودة الموت تسرى في جسمه
فاصفرت وتخاذلت أعضاؤها وظلت تناجيه نجاء محزنًا
مؤثرًا وتضرع إليه أن يعيش من أجلها لأنها في حاجة إليه
ولا تستطيع أن تهناً بالحياة من بعده ، ثم وضعت يدها
على صدره فعبثت بذلك الكتاب الذي كان قد أخذه من
سيرانو فأمرت نظرها عليه فوجدته معنونًا باسمها ورأت
عليه نقطة من الدم وتلك القطرة من الدمع فقالت وارحمته
له ! انه كان يحدث نفسه بهذا المصير الذي صار إليه ، واحتضنته
الى صدرها وظلت تقبله وتلمسه ففتح عينيه للمرة الأخيرة
غراها فاول أن يتحرك فلم يستطع فشقق شهقة كانت
فيها نفسه

« المعركة »

وكانت المعركة قد اشتدت ودوى الميدان بصرخات
الجنود وصياحتهم وقعقة السلاح وأزيز الرصاص وهتاف
القواد بالجند أن تقدموا ولا تقهقروا أيها الأبطال البواسل
وانزعوا النصر من بين مخالب أعدائكم انتزاعاً ، فهاج
الموقف نفس سيرانو ف جذب يده من يد رو كسان وكانت
أخذة بها ليهاجم مع المهاجمين فاستوقفته وقالت له ابق معي
قليلاً ياسيرانو ، فلقد مات كرستيان وليس لي في العالم من
يعينني على نكبتى فيه سواك ، لقد كنت الرجل الوحيد الذى
أعرفه حق المعرفة وأدرك ما شتمت عليه نفسه من
الفضائل والمزايا فقل لي ألم يكن فى حياته عظيماً ؟ قال
بلى ، قالت وذا هممة عالية لا تسمو اليها هم الرجال ؟ قال بلى ، قالت
وذا نفس عذبة صافية كأنها قطرة الندى المترقرقة فى الزهرة
الناصرة ؟ قال بلى ، قالت وشاعراً عبقرياً لم تطلع الشمس على

مثله في عهد من عهودها الخالية ؛ قال بلي ، قالت لقد
هوى ذلك الكوكب المنير من سمائه وأمحدرت تلك الشمس
المشرقة إلى مغربها من حيث لارجعة لها فوا أسفا عليه !
ثم صرخت صرخة تتقطع لها نياط القلوب وألقت بنفسها
عليه وظلت ترميه وتندبه وتذرف فوق جثته جميع ما أودع
الله عيونها من دموع ، فوقف سيرانو وجر د سيفه من
غمده وقال : إنها الآن تبكينني في بكائها على كرستيان فيجب
أن أموت ، وكان رصاص الاعداء يحصد الجاسكو نيز حصداً
فيمساقطون تساقط أوراق الشجر الجافة أمام الزوبعة
الهائلة وهم لا ينتنون ولا يتحلحلون والكونت دي جيش
في مقدمتهم يصيح بصوت عال : هاهو ذا جيش قائدنا
قد اقترب فاصبروا ساعة أخرى يتم النصر لفرنسا ، فصرخ
سيرانو : الوداع ياروكسان ، واندفع إلى قمة التل فاستقبله
الكونت واعترض طريقه وقال له : قف مكانك لا تلتق بيدك
إلى التهلكة فقد آن أوان الهزيمة أو هلك الجنود جميعاً ،



روكسان مكبة على جثة كرسيتيان وسيرانو يجرده
سيفه من نغمه ليهجم على الاعداء

قال ان الجاسكونيين لا يترجعون ولو أمرتهم بذلك ، فكل
أمرهم إلى ودعنى وشأنى فانى ناقم موتور أريد أن أنتقم
لصديقى الذى نكته ، وهنأى الذى فقدته ، فاذهب أنت
إلى روكرسان ودافع عنها كما وعدتها حتى تبلغ مأمنها

ثم صاح فى الجنود : تشجعوا أيها الأصدقاء ولا
تتهقروا ، فالحياة أمانكم وليست وراءكم ، تقدموا أيها الأبطال
وموتوا جميعاً ، فما فى الموت شىء سوى أن تنقلوا مكان
اجتماعكم من الارض الى السماء ، موتوا فالموت أهون عليكم من
أن تروا وطنكم ذليلاً فى يد أعدائكم ، قدماء أصدقائكم
ورفقائكم فما بقاءكم فى الحياة من بعدهم ! رفر ف علينا أيها
العلم الصغير المطرز باسمها وابعث فى قلوبنا جميعاً روح القوة
والشجاعة لنموت عن آخرنا تحت ظلك الخافق

فطل الجنود ثابتين فى أماكنهم ومنجل القضاء
يحصدهم حصداً حتى وصل جيش العدو إلى قمة التل وصاح
قائدهم : ألقوا بأسلحتكم أيها القوم فستموتون جميعاً إن لم

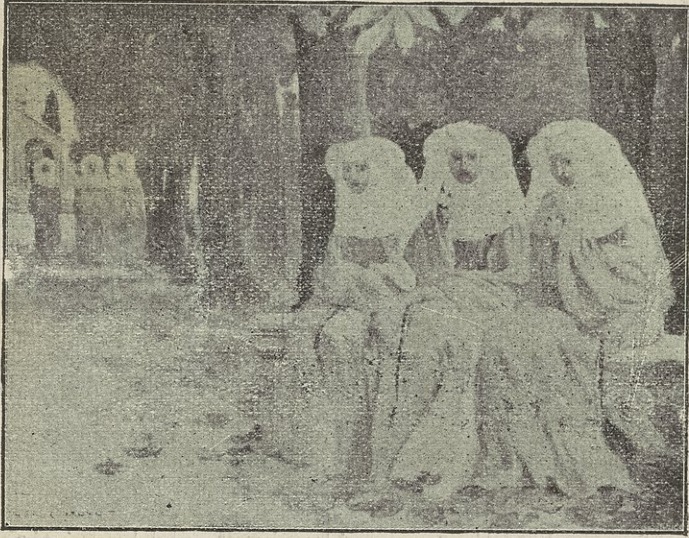
تساموا ولا يجدى عليكم الموت شيئاً ، فأجابه سيرانو لا يسلم
إلا الاذلاء الجبناء وما فينا جبان ولا ذليل ، المهجمة الأخيرة
أيها الأبطال فما هي طبول القائد الأعظم تدنو منا وتقترب
وليس بينكم وبين النصر إلا كرة واحدة
وكان الأمر كما يقول ، فما هي إلا ساعة أو بعض ساعة
حتى أشرف جيش القائد العام وهاجم الأعداء من خلفهم
فالتحم الجيشان ، وما هي إلا جولة أو جولتان حتى تم النصر
للراية الفرنسية على الراية الإسبانية ولكن بعد أن تلاشى
الجنود الجاسكونيون في المعركة جميعاً



الفصل الخامس

« بعد خمسة عشر عاماً »

لديرا الراهبات بباريس فناء واسع قد غرست في أنحائه بضعة
أشجار ضخمة باسقة قد تنارت من تحتها أواقها الساقطة
الصفراء ووُضع في وسطه مقعد حجري هلالى الشكل فخرجت
الراهبات بعد أداء صلواتهن في محاريبهن يتمشين في ذلك
الفناء ويتحدثن بأحاديث مختلفة لا يخلو بعضها من ذكر
العالم الدنيوى وشؤونه ، والحياة ووقائعها ، كان ذلك الحجاب
الحجرى الذى أسدل دونهن من الاسوار والجدران لم
يستطع أن يقطع الصلة بينهن وبين الحياة التى هجرتها
واطرحتها وأقسمن بين يدي الله أن ينسينها أبدا الدهر ، فلم يزل
بين جوانحهن بصيص ضعيف من تلك الذكرى يلمع من حين
إلى حين لأنهن لا يستطعن مهما بلغن من قوة اليقين



راهبات الدير جالسات في فناءه يتحدثن

اليقين ورسوخ الايمان وثبات العزيمة أن ينتزعن الطبيعة من
بين جنوبهن كما يرفعن قبعاتهن عن رؤوسهن وأرديتهن عن
أكتافهن ويرمين بها وراء تلك الأسوار والجدران كما
أرادت منهن ذلك الشرائع النظرية التي لاصلة بينها وبين
حقائق الحياة وطبائعها ، فقالت الأخت « مارت » للاخت
« كلير » لقد رأيتك اليوم واقفة أمام المرأة مرتين ، ورأيت
في يدك مشطاً تحاولين أن تمسطي به شعرك ، وسأرفع أمرك
الى الرئيسة ، قالت إنك لا تستطعين أن تفعلي إلا اذا
استطعت أن تحدثيني عن تلك الأغنية الغرامية التي كنت
تغنين بها ليلة أمس في غرفتك بصوت خافت شجي كأنك
تتذكرين بها عهداً قديماً ، فابتسمت الأخت « مارت »
وقالت : إنني ان أعفيتك من الشكوى الى الرئيسة فلن
اعفيك من الشكوى الى المسيو برجرانك عند حضوره ،
قالت كأنك تأبين إلا أن نصبح ضحكة الناس وسخريتهم ،
فسيرانو رجل شديد قاس يكره الحركات النسائية المتطرفة

وَيَنْعَى عَلَيْهَا نَعِيماً شَدِيداً ، قَالَتْ وَلَكِنَّهُ يَذْهَبُ فِي نَقْدِهِ
مَذْهَبَ التَّهْكُمِ الْبَدِيعِ الْمُسْتَطَرَفِ ، فَهُوَ إِلَى الْفَسَاةِ أَقْرَبُ
مِنْهُ إِلَى الْجَدِّ ، فَقَالَتْ الْأَخْتُ « مَارْجَرِيْتِ » : الْحَقُّ أَقُولُ
يَا أَخَوَاتِي إِنِّي لَمْ أَرِ فِي حَيَاتِي أَظْرَفَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ وَلَا
أَعْدَبَ مِنْهُ لِسَانًا وَلَا أَحْلَى مَجُونًا وَلَا أَطِيبَ قَلْبًا وَلَا أَنْقَى
سَرِيرَةً ، فَقَالَتْ لَهَا : « كَلِير » أَصْحِيحٌ يَا أَخْتَاهُ إِنَّهُ يَخْتَلِفُ
إِلَى هَذَا الْبَيْتِ مِنْذُ اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا ؛ قَالَتْ بَلْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ
مَنْ هَجَرَتْ ابْنَةَ عَمِّهِ الْأَخْتِ رُوكْسَانَ الْعَالَمِ الدُّنْيَوِيِّ
وَنَزَلَتْ بِنَا كَمَا يَنْزِلُ الطَّيْرُ الْحَزِينُ وَسَطَ الطَّيُورِ الْبَيْضَاءِ
وَمَزَجَتْ سَوَادَ رَهْبَانِيَّتِهَا بِسَوَادِ حِدَادِهَا ، وَسِيرَانُوهُوَ
الشَّيْخُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْزِي نَفْسَهَا وَيَمْسَحَ
دُمُوعَهَا وَيُخَفِّفَ أَحْزَانَهَا الْكَامِنَةَ فِي أَعْمَاقِ قَلْبِهَا ، فَقَالَتْ
« مَارْت » وَلَكِنَّهُ وَيَالِالْآسَفِ غَيْرَ مَتَمَسِّكَ بِوَأَجْبَاتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ ،
وَهُوَ إِلَى الْإِلْحَادِ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَى الْإِيْمَانِ ، فَقَالَتْ « كَلِير »
أُظَنُّ أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَهْدِيَهُ إِذَا نَحْنُ حَاوَلْنَا مِنْهُ ذَلِكَ ، وَهَذَا

أقبلت الرئيسة وقد سمعت هذه الكلمة الأخيرة فعلمت
أنهن يتكلمن عن سيرانو فقالت إنى أمنعكن جميعاً عن
مفاتيحه فى هذا الأمر فدعنه وشأنه والله يتولى أمره ،
فقال : « مارت » ولكنه مكابر عنيد لا يزال يولع بمحادثتى
ومغايظتى كلما رأتى ، فقد قال لى يوم السبت الماضى عند
حضوره انه أكل بالأمس لحماودسما فلم أطق استماع ذلك
منه وكدت أختصمه ، قالت لاتصديقه يابنيتى فانه حينما
جاءنا فى المرة الماضيه كان قد مر به يومان لم يذق
فيهما طعام الخبز ، فدهشت الراهبات جميعاً ونظرن الى
الرئيسة باهتات مذهولات فقالت لهن لا يدهشكن ذلك
يابنياتى ، فسيرانو رجل فقير معدم لا يملك من متاع الدنيا
شيئاً ، فقالت لها : « مرجريت » عجيب جداً ! من أخبرك
بذلك ؟ قالت صديقه « لبريه » قالت ألا يساعده أحد ؟
قالت لا ، لانه لا يريد ذلك

وإنهن لكذلك إذ أقبلت روكرسان من ناحية باب

الدير في لباسها الاسود وبجانها الكونت دي جيش وكان
قد وصل في مجده الديوى الى الغاية القصوى التي لا غاية
وراءها فأصبح القائد العام للجيش الفرنسى وأصبح يدعى
« الدوق مارينشال دي جرامونت » وكان قد أشرف في ذلك
الوقت على سن الشيخوخة فهدأت في نفسه تلك العواطف
القديمة الثائرة عواطف الشرور والشهوات فأخذ نفسه
بزيارة روكسان في ديرها من حين الى حين للتعزية والوفاء
والتكفير عن سيئاته الماضية اليها ، فلم يزل سائراً معها حتى
بلغا ذلك المقعد فجلسا عليه ، ثم نظر اليها نظرة حزينة
مكتئبة وقال لها : أهكذا تعيشين دائماً ياروكسان
في عزلتك هذه لا تفكرين في شأن من شئون الحياة ولا
تأسفين على عهد من عهودك الماضية ؟ قالت نعم دائماً ،
لا أذكر غيره ولا يمر بخاطرى شيء سواه ، قال وهل
غفرت لي ذلك الذنب الذى أذنبته اليك أم لا تزال في قلبك
بقية من العتب والموجدة على ؟ فأغرورت عيناها بالدموع

وصمتت هنيهة ثم رفعت نظرها الى صليب الدير العظيم
 المائل أمامها وقالت : مادمت في هذا المسكن وما دام هذا
 مائلا أمام عيني فانا أغتفر جميع الذنوب حاضرها وماضيها،
 قال : وارحمتهاء لذلك الفتي المسكين ! ما كنت أظن
 نفس إنسان في العالم تشتمل على مثل الصفات التي كانت
 تشتمل عليها نفسه لولا أنك أقسمت لي على ذلك ، قالت
 إنك لو عرفته معرفتي اياه لامتلاّت نفسك إعجابا به وإعظاماً
 له ولكان حزنك عليه عظيماً كحزني ، قال وهل لا تزالين
 محتفظة بكتابه الأخير حتى اليوم ؟ قالت انه لا يفارق
 صدرى قط كأنه الكتاب المقدس ، قال أتخبينه حتى بعد
 الموت ؟ قالت يخيلُ الى أحياناً أنه لم يميت لأن مكانه من
 قلبي لا يزال باقياً كما هو ، وكان روحه ترفرف عليّ وتتبعني
 حيثما سرت وأنى حللت ، ولا تزال ترنّ في أذني حتى الساعة
 تلك النعمة الجميلة التي كان يحدثني بها ليلة الشرفة كأن لم يمرّ
 بها إلا يوم واحد ، قال وهل يأتي سيرانو لزيارتك أحياناً ؟

قالت نعم ، يفتد إلى دائماً يوم السبت من كل أسبوع في ساعة
معينة لا يتأخر عنها ولا يتقدم ، فإذا حضر رأني جالسة
أمام منسجى فيجلس على مقربة منى فوق مقعد يعدونه
له ويبدأ حديثه معى بالهزل والمجون والسخرية بنى وبمنسجى
ويسميه الحركة الدائمة التى لانهاية لها ، فإذا فرغ من ذلك
أخذ يقص على حوادث الاسبوع يوماً فيوماً كأنه جريدة
أسبوعية ، واعلم ياسيدى ان ذلك الصديق القديم والاخ
الوفى هو الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يسرى عنى
بعض همومى وآلامى ويحمل عنى الشىء الكثير من أثقال
هذه الحياة وأعبائها ، ولولاه لمت فى عزلى هذه هما وكمدأ
وهنا فتحت باب الدير ودخل « لبريه » فتقدم نحو روكسان
فخياها فقالت له كيف حال صديقك يالبريه ؟ قال فى أسوأ
حال ياسيدتى ، فان غرابة أخلاقه وشذوذ طباعه وتهوره
فى ميوله وآرائه وصلابة عوده فى خصوماته ومناظراته قد
بلغت به المبلغ الذى كنت أتوقعه له من عهد بعيد ، الفقر

والعُدم، والشقاء والبؤس، والخصوم الالداء، والاعداء الثائرين
المتنمرين، الذين يكيدون له ليبلهم ونهارهم لا يهدءون ولا
يفترّون، وهو في غفلة عن هذا كله، لا يعجبه ولا يطر به ولا
يلذ له غير الانتقاد المر والتهم المؤلم بالاشراف والنبلاء ورجال
الدين والادباء والصحفيين والشعراء والمثاليين، لا يهادنهم
ولا يواتيهم، ولا يهدأ عنهم لحظة واحدة، فينعى على القسيس
نظرة واحدة يلقها عرضاً على وجه جميل، وعلى الشاعر معنى
بسيطاً يسرقه من شاعر متقدم، وعلى النبيل مشية الخيلاء
يمشيتها في طريقه، وعلى الصحفي نشر اعلان خمر في جريدته
أو خبر مكذوب، كأنه موكل بهداية البشر وتقويم اعوجاجهم
وتهذيب أخلاقهم، وكل ما يعتذر به عن نفسه إن لامه في ذلك
لائم أنه يقول ما يعتقد وينطق بما يعلم، كأنما لا يوجد
في العالم كله من يعلم ما يعلمه سواه

وما أظن الهيئة الاجتماعية التي يشا كسها ويشاورها
ويزعم انه قادر على تقويم معوجها واصلاح فاسدها تستطيع

الصبر عليه طويلا ، ويخيل الى أن انتقامها منه سيكون
هائلا جداً ، وانه سيموت عما قليل شهيد ذلك الشيء الذي
يسميه الحرية الفكرية والنقد الصحيح

فقلت رو كسان ولكن سيفه القاطع يحميه من هؤلاء
جميعاً ، قال ربما يحميه ولكنني أخشى عليه عدوا واحدا هو
أشد عليه من جميع أعدائه ، قالت ومن هو ؟ قال الجوع ، فانه
يقاسى من آلامه مالا يستطيع أن يحتمله بشر ، وكثيراً
ما قضى الليالى ذوات العدد شاداً منطقتة على بطنه من السغب
لا يشكو ولا يتبرم ولا يسمح لنفسه أن يمد يده الى أحد
غير خالقه الى أن تيسر له اللقمة التي يعتقد انها معجونة
بعرق جبينه فلا يتن بها عليه أحد حتى ذبل جسمه وشحب
لونه وعُرقت عظامه وأصبح أشبه بالهيكل منه بالانسان
أما اللباس فقد أصبح عارياً منه الا قليلا ، ولقد باع
في الاسابيع الاخيرة جميع ثيابه فلم يبق له منها الا رداء

واحد من الصوف الاسود يتعهده بالترقيع من حين إلى
حين ، ولا أدري ماذا يكون شأنه غداً اذا نزل به ضيف
الشتاء القادم فلا يجد في غرفته المظلمة الباردة بصيصاً
ولا قبساً

فقال الدوق : إنك تبالغ كثيراً يا لبريه في الحزن عليه
والرثاء له ، فسيرانو رجل عظيم لا يكثر بالآلام الحياة
ومصائبها ولا ينظر اليها بمثل العين التي تنظر بها اليها ،
ولقد عاش طول حياته حراً مستقلاً في آرائه ومذاهبه غير
مبال بما يلاقه في هذه السبيل من المسكاره والآلام ، ولا
يزال شأنه في حاضره مثله في ماضيه ، فاعجبوا به كل الاعجاب ،
ولا تهينوه بالتألم له والبكاء عليه

فدهش لبريه وظل ينظر الى الدوق نظراً حائراً مضطرباً
لانه ما كان يتوقع منه بعد الذي كان بينه وبين سيرانو أن
يجرى لسانه بكلمة ثناء عليه أو إعجاب به ، فقال له الدوق :
لا تعجب يا لبريه فاني وان كنت أعلم أنني قد نلت من حياتي

كل شيء ، وأنه قد حرم كل شيء ، فأنا أعتقد انه خير مني وأن
نفسه تشتمل على أفضل مما تشتمل عليه نفسي ، وليتني
أستطيع أن أستغفره ذنبي الذي أذنبته اليه وأن أضع يدي
في يده فأصافحه مصافحة الصديق للصديق

ثم نهض قائماً وقال استودعك الله ياروكسان ، فهضت
روكسان لتوديعه ومشت معه تشيعه الى الباب فقالت له
وهي تسايره وكان ذيل رداها يجر معه كثيراً من أوراق
الشجر الجافة المتساقطة فيحدث صوتاً أشبه بالحفيف :
أقول الحقيقة عن سيرانو ياسيدي أم أنت تهكم به ؟
قال لا بل أقول الحقيقة التي اعتقدها ، وأقسم لك
ياروكسان اني كثيراً ماغبطته بيني وبين نفسي وتمنيت
أن أكون مثله ، فدهشت وقالت ولكنك عظيم
يامولاي ، قال إن المرء حينما يصل الى ذروة العظمة في الحياة
لا بد أن تمر به ساعات مهما كان طاهراً وبريثاً يشعر فيها
ببعض آلام خفية تلذع نفسه وتؤلماها ، وربما لا تبلغ في
قوتها وتأثيرها مبلغ تبكيت الضمير ولكنها على كل

تزعجه وتقلقه وتستولى على شيء من راحته وسكونه ، وهل
استطاع العطاء أن يكونوا عطاء إلا لانهم ارتقوا اساماً
بنيت درجاتهم من جماجم الموتى وأشلائهم ، أو أن يناموا ملء
جفونهم إلا لانهم أسهروا كثيراً من عيون البائسين
والمعدمين في سبيل راحتهم وهنائهم ، أو أن يمشوا في طريقهم
رافعي الرؤوس شامخي الانوف إلا لأن وراءهم كثيراً من
المطرقين الصامتين الذين لا تفارق أنظارهم الارض هما وكذا ،
وربما لا يشعرون بشيء من تلك الجرائم التي يقترفونها وهم في
نشوة عزم وضوضاء عظمتهم ولكنهم متى خلوا الى أنفسهم
وأووا الى مضاجعهم ساورتهم تلك الآلام الخفية اللاذعة
التي لا يشعر بمثلها الجائعون والظالمون ، والمرضى والمعوزون ،
لا تصدقني يا سيدتي أن في الدنيا سعيداً واحداً قد خلت
كأسه التي يشربها من قذى ينغصها عليه ، ولا بد للعظيم وهو
صاعد الى قمة عظمته أن يشعر أن ذيل معطفه المسبل وراءه
يجر معه كثيراً من أنات الباكين وصرخات المتألمين الذين

بني عظمته على أنقاض شقائهم فيسمع لها خشخشة كخشخشة
الأوراق الجافة التي يجرها وراءه ذيل معطفك الآن
ثم وقف مكانه وأطرق برأسه طويلا فنظرت اليه روكسان
ذاهلة ووضعت يدها على عاتقه وقالت له : أتتألم يا مولاي ؟
قال نعم فما نحن سعداء إلا في أنظار الناس واعتباراتهم ، ولو
كشف لهم من خبايا نفوسنا ما كشف لنا منها ولمسوا
بأيديهم مواقع الألم من أفئدةنا الرثوانا أكثر مما نوثي لهم ،
ولرأوا أننا أولى بالرحمة والاشفاق منهم ، وليتهم يقفون على
هذه الحقيقة فيعلموا أن السلامة والنجاة وراحة النفس
وهدوءها في القناعة والاقبال فيستريحوا من هموم الأحقاد
وآلامها ، فانهم ما حسدونا ولا اشتعلت بين جوانحهم نيران
الحقد والموجدة علينا إلا لأنهم ظنوا أننا سعداء ، ولو
نظروا الينا بالعين التي ننظر بها الى أنفسنا لضرعوا الى الله
تعالى أن ينجيهم مما ابتلانا به ويريحهم من همومنا وشقائنا ،
ثم مديده اليها فصالحها وقال أستودعك الله ياسيدي ،

والتفت وهو منصرف الى لبريه وكان لا يزال واقفاً في مكانه
ففتف به فلباه فقال له لي كلمة أريد أن أقولها لك
فتعال معي ، فمشى وراه فالتفت اليه وقال له : نعم ان
صديقك سيرانو بطل شجاع كما تقول روكسان ،
ولكنني علمت من طريق خاص لأستطيع أن أبوح لك
به ان بعض أعدائه قد عزم على قتله غيلة فاذهب اليه
وحذره ، وليقلل من الخروج من منزله ما استطاع ، قال
ذلك مستحيل ياسيدي لأنه لا يهاب شيئاً ولا يخاف أحداً ،
قال لا تفارقه لحظة واحدة فحياته في خطر عظيم ، قال
سأفعل ما أستطيع يامولاي وسأشكر لك فضلك ما حميت ،
ثم تناول يده فقبلها وانصرف

فاسار الإقليميا حتى رأى « راجنو » مقبلا عليه يولول
ويستغيث فسأله ما باله ؟ فقال خطب عظيم يالبريه ! قال
أى خطب ؟ قال قد أصيب صديقنا ، قال : سيرانو ؟ قال
نعم ، قال قل كل شيء وأوجز ، قال خرجت اليوم من

منزلي ذاهباً اليه لزيارته في منزله فلما وصلت الى رأس الشارع
الذي يسكنه رأيته خارجاً من المنزل فهرعت اليه لا أدركه ،
حتى اذا لم يبق بيني وبينه إلا بضعة خطوات إذ سقط على
رأسه من نافذة أحد المنازل المهجورة جذع عظيم يخيل إلى
انه لم يسقط عفواً بل تعمد به متعمداً ، فصرخ لبريه : يا للندالة
والجن ! ثم ماذا ؟ قال فدنوت منه فرأيت ويا هول ما رأيت !
رأيت ذلك الصديق الكريم والرجل العظيم والشاعر النابغة
الجليل ملقى على الارض مضرجاً بدمائه وقد فتح في رأسه
جرح كبير . . . قال وهل مات ؟ قال لا ، ولكن حالته سيئة
جداً ، فحملته الى منزله أو الى ذلك الحجر الضيق الذي
يسمونه منزلاً . . . قال وهل يتألم ؟ قال لا ، لانه فقد رشده
فلم يعد يشعر بشيء ، قال ألم يزره طبيب ؟ قال : أشفق
عليه طبيب من جيرانه فزاره ، قال وارضاه لك أيها
الصديق المسكين ! لا تخبر روكسان الاًن بهذا الخبر ، وماذا

قال الطيب؟ قال لم أفهم من كلامه شيئاً، فانه أخذ يردد
كلمات كثيرة، حتى، التهاب، أغشية الخ، آه ياسيدي لو
رأيتك وقد دارت برأسه الأربطة والضماند وأصبحت
صورتك أشبه شيء بصور الموتى في قبورهم! هيا بنا نذهب
إليه فهو وحيد في غرفته وأخاف أن يحاول القيام من فراشه
فيستقط ميتاً، ثم ذهبنا يعدوان ويتلفان

« النعمة »

جلست رو كسان أمام منسجها في فناء الدير تنتظر حضور
سيرانو وكان قد جاء مبعاده الذي يحضر فيه من يوم السبت من كل
أسبوع وأخذت تقول: ما أجمل هذا اليوم! ان الخريف يخفف
عني كثيراً من آلامى التي يهيجها الربيع ويستثيرها، فحمداً لك
يا إلهى على ما منحت، وصبراً على ما ابتليت، ولك المنة
العظمى في حالى رضاك وسخطك، ونعمائك وبأسائك،
ما أعظم شكركى لك ياسيرانو! إنك رسول العناية الإلهية

إلى والعزاء الباقي لى فى هذه الحياة بعد ما فقدت كل عزاء
وسلوى ، فليت الله يتولى جزاءك عنى فاني لا أستطيع أن
أقوم بشكرك

وهنا حضرت راهبتان تحملان بن أيديهما المقعد الذى
اعتاد سيرانو أن يجلس عليه عند حضوره فوضعتاه وراء مجلس
روكسان فشكرتهما وانصرفتا ، ثم دقت الساعة الرابعة
فأصغت اليها روكسان حتى انتهت دقائقها ثم قالت : انه سيأتى
الآن ، وأخذت تردد نظرها جهة الباب هنيهة فلم يحضر ،
فدلت يدها إلى علبة إبرها وخبوطها وظلت تقول بينها وبين
نفسها : قد دقت الساعة الرابعة منذ دقائق ولم يحضر ،
أين خيوطى ؟ ها قد وجدتها ، هذا يدهشنى جداً ! انها
المرّة الأولى التى تأخر فيها عن ميعاده منذ خمسة عشر عاماً ،
لابد أن تكون الأخت « مارت » قد أزعمته بنصائحها
وعظاتها ، أين كستباني ؟ ليت شعرى ماذا حدث له ؟ قد



روكسان جالسه إلى منسجها تنتظر حضور سيرانو بقلق

أوشك الظلام أن يخيم وألوان الخيوط قائمة فلا أستطيع التمييز بين متشابهاتها ، انه ما تأخر عن زيارتي قبل اليوم ، ولكن لا بد أن يحضر الآن ، وهنا سقطت ورقة جافة من ورق الشجر على منسجها فاصفرت وقالت : ورقة ميتة قد انقضى أجلها فهوت الى مستقرها ، يا لله ! لا يمكن لشيء من الاشياء . . . ان الاوراق الجافة المتساقطة تزعجني جداً ، لا يمكن لأى شيء مهما كان أن يحول بينه وبين الحضور وما أتمت كلماتها حتى وقفت راهبة على رأس السلم وصاحت : السيد برجراك ! فانتعشت روكسان وقالت : ليدخل ، فدخل وهو مصفر الوجه يتوكأ على عصاه ويمشى ببطء شديد وقد أسدل قبعته على جبينه فسترت الضمائد المحيطة برأسه ، وكانت روكسان مشتغلة بترتيب خيوطها وإصلاح منسجها فلم تلتفت اليه حتى جلس على مقعده وحياها ، فقالت له بنعمة العاتب دون أن تلتفت اليه : هذه أول مرة تأخرت فيها عن ميعادك منذ خمسة عشر

عاماً ياسيرانو ، فأجابها بصوت قائم مظلم يحاول أن يجعله
ضاحكاً رناناً ، نعم ياسيدي ، ياغرائب الدهر .. ما كنت
أظن ان شيئاً في العالم حتى الموت .. يستطيع أن يحول بيني
وبين الحضور اليك في ميعادي .. آه انى أكاد أموت ..
غيطاً وحنقاً .. ماأخزنى عنك إلاضيف ثقيل^١ «يريدالموت»
جاء لزيارتي في وقت غير مناسب .. وماكنت أتوقع أن يفد
إليّ في مثل هذه الساعة ، قالت وكيف تخلصت منه ؟ قال
لم أتخلص منه حتى الآن ، وكل ما في الامر أنى اعتذرت
اليه وقلت له : إن اليوم يوم السبت وهو الميعاد الذى يجب
على فيه أن أقوم بزيارة صديق كريم لايمكن أن يحول
بينى وبين زيارته في هذا الميعاد حائل ، فذهب الآن وعد
إليّ بعد ساعة واحدة ، قالت إذن سيطول انتظاره لك
إذا عاد إليك لأنى لاأسمح لك بالخروج من هنا قبل المساء ،
قال ربما اضطررت للذهاب قبل ذلك ، وأنمض عينيه وأطرق
برأسه ، وكانت الأخت « مارت » مارة في تلك اللحظة

فأومأت روكسان إليها برأسها فحضرت فقالت لسيرانو وهي
لا تزال مشتغلة بترتيب خيوطها : انك لم تمزح مع الاخت
« مارت » كما دلتك ياسيرانو ، فانتفض ورفع رأسه
فدهشت « مارت » عند رؤيته وفغرت فاهها وحاولت
أن تتكلم فأشار إليها بالصمت فلم تفهم شيئاً ولكنها
صمتت ، فقال لها بصوت ضخم مضحك اقتربي
منى أيتها الأخت ، مالك تعرضين عني يا ذات العينين
الجميلتين ، هات يدك البيضاء لأقبلها باسم البركة والعبادة
لا باسم الحب والغرام ، اقتربي مني لا خبرك خبراً غريباً
جداً قالت وهي ترثي له وحاله وما هو ؟ قال : قد أكلت
بالأمس لحمًا ودسما فأرايك ؟ فهزت رأسها وظلت تقول بينها
وبين نفسها : وارحمته له ! انه يكذب علي ، وربما مر به
يوماً لم يذق فيهما طعم الخبز كما فعل في المرة السابقة ، ثم
قالت له : أحب أن تزورني في غرفتي قبل خروجك من
هنا فساقدم اليك هدية من الحلوى جميلة جداً ، فقالت
له روكسان احذر أن تذهب إليها ياسيرانو فانها تريد أن

تعظك ، فقال سيرانو أظن ان عطاتك الماضية يامارت
قد أخذت مأخذها من نفسى ، فقد أصبحت أقرب الى
الايمان منى الى الكفر ، ولذلك أسمح لك أن تصلى الليلة
فى معبدك من أجلى ، فدهشت « مارت » وقالت ماذا
تقول ؛ أهزل أم تجد ؛ قال قد فات وقت الهزل ولم يبق
أمامى إلا الجد ، فأنصرفت لشأنها وهى تعجب لأمره كل
العجب ، وأقبل هو على روكسان وقال لها وهى لانزال
مكبة على منسجها : ليت شعرى هل أعيش أو هل يعيش العالم
حتى يرى ختام هذا النسيج ؛ قالت كنت فى انتظار سماع
هذه الكلمة منك ياسيرانو ، إن نسيجى لا ينتهى حتى تنتهى
ملحك وأحماضك

وفى هذه اللحظة هبت ريح شديدة فتساقطت على
الارض أوراق كثيرة من أعلى الاشجار فانقبضت
روكسان وقالت ان تساقط هذه الاوراق يجرنى جداً ، قال
أما أنا فعلى عكس ذلك لانه يعجبني منها كثيراً انها رغم حزنها
على فراق أغصانها التى تركتها ورغم فزعها من الفناء الذى

يستقبلها على وجه الأرض فهي تتساقط برقة ورشاقة وتقضى
هذه السياحة القصيرة بين الحياة والموت مأسفة مختلفة
كأنها في حفلة رقص أو مجمع شراب ، فقالت إنى أسمع
منك نغمة حزن ياسيرانو فهل أنت حزين ؟ قال لا ،
وليس من عادتي أن أبدأ إلى الحزن فى أى موقف من
المواقف حتى فى الموقف الذى يحزن فيه الناس جميعاً ، قالت
فلندع الأوراق تتساقط كيفما تشاء وأسمعنى جريدتك
الاسبوعية فانى فى شوق عظيم اليها ، قال اسمعى ياسيدتى ،
وكان الألم قد نال منه منالاً عظيماً وبدأ الذهول يخيم على
عقله فأنشأ يقول

يوم السبت

أصيب الملك بمرض الحمى على أثر ثمانى أكلات
أكلها من عنب « سبت » فحك الطبيب على مرضه بطعنة
مبضع فى قلبه لاقترافه جريمة الاعتداء على صاحب الجلالة

يوم الأحد

أشعلوا ليلة الحفلة الكبرى فى قصر الملك ثلاثاً وستين

وسبعمائة شمعة بيضاء ، يقولون إن جيوشنا قد انتصرت
على جيوش جان النموسى ، شُنق أربعة من السحرة ،
حقنوا كلب السيدة « داتيس » الصغير
فاعترضته روكرسان وقالت ماهذه الأخبار ياسيرانو ؟
فاستمر في كلامه يقول

يوم الاثنين

لاشئ سوى أن « ليجندامير » استبدلت بعشيقتها ،
فتململت روكرسان وقالت : ماهذا الذى تقول ؟
إنك تمزح يا صديقى ، فلم يلتفت إليها وظل يقول

يوم الثلاثاء

انتقل البلاط كله إلى « فونتنبلو »

يوم الأربعاء

قالت السيدة « دى مونتجلا » للكونت دى فيسك

« لا »

يوم الخميس

توجت « فانسينى » ملكة على فرنسا وما هو فى معنى ذلك

يوم الجمعة

قالت السيدة « دى مونتيغلا » للكونت دى فيسك

« نعم »

وهنا ثقلت عيناها واحتبس صوته واهتز هزة شديدة
ثم سقط رأسه على صدره ، وساد من حوله سكون
عميق فاستغربت روكرسان سكوته والتفتت وراءها فرأته
على هذه الحالة ولم تكن قد نظرت إليه قبل هذه اللحظة
فارتاعت وهرعت إليه ووضعت يدها على عاتقه ونادته :
سيرانو ! فانتفض ورفع رأسه وظل يدير يديه حول قبعته
ويضغطها ضغطاً شديداً ويقول : لاشيء ، لاشيء ، أوكد
لك ياسيدتى أن الأمر بسيط جداً ، قالت : قل لى مابك
ياسيرانو ؟ وما هذه الغبرة السوداء المنتشرة على وجهك
قال : لاشيء ، إنه الجرح القديم الذى أصبت به فى معركة
« أراس » لا يزال يعاودنى من حين إلى حين حتى الآن ، فتنهدت

وأرسلت بصرها إلى السماء ثم قالت : كل منأ له جرح قديم
ياسيرانو ، غير أن جرحك في جسمك وجرحي هنا دائماً
لا يندمل أبداً ، وأشارت إلى قلبها ، ثم قالت : هنا كتاب
الوداع الاخير الذى كتبته إلى قبل موته قد تشعث وتقبض
واصفر ورقه ولا تزال آثار القطرتين ، قطرة الدمع وقطرة الدم
ظاهرة فيه ، فارتعد سيرانو وقال كتابه الأخير ؛ وشخص
ببصره إلى السماء كأنما يتذكر شيئاً بعيداً ثم قال : ألا
تذكرين ياروكسان أنك كنت وعدتني مرة باطلاعى
على هذا الكتاب ؟ قالت نعم أذكر ذلك ، قال هل لك أن
تبقى بوعدك الآن ؟ قالت هاهوذا ، ومدت يدها إلى صدرها
فأخرجت الكتاب من كيس صغير حريرى معلق فى عنقها
وأعطته إياه ثم عادت إلى مقعدها

وكان الليل قد بدأ يرخى سدوله على أكناف الدير
فأخذت روكسان ترتب خيوطها وإبرها لتضعها فى علبتها
وأخذ سيرانو يقرأ الكتاب بصوت عال رنان كأنما هو
مخطب أو يهتف أو يناجى ويقول

الوداع ياروكسان ، فاني سأموت عما قليل ، وربما
كانت هذه الليلة آخر ليالي في الحياة
كنت أرجو أن أعيش بجانبك لانولى حراسة سعادتك
التي عاهدت نفسي على أن اكفلها لك ماحييت ، فحالت
المقادير بيني وبين ذلك ، فليث شعري ماذا يكون
حالك من بعدى ؟

إنني لأخاف الموت من أجلى بل من أجلك ،
ويخيل إلى انك ستقضين بعد موتى أياما شديدة عليك
وعلى نفسك الرقيقة الحساسة ، وهذا كل جزعى من الموت ،
فوارحمته لك أيتها الصديقة المسكينة !

وكانت روكسان تصغى إلى قراءته ذاهلة مدهوشة
وتقول بينها وبين نفسها : ماأغرب صوته وما أعظم تأثيره !
إنه يقرأ وكأنه يتحدثني ويناجيني ، ويخيل إلى أن وراء هذه
النعمة الغريبة التي ينطق بها سرا كامنًا في أعماق نفسه
واستمر هو في قراءته يقول

ستغمض عيناى بعد قليل وستنطق تلك النظرات
التي كانت مرآتك الصقيلة التي تترآى فيها صورتك البديعة
الساحرة وترتسم فيها دقائق حسنك وأسرار جمالك فمن لك
بمراة ترين فيها نفسك بعد أن تمتلىء عيناى بتراب القبر
إن بين جنبي كنزاً ثميناً من حبيك لم أستطع أن
أكشف لك الا عن مقدار قليل من جواهره ولا آئمه ،
وكنت أود أن أفرغه جميعه بين يديك قبل موتى
ولكن ماذا أصنع وقد أعجلنى الموت عنه ولا حيلة لى
في قضاء الله وقدره

الوداع ياروكسان ! الوداع يا حبيبتي ؛ الوداع يا أعز
الناس على وآثرهم في نفسى ، ان قلبى لم يفارقك لحظة
واحدة في حياتى وسيبقى ملازماً لك بعد مماتى ، فليكن
عزائى عنك أن روحى ستترفرف عليك وتحوم حولك في كل
مكان تكونين فيه ، فكأننا لم نفرق وكأن حجاب الموت
المسبل دوننا وهم من الاوهام وباطل من الابطال



تصني روکسان بدهشة الى صوت سيرانو وهو يقرأ الكتاب
بنعمة ذكرتها شيئاً قديماً

وكان قد ذهل عن الكتاب الذي في يده وعن كل
ما يحيط به من الاشياء ولم يبق في خياله سوى أنه يناجى
المرأة التي يحبها ويفضى اليها بأسرار نفسه ويودعها الوداع
الاخير، فانغمض عينيه واستغرق في شعوره ووجدانه واستحال
صوته الى صوت غريب لا يشبه الاصوات في رنته ولنغمته
لانه صوت الروح وهتافها ونفثاتها المتصاعدة الى آفاق
السماء، فظلت رو كسان تضطرب وترتعد وتقول بينها
وبين نفسها! انها نعمة غريبة جداً تذكري بنعمة مثلها
سمعتها في ساعة من ساعات حياتي الماضية فليت شعري
متى كان ذلك؟

وكان الظلام قد نشر ملاءته السوداء على أكناف
الدير فالتفتت اليه وحدثت النظر فيه فامحت بياض الكتاب
في يده فعجبت له كيف يستطيع القراءة في هذا الظلام
الحالك، فهضت من مكانها ومشت نحوه تحتلص خطواتها
اختلاساً حتى بلغت فوقفت بجانبه فرأت عينيه مغمضتين

ورأته لا يزال مستمراً في قراءته ، فاشتد ذعرها وخوفها
ووضعت يدها على كتفه وقالت له كيف تستطيع القراءة
والظلام حالك وعيناك مغمضتان ، فانتفض انتفاضة شديدة
فسقط الكتاب من يده وسقط رأسه على صدره

وساد بينهما سكون عميق ذهب كل منهما فيه
عن نفسه ، ثم أخذت روكسان تستفيق شيئاً فشيئاً وتقول
بينها وبين نفسها : آه ماذا أرى ! ان الأمر هائل جداً ، إن
النعمة التي أسمعها منه الآن هي بعينها النعمة التي كانت
ترن في أذني ليلة الشرفة منذ خمسة عشر عاماً ! لا بد أن
يكون هو صاحبها ، آه ما أعظم شقائي ! لقد فهمت الآن
كل شيء وليتني ما فهمت شيئاً ، ثم وقفت أمام سيرانو
صامتة مطرقة حتى استفاق من غشيته فتقدمت نحوه
وأخذت بيده وقالت له لا تخف عنى شيئاً يا صديق فقد علمت
الحقيقة المؤلمة التي لا ريب فيها ، لقد كنت أنت الذي ناجاني
ليلة الشرفة وحدثني عن الحب وكشف لي عن خبايا القلب

الانسانى ، فقاطعها وهو يرتجف ويرتعد وقال : لا لا ،
لم أكن أنا ، قالت وكان الظلام فى تلك الليلة حالكا جيداً
فلم أستطع أن أتبينك لأعلم أنك أنت الذى يحدثنى ويناجينى ،
فصاح لا وأقسم لك ، قالت وكانت تلك الكلمات العذبة
الجميلة التى سحرتنى وملكت على شعورى ووجدانى
كلماتك ، فصرخ لابل كلماته ، قالت وذلك الصوت الموسيقى
الذى كان يرن فى أذنى رنين القيثارة الاكلمية فى آذان سكان
السماء كان صوتك ، قال لا ، قالت وتلك الرسائل البليغة
المؤثرة التى جشمتنى مشقة السفر من باريس إلى أراس
كانت رسائلك ، قال لا ، قالت وذلك الكتاب الذى قرأته
الآن بتلك النعمة العذبة الجميلة كان كتابك ، قال لاتصدقنى
ذلك ياسيدتى فما أذكر انى أحببتك فى حياتى قط ، قالت أحببتنى
ولا تزال تحببى حتى الساعة ، قال ذلك مستحيل لان مثلى
لا يجرؤ على أن يحب مثلك ، قالت ذلك ما حملك على كتمان
أمرك وتمثيل هذا الدور المحزن الاليم ، قال وقد بدأ

صوته يضعف ويتهدج إنك واهمة ياروكسان ، قالت ما نابوا همة
ولا مخدوعة ، ولم كتمت أمرك عنى هذه السنين الطوال مادمت
تخبئى وما دام هذا الكتاب كتابك وهذه الدمة دمعتك ؟
قال ولكن الدم دمه ، قالت قد اعترفت من حيث لا تدرى
فوارحمتاه لك أيها البائس المسكين ! وأطرقت برأسها
اطرافاً طويلاً لا يعلم إلا الله ماذا كانت تحدثها نفسها
فيه ، وانهما لكذلك إذ دخل لبريه وراجنو وهما يصيحان
ويولولان حتى دنوا من سيرانو فقال له لبريه : ماذا صنعت
بنفسك أيها المسكين ! ولماذا جئت إلى هنا وقد أوصاك
الطيبب بملازمة فراشك لا تبرحه لحظة واحدة ، فصاحت
روكسان : الطيبب ؟ ولماذا ؟ قال لبريه : ألا تعلمين ما حل
به ياسيدي حتى الآن ؟ قالت لا أعلم شيئاً ، فأراد أن يقص
عليها القصة فقاطعه سيرانو وقال له أتدرى يا لبريه لم جئت
إلى هنا رغم أوامر الطيبب ؟ قال لا ، قال لا تلوعلى روكسان

الجريدة الاسبوعية التي اعتدت ان أتلوها عليها يوم السبت
من كل أسبوع ولا أستطيع أن أخلف وعدي لها، ثم
التفت إلى روكان وقال لها: إنني لم أتم لك جريدتي
الاسبوعية فاسمحي لي باتمامها ثم أنشأ يقول:

وفي يوم السبت الثالث والعشرين من شهر مايو سنة ١٦٥٥

« قتل المسيو سيرانو دي برچراك »

وهنا حسر قبعته عن رأسه فظهرت الأربطة
والضماند المحيطة به مضرجة بالدم، فذعرت روكان
وحنت عليه وقالت ما صنعوا بك يا صديقي؟ قال كنت أتمنى
طول حياتي أن أموت في ميدان حرب بضربة سيف من
يد بطل، فقضى الله أن أموت في زقاق ضيق بجذع
شجرة من يد خادم لا كون قد حرمت كل شيء في حياتي
حتى الميتة التي أحبها، وأطرق برأسه نافية وظل على ذلك
ساعة وقد ساد من حوله سكون عميق لا تسمع فيه إلا
معممة الاحشاء المتقدمة في قلوب الجائنين حوله



حسر سيرانو القبعة عن رأسه ففهمت رو كسان كل شيء

ثم استفاق قليلا فرفع رأسه وفتح عينيه فرأى راجنو
جائيا تحت قدميه يبكي وينتحب فقال له لا تبك ياراجنو
وقل لي مامهنتك اليوم؟ فان لك في كل يوم مهنة جديدة،
قال أنا الآن خادم عند «مولير» ولكني سأترك خدمته منذ
الغد، قال لماذا؟ قال لانه لص من لصوص الأدب وهم
عندى أقبح اللصوص وأسفلهم، قال وهو يتسم هل
سرق من شعرك شيئا؟ قال لا بل من شعرك أنت، فقد
سطا على روايتك «أجريبين» فأخذ منها موقفاً كاملاً
وضمنه روايته الجديدة «إسكابين» التي مثلت ليلة أمس،
قال لقد أحسن فيما فعل، وماذا كان وقع ذلك الموقف
في نفوس الجماهير؟ قال مازالوا يضحكون حتى رحموا
أنفسهم، قال ذلك كل ما بهمني، فلقد قدر لي طول عمري
أن يكون دوري في رواية الحياة دور الملقن الذي لا يعده
الجمهور شيئاً وهو كل شيء، ثم التفت إلى روكسان وقال
لها: أتذكرين تلك الليلة التي كنت أحدثك فيها بلسان

كرستيان ؟ قالت نعم أذكرها ولا أذكر شيئاً سواها ،
قال إنها رمز حياتي من أولها إلى آخرها ، صعد كرتيان
منذ خمسة عشر عاماً إلى شرفتك ليتناول القبة التي سمحت له
بها مكافأة له على تلك الكلمات البليغة المؤثرة التي أنا صاحبها
ومبتكرها ، واليوم يتمتع « مولير » بهتاف الجماهير وتهليلهم
عجاباً بتلك القطعة الهزلية البديعة التي خطها قلبي ، وما
أنا بأسف على ذلك ولا واجد ، فكرستيان فتى جميل فيجب
أن ينال هو القبة ، ومولير شاعر شهير فيجب أن يكون
هو صاحب القطعة

والتفت حوله فرأى الراهبات داخلات إلى الكنيسة
في ملابسهن البيضاء وهن يرتلن صلواتهن على نعمات
« الارغن » فأصغى إلى أصواتهن ساعة ثم تأوه طويلاً
وقال آه ما كنت أعياً بالحياة ولا أسف على شيء فيها
لولا الموسيقى وروكسان ، وأن كان صحيحاً ما يقولون
من أن في السماء موسيقى كما في الارض وأن الصديقين

الذين يفترقان في هذه الدار يلتقيان في الدار الاخرى غداً
فليس ورأى ما آسف على فراقه

فصاحت روكسان ابق في الحياة ياسيرانو فأنتى أحبك ،
قال ذلك مستحيل ، إلا إذا استطاعت كلمتك هذه أن تحو
قبحتى ودمامتى ، كما رووا في بعض الاساطير ان أميراً دميم
الخلقة سمع مرة من يقول له إني أحبك فتلاشى قبجه بتأثير
تلك الكلمة وأصبح جميلاً وضيئاً ، ولو أننى عشت بعد
اليوم ألف سنة ما نقص ثقل أننى قيراطاً واحداً ، فبكت
واشتمد نسيجها وقالت اغفر لى ذنبى ياسيرانو فقد كنت
السبب فى جميل ما حل بك فى حياتك من المصائب ، قال
لابل بالعكس ، فلقد قضيت حياتى كلها محروماً لذة عطف
المرأة وحنانها حتى ان أى كما حدثونى لم تكن تستطيع
أن ترانى جميلاً كما يرى الامهات اولادهن المشوهين ،
ولو كانت لى أخت أو عممة أو خالة لكان شأنهن معى ذلك
الشأن ، ولم أرى يوماً من الايام فى عيون النساء جميعاً جميلات

كنّ أودمجات غير نظرات الهزء والسخرية والنفور
والاشمزاز، وأنت المرأة الوحيدة التي استطاعت أن تتخذني
صديقاً واستطعت أن أجباً من عطفها ورحمتها إلى ظل ظليل،
فما أعظم شكرى لك، فقالت عش ياسيرانو فاني أحبك،
بل ما أحببت في حياتي أحداً سواك، وما لبست ثوب الحداد
خمسة عشر عاماً إلا من أجلك، قال لاتحاولى الغدر
بكرستيان ياسيدتي واحذرى أن يخف حزنك عليه وبكاؤك
على مصرعه فانه صديقي، وكل ما أطلبه اليك أن تضحى الى
شارات حدادك شارة صغيرة من أجلى ليكون حزنك على
جزءاً من حزنك عليه، فصاحت: آه ما أشقاني! لقد أحببت
في حياتي حبيباً واحداً ففقدته مرتين

وكان كوكب الليل قد أشرق من مطلعته فانبسطت
أشعته في فناء الدير فانتعش سيرانو حين رآه وقال ها هوذا
صديقي « فيديه » قد أرسل إلى أشعته لتحملني اليه فشكراً
له على ذلك، سأصعد الليلة إلى السماء على نعش جميل من تلك

FIRST WARD BRANCH

— ٣٤٢ —



سيرانو يصغى إلى ترتيل الراهبات صلواتهن وهن داخلات
إلى الكنيسة

الأشعة الفضية اللامعة دون أن احتاج الى تلك الآلات
الرافعة التي سردتها على الكونت دي جيش ، وسيكون
مقامي هناك في ذلك الكوكب الجميل مع تلك النفوس العظيمة
التي أحبها وأجلها ، سقراط وأفلاطون وغاليلي وجميع الذين
ماتوا ضحايا صدقهم وإخلاصهم

وهنا انتخب لبريه وقال : وا أسفا عليك أيها الصديق
الكريم ! وما أشد ظلمة الحياة من بعدك ! فانتبه اليه سيرانو
وقال له : لا تحزن على كثيرأ يا لبريه فاني ذاهب لملاقاة صديقي
كربون دي كاستل وسائر أبناء وطني الذين ماتوا ميتة الشرف
والفخار في ميدان أراس ، وسيكون مجتمعنا هناك جميلا
جدأ لا يكدره علينا ممثل ثقيل ولا نبيل جاهل ولا
شاعر مغرور

وصمت صمتأ طويلا كان يعاني فيه من الآلام مالا
يحتمله بشر ثم ثار من مكانه هائجا مضطربا وجر د سيفه من

غمده وأخذ يصيح : لالا ، لا أريد أن أموت على هذا
المقعد ميتة العاجز الجبان ، فدعر أصدقاؤه ونهضوا
بنهوضه وحاول راجنو أن يمسكه فدفعه عنه وأسند
ظهره الى شجرة ضخمة وقال دعوني فاني أريد أن أموت
واقفاً ، وأخذ ينظر أمامه ويحدق النظر كأنما يرى شيئاً
مقبلاً عليه ثم قال : تعال أيها الموت ! تقدم ولا تخف !
فقد أصبحت رجلاً ضعيفاً خائراً لا قبل لي بموائبتك
ومغالبتك ، تقدم فما أنا بسيرانو دي برچراك ، إنما أنا خياله
الماضي وصورته الضئيلة ، فهل بلغ بك الجبن أن تخاف
الصور والخيالات ؟ لقد ضعف في يدي ذلك السيف الذي
كنت أقاتلك به وأصبح رأسي ثقيلاً ويداي مغلولتين
وكانت قدمي مصبوباتان في قالب من الرصاص ، أقبل ولا
تخف ، مالي أراك تنظر إلى أنفي نظر الساخر الهازيء ؟
أشمانته هي أيها الساقط الجبان ؟ ماذا تقول ؟ تقول انك أقوى
مني ؟ نعم ما أنكرت عليك ذلك ، ولكنني على هذا سأقاتلك

وأثبت لا لاني أطمع في أن أنتصر عليك ، بل لأنى أريد
أن أموت ميتة الابطال من قبلى

ثم أخذ يدير عينيه يمنة ويسرة ويقول من هؤلاء ؟
مرحبا بكن أيتها الرذائل ، لقد عرفتكى بأعدائى القدماء ،
ما أ كثر عددكن وأقبح وجوهكن ، نعم سأموت
ولكن بعد أن شفيت منكى غليلى ومثلت بكن أقبح
تمثيل ، أغربى من وجهى قبحكى الله وقبح صوركن وأزياءكن
وظل يطعن بسيفه يمينا وشمالا وأمام ووراء ويقول
خذ أيتها الكذب ، خذ أيتها الطمع ، مت أيتها الغدر ، تبألك
أيتها السفالة ، سحقاً لك أيتها الخيانة

وظل يدور حول نفسه ساعة حتى بلغ منه الجهد
فسقط بين أذرع ابريه وراجنو ، وظل على ذلك هنيهة ثم
فتح عينيه وحدق النظر أمامه طويلا وقال : تقدم أيتها
الموت وخذ ماتريد منى ، أتدرى ماذا تستطيع أن تسلبنى !
إنك تستطيع أن تسلبنى حياتى وجسمى وهذا السيف العزيز

DISCARD

— ٣٤٨ —



سيرانو يجارب الرذائل وهي تتمثل له في صور أشباح مخيفة

على وهذه الريشة التي وضعتها يد الفخار في قبعتي بل جميع
ماتلك يدي ، ولكن شيئاً واحداً لا تستطيع أن تسلبنيه ،
وسيرافقني في سفرتي التي انتويتها الى السماء حتى أقف به بين
يدي الله تعالى رافع الرأس عزة وفخاراً وهو . . . وهناعجز عن
النطق فحاول أن ينطق الكلمة التي أرادها فلم يستطع ،
فانحنت عليه روكسان وقيلته في جبينه وأرسلت دمعة حارة
على وجهه وقالت : وما هو ياسيرانو ؟ ففتح عينيه للمرة
الأخيرة فرآها فابتسم وقال : حريتي واستقلالتي !

ثم خفق قلبه الخفقة التي لم يخفق بعدها

وكذلك انقضت حياة هذا الرجل العظيم كما تنقضي
حياة أمثاله من العظماء لم يتمتع يوماً واحداً بروية مجده
وعظمته حتى اذا قضى سمح له التاريخ بعد مماته ، بما ضن
به عليه في حياته

*
**

مكتبة جامعة القاهرة
القاهرة

DISCARD

— ٣٥٠ —

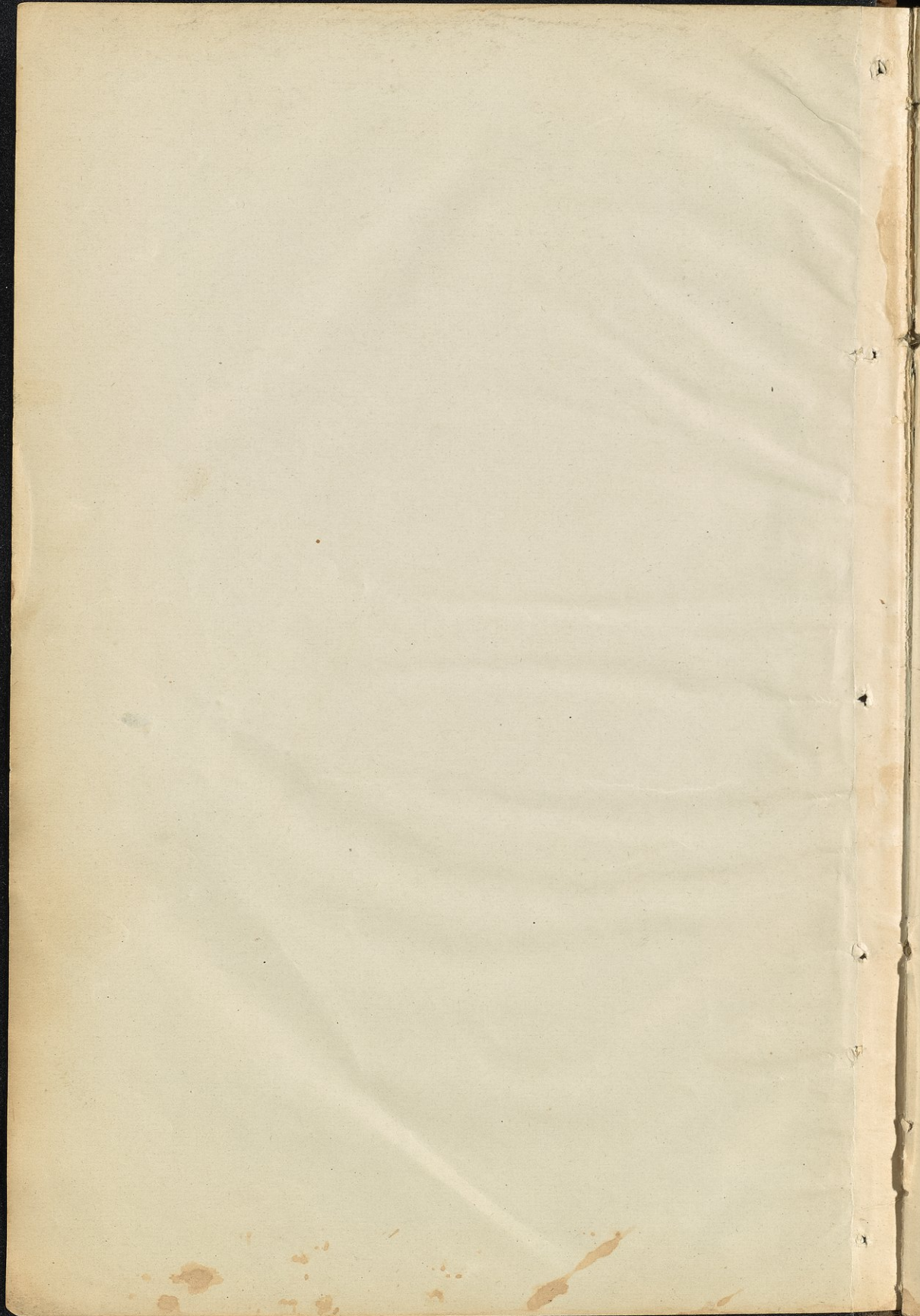
أما روكسان فلم يعلم الناس من أمرها بعد ذلك شيئاً
سوى أن مقعدها الذي كانت تقعد عليه أمام منسجها قد
أصبح خالياً مقفراً ، فلم يعرفوا ألزمت جوف محرابها تدعو
الله تعالى ليلها ونهارها أن يلحقها بصديقها أم رقدت بجانبه
في مقبرة الدير الرقدة الدائمة

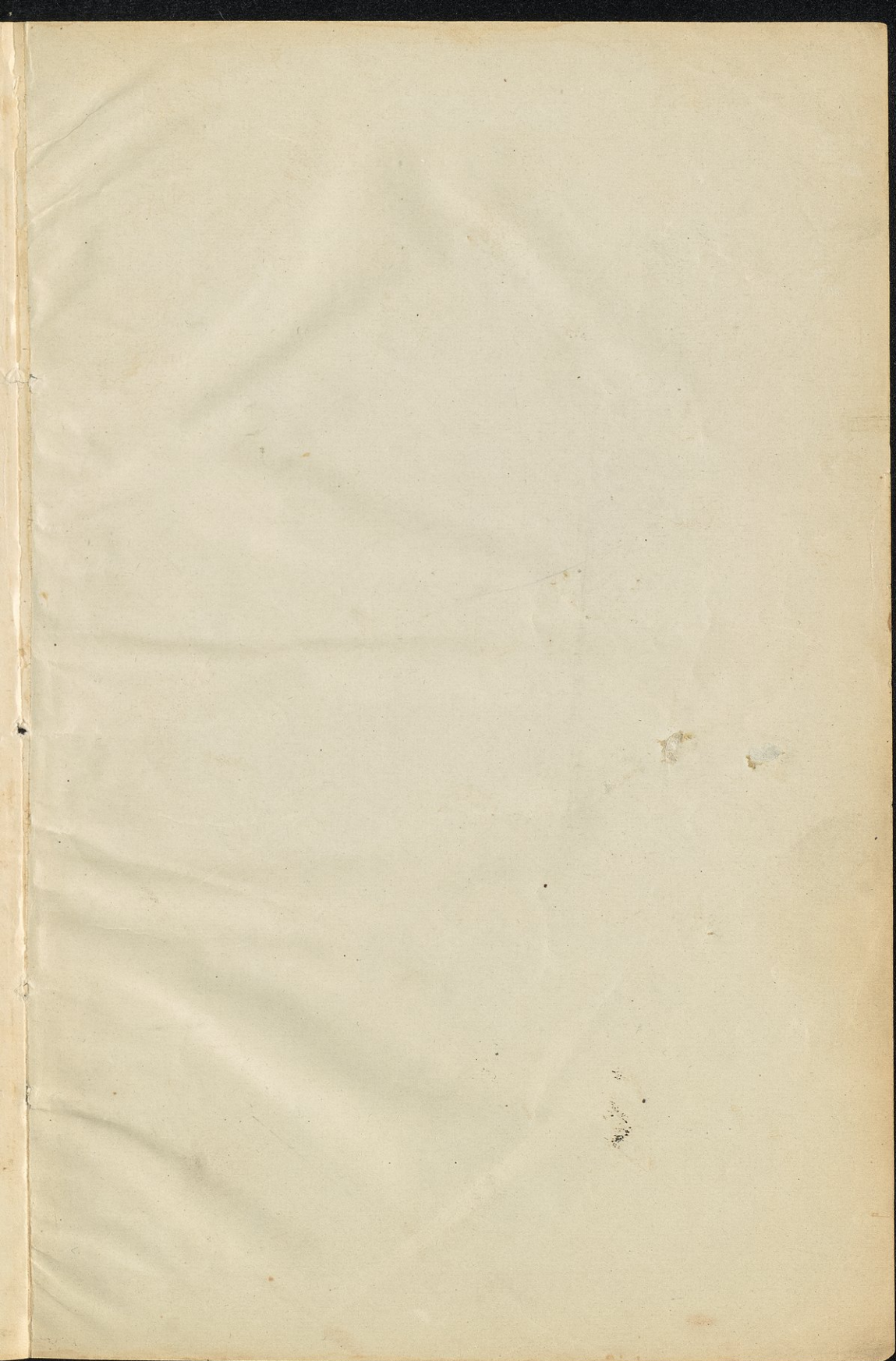
تمت

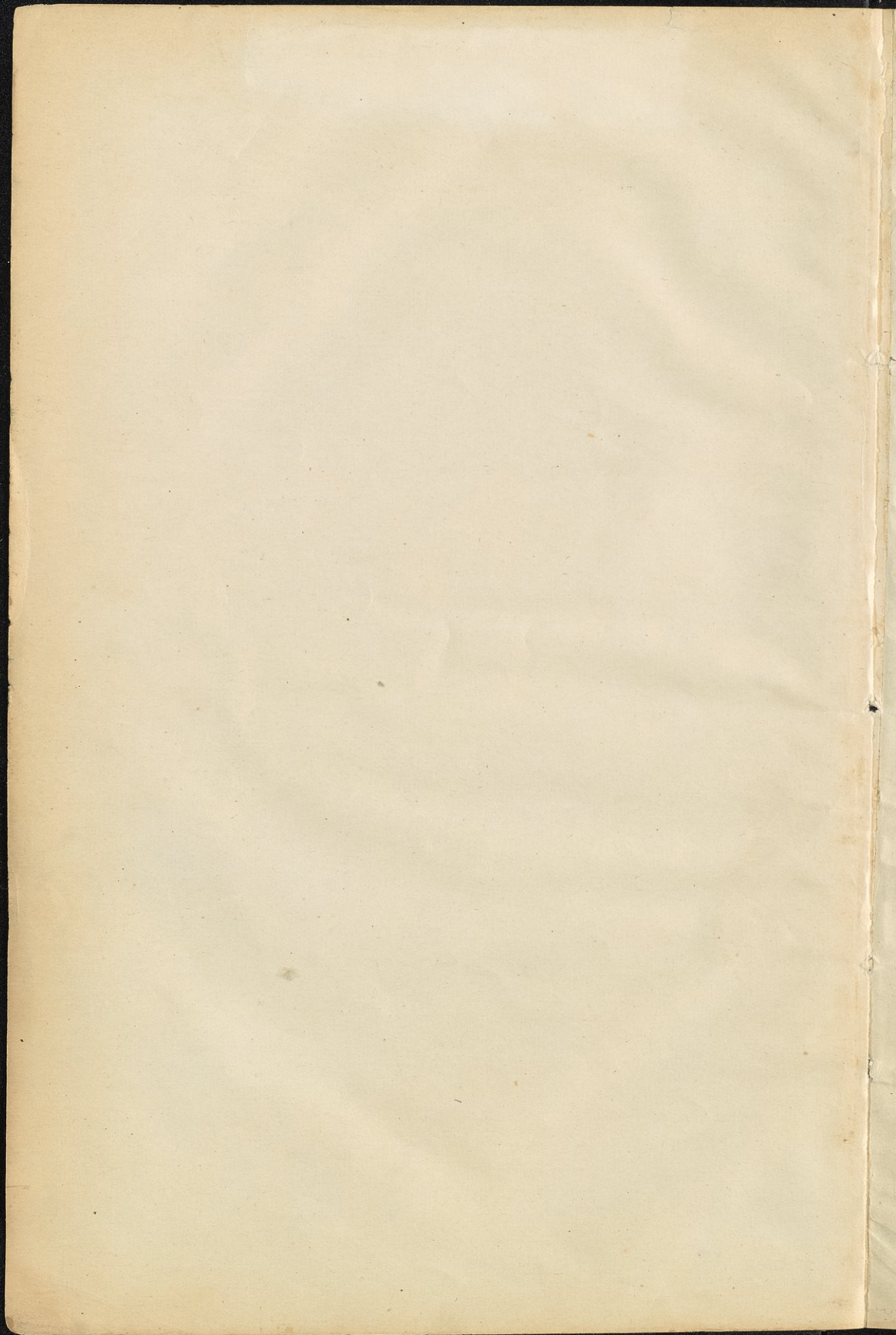
FIRST WARD BRANCH

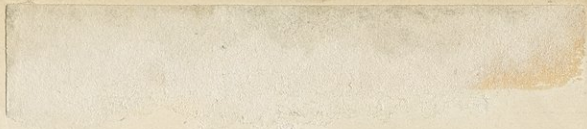


BROOKLYN NEW YORK
PUBLIC LIBRARY









7

DISCARD

Arabic

892.7 R.

Postand, Edmond.

El-shaer.

cop. 1

DISCARD

892.7

R

cop. 1

Binghamton Public Library

TO THE BORROWER

Keep your card in this pocket and return it with the book.

This book, if not renewed, is to be returned on or before the last date stamped on the card, after which 2 cents a day will be charged.

The borrower is responsible for all books drawn on his card.

Change of residence must be promptly reported.

Rand Kardex #22-2780-41

71-4-1-4-77

